الأعمال الكاملة

١٩٨٩ - ٢٠٢١ م

الجنقو مسامير الأرض

الأعمال الكاملة

١٩٨٩ - ٢٠٢١ م

عبد العزيز بركة ساكن

الجنقو مسامير الأرض

ISBN 9789776597195

© Willows House 2021

الطبعة الأولى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميع حقوق النشر محفوظة للناشر، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة، إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله، بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكة، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين أو الاسترجاع، دون إذن خطّيّ من الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

B A R A K A S A K I N

عبد العزيز بركة ساكن

الأعمال الكاملة

١٩٨٩ - ٢٠٢١ م

الجنقو مسامير الأرض

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

إهداء

إلى روح الجميلـة، النظيفـة، النقيـة، الشـفيفة، مريـم بـت أبـو جبريـن، أمـي

الجَنْقُو مَسَامِيرُ الأَرَضْ

مقولة لمجهولين

بَيتُ الأم

الجنقـو يتشـابهون في كل شيء، يقفـزون في مشـيهم كغربـان هرمـة ترقـص حـول فريسـتها، يلبسـون قمصانًـا جديـدةً، ياقاتهـا تحَفّـل بالأوسـاخ التـي عمـل العـرق وعملـت الشـمس وريـح السـموم والتُربـة الطينيـة السـوداء عـلى جعلهـا شـاهدًا عـلى صراع مريـر مـع المـكان والطقـس ولقمـة العيـش. يفضلـون الجينـز ذي الجيـوب الكبـيرة والعلامـات التجارية البـارزة، المكتوبـة بخطـوط كبـيرة مثـل: كونـز، وانـت، ديـوب، لي مـان، ونسـتون وغيرهـا، لا يعرفـون مـاذا تعنـي، لكنهـا تعجبهـم ويفضلونهـا عـلى غيرهـا، ويدفعـون لأجـل الحصـول عليهـا مـالًا سـخيًا. يحيطـون خصورهـم بأحزمـة الجلـد الصناعـي، فتبـدو هيئاتهـم كمخلوقـات غريبـة لا تنتمـي للمـكان، لكنهـا تقلـد كل شيء فيـه بالأخـص كُلّيقَـةْ السمسـم المحزومـة جيـدًا. أحذيتهـم التـي كانـت جديـدة، لامعـة وأنيقـة في أواخـر ديسـمبر المـاضي، الآن هـي ذكـرى تلـك، مَـزْق متسـخة ذات أخـرام وألـوان يَصعـبُ تحديدهـا في الغالـب، لا يهتـم أحـد بتهذيـبِ شـعر رأسـه، في مـا بعـد حدثنـا ود أمونـة بـأن عاناتهـم كَثّـةُ وأنهـم يهملونهـا، يتركـون شـعر رأسـهم الـذي يميـل للحُمْـرَةِ مـن فعـل الشـمس كثّـا متشـابكًا قصـيرًا أو طويـلًا في مسـتعمرات للـشرا.

للجنقـاوي أو الجنقوجـوراي عـدة أسـماء عـلى مـرّ السـنة وشـهورها وفصولهـا: فهـو كَاتَاكَـوْ، في الفـترة مـا بـين ديسـمبر إلى مـارس، حيـث يعمـل في مـزارع السُّـكّر بكنانـة، ومصنـع سُـكر خشـم القربـة، عسـلاية أو الجنيـد.

ويُسَـمى فَحْامِـي، في الفـترة مـا بـين أبريـل إلى مايـو، حيـث يعمـل أم بحتـي؛ أي منظـف للمشروعـات الجديـدة أو المهملـة مـن الأشـجار، ويصنـع مـن سُـوقها وفروعهـا الفحـم النبـاتي.

ويُسَمى جنقو أو جنقوجورا، في الفِترة ما بين يونيو وديسمبر، أي منذ هُطول الأمطار، إلى نهاية موسم حصاد السمسم. أما خلال السنة كلها فتطلق عليه النساء اسم فَدّادِي. وبالمقابل يُسَمِي هو النساء اللائي يصنعن المريسة والعرقي فدَاديّات، وعرفنا أيضًا من بعض الجنقو الذين أتوا من الفاشر ونيالا، أن اسم الجنقوجورا هو المستخدم عندهم، للدلالة على ما نُسميه نحن في الشرق اختصارًا جنقو، بالتالي لا يطلقون لفظ جنقاوي للمفرد كما نفعل، بل جنقوجوراي.

هي ليست المرة الأولى التي نصطحب فيها بعضنا، أنا وهو، إلى مكان لا نعرفه ولن تكون الأخيرة، فمنذ أن طُردنا من وظائفنا للصالح العام، قبل خمس سنوات، تجولنا كثيرًا في شتّى بقاع السودان: شماله، جنوبه، غربه وشرقه. كان هو من أسرةٍ ثرية، ويحتفظ بمالٍ كثير لنفسه يمكنه من أن يتفرغ بقية حياته كلها للجري وراء متعة المشاهدة، كما أطلقنا على ما نقوم به من (تِسِكِع وتِلِكِعْ (في بلاد الله الشاسعة. أنا فقير. لكني عازب ولا أتحمل مسؤولية أحد غير نفسي؛ إخواني وأخواتي متزوجون، بعضهم خارج السودان، والبعض الآخر في الداخل، واتخذوا طريقهم المحتوم في الحياة. أمي وأبي متوفيان، هو يساعدني كثيرًا في تحمل مصاريف السفر ومتعة المشاهدة، وأنا أوفر له الرفقة الطيبة، ويقول الناس عندنا: الرفيق قبل الطريق.

تصرخ رائحة العَرَق المشوي بشمس الدَرَتْ الحارقة، شمس سبتمبر لتملأ الأنوف زَنْخًا لا يُحتمل. دندن في صوت مرح:

- رجال.. رجال.. نحن في حلم؟

قلت له:

- أنا شُفت واحدة قبل شوية.

يبـدو أن الشـاب العِشرينـي الـذي يجلـس قربنـا، الوسـيم، الـذي يحتـسي قهوتـه، لم يكـن منشـغلًا بموضوعـات الحصـاد، الربـح والخسـارة، العنتـت والقبـور الكعـوك وطيـور أم عويـدات وود أبـرق، كـما هـو الحـال عنـد الجميـع وبمـن فيهـم صاحـب القهـوة البـدوي الشـاب كـثّ الشـعر، أو بما تقدمـه لـه رشـفات القهـوة مـن متعـة تبـدو عظيمـة، كانـت أذنـاه تتصيـدان مـا نهمـس بـه، ربمـا مـا نفكـر فيـه أيضًـا، قـال لنـا دون مقدمات، بحـماسٍ عـالٍ سـاذج:

- إنتو ما مشيتوا بيت الأم، معقول؟ ! لازم تمشوا بيت الأم.

قلتُ:

- بيت الأم؟.. أم منو(من) ؟

قال:

- نعم، بيت الأم.. أم الناس كلهم.

سأله صديقي:

- بيت الأم؟

قال:

- أيوه، بيت الأم.

ثـم أضـاف بلغـة التجِرنّـة، وكأنمـا نحـن نعـرف كل لغـات الدنيـا: قَـذاَ أَدّيْ.

نهـض مـع آخـر رشـفة مـن قهوتـه، نهضنـا خلفـه، كان وسـيمًا متوسـط الطـول، لـه بـشرة لامعـة صفـراء وشـارب كـث، شـعره منسـق وحديـث الحلاقـة، يبـدو أن اهتمامًـا خاصًـا قـد صُـب عليـه، تتبعـه رائحـة طيبـة ميزنـا ماركتها بسـهولة، كان شـخصًا لا يشـبه شـخوص المـكان، نظيفًـا، أنيقًا، بـه ليونـة باديـة للعيّـان، في مِشـيته وطريقـة كلامـه ووجهـه النظيـف.

قال هو ينظر إليّ:

- أنا اسمي ود أمونة.

ابتسم وهو يضيف:

- اسـمي كـمال الديـن، لكـن مـا في زول يعـرف كـمال.. أمـي أمونـة، وهـي تقـول لي ود أمونـة النـاس، لقـوا الاسـم سـاهل، يـلاّ.. ود أمونـة.. ود أمونـة.. النـاس يـوم القيامـة ينادوهـم باسـم أمهاتهـم.

قال له صديقي:

- مـا في مُشـكلة الأم مـا في زيهـا، يـا ريـت لـو نـادوني باسـم أمـي، كنـت حأكون أسـعد زول.

قال له ود أمونة فجأة:

- أمك اسمها منو ؟

- أمي مريم.

- وأنت؟

قال مخاطبًا إيّاي.

-زينب، زينب أبّكَرْ.

قال:

- أمي اسمها آمنة، ولكن اسم الدلع أمونة.

وسألته:

- إذن بيت الأم دا.. بيت أمك أمونة.. مش كدا؟

قال نافيًا بشدة:

- لا، بيت الأم دا بيت الأم، قربنا نصل.

ثم أضاف:

- إنتوا من وين؟

قلنا معًا بصوت واحد:

- من القضارف.

صمت صمتًا طويلًا ثم أصدر هواءً من فمه بصوت محسور:

- سجن القضارف.. شفتوا سجن القضارف؟.. بالتأكيد تكونوا شفتوه، مش كدا؟ ! في ديم النور.

رد عليه:

- بالتأكيد.. في زول في القضارف ما شاف السجن؟

قال وهو يخطو بنا خطوات سريعات في عمق المكان:

- أنا اتربيت فيهُ.

سيعرف في ما بعد أن والدينا كانا يعملان في ذات السجن. سحبنا من بين قطاطي ورواكيب القَش في أزقة طويلة لا تنتهي تتلوى كالثعابين، صاعدة هابطة على أرض وعرة عليها أخاديد صنعتها الوابورات واللواري وعربات الترحيل الخفيفة مثل اللاندروفرات والبربارات، تَعم المكان رائحة البخور مختلطة بعَبق المريسة، وبعض الخمور البلدية، على خلفية من ريح فاترة تهب جنوبًا، دافئة وطيبة. دون أن نطرق بابًا من الزنك على سور من القش والحطب، دخلنا بيت الأم أو كما يطلقون عليه بالتجِرنّة: قَذَاَ أَدّيْ.

السَجِينُ، السِجِنُ والسَجّانُ

هـذا مـا تحصلـتُ عليـه مِـنْ عـدة حُـكاة ورواة، مـن بينهـم حَبيبتـي أمْ قِـشْي، والأُم، مُختـار عـلي، الصافيـة؛ وود أمُونـة نفسـه، مـع بعـض التدخـل وقليـل مـن التأويـل والتحويـر والالتفـاف والتقويـم والإفسـاد أحيانًـا، لحكايـة ود أمونـة في السـجن.

قـرر بينـه وبـين نفسـه ألاّ يغسـل الأطبـاق بعـد اليـوم، ولـو أنهـم نفـذوا تهديدهـم ورمـوا بـه في الشـارع، لا يهـم؛ يسـتطيع أن يبقـى خـارج السـجن، ويمكنـه النـوم تحـت الجـدار الـذي يقابـل غرفـة أمـه، وسـوف يـأكل مـا ترميـه أمـه لـه مـن أعـلى السُّـور، وهـو أيضًـا يعـرف كيـف يصطـاد الطيـور والفـئران ويشـويها، عـن طريـق المهـارات القتاليـة التـي اكتسـبها مـن والدتـه، يسـتطيع أن يحـارب الأشرار، قـد لا يعرفهـم الآن ولكنـه سـينتصر عليهـم فـور أن يشرعـوا في مهاجمتـه. كانـت أمـه أمونـة تقـول لـه دائمًـا:

"كَانْ اعتـدوا عليـك عِشْريـن أو مِيّـة شـخص، إنـت أَمْسِـكْ وَاحْـد بَـسْ، وإن شـاء اللـه تعضيـهُ بسـنونك، إن شـاء اللـه تخربشـهُ بأظافـرك، إنْ شـاء اللـه تَدَخِـلْ يدينـك في عينـهُ، لكـن مـا تخـلي حَقـكْ للنـاس، ولا تبـكي ولا تجـري. الدُنيـا دِي مَـا بِيَنَفَـعْ فِيهـا الضَعِيـفْ».

قطعت حبل تفكيره أنامل الشامة على رأسه:

- تعال عليك الله فليني يا ود أمونة.

هو لا يحب الشامة، بالذات:

(رائحـة في فمهـا أعفـن مـن البـول، رأسـها كلـه قمـل، ووسـاخة، وقالـوا كتلـت راجلهـا).

قالت له الشامة:

- أُمُك الليلة طلعوها خدمة في بيت المأمور، أنا ما عارفه المأمور دا عايز منها شنو(ماذا)، ما عايز يخليها في حالها.

(ما حأغسل الصُحانة).

هكذا قال ود أمونة مُصدرًا أمرًا لنفسه.

طباخ السجن النحيف صاحب الأصابع الطويلة واليدين الممسكتين دائمًا بالكمُشَةَ أو المِفْرَاكَة، كان يرى في ود أمونة مستقبل طباخ ماهر.

(ود أمُونة يشبهني في أشياء كثيرة عندما كنت طفلًا كنت مثله وسيمًا وسمينًا وكسولًا وكثير الشجار مع الأطفال، ولكني أيضًا كنت أحب أن أكون في صحبة النساء مثله تمامًا).

أكثر ما لا يُحبه ود أمونة في طباخ السجن، بالإضافة إلى أطباقه التي دائمًا ما تحتاج إلى من يغسلها من الويكة ودهن إدام القرع، أن طباخ السجن لُوطِي.

بالأمس، بعد أن فرغ ود أمونة من غسيل الأطباق ورصها بانتظام على دولاب الحديد طلب منه طباخ السجن أن يلعبا بالعملة النحاسية(صُورة كِتابة(، قال له طباخ السجن:

- كان غلبتني، تديني بُوسَة، وكان غلبتك أديك بُوسَة.

وبصق سَفّة الصعوط جانبًا قرب قدر كبير على الفحم، وبحركة بهلوانية أخرج قطعة عملة من النحاس، أطارها في الهواء، ثم تلقاها بكفه، وبسرعة البرق أغلق عليها بكل أصابعه واضعًا في نفس اللحظة ابتسامة على طول وعرض فمه الكبير، بين أسنان صفراء متفرقة بارزة، سأل ود أمونة:

- طُرة ولاّ كِتابة؟

- أطـار بعـض رذاذ البصـاق في الهـواء، سـقط بعضـه عـلى وجـه ود أمونـة، مسـحه بباطـن كفـه في قـرف.

- (أكـثر مـا أكرهـه في هـذا الشـخص، شـفاهه المبتلـة دائمًـا بالبصـاق ورائحـة الصعـوط).

- قالـت لـه الشـامة وهـي تعيـد نظـم ضَفـيرة مـن الشـعر المسـتعار عـلى رأسـها:

- أمـك حتجـي بعـد كـدا، المأمـور كَرّهها الدُّنيـا.. إنـت عـارف ملابسـه وملابـس أولاده وبناتـه، وحتـى جيرانـه. واللـه أنـا شـاكة في إنـو قاعـد يأخـد عمولـة مـن النـاس في الغسـيل.. أمـك لـو بقـت مكنـة غسـيل حتنتهـي.. ولكـن هانـت.. باقـي لينـا كلنـا السـنة دي بـس، أمـك باقـي ليهـا سـتة شـهور، هانـت يـا ولـدي.

قال له ود أمونة، بصورة نهائية وقاطعة:

- أنا ما عايز ألعب معاك طُرة كتابة.

- كويس، تعال أديك بُوسة.

- ما عايز، لا تديني بُوسَة ولا أديك بُوسَة.

- كويس، لمّان يجي الصول ويشوف الكُبّاية الكسرتها تعرف حاجة.

- حأكلم أمي.

- قال الجاويش، طباخ السجن مستهترًا:

- أمك تعمل شنو، خليها تقدر على نفسها.

- ثم أضاف بلينٍ:

- بطنـك بتملاهـا مـن ويـن؟ تعـال يـا ود أمونـة، إديني بُوسَـة أو شـيل منـي بُوسَـة زي مـا تـدور.

- عندما ينتصف نهار السجن، تسمع طقطقة الزنك كأنها فرقعة عبوات رصاص صغيرة تقدح جماح العرق النسواني التعب المتبل بفطر إبطهن وعاناتهن، رائحة البلاط وزنخ شعر الرأس المُلبّكْ بالأسطبة والجورسي القديم، وطنين الذُبابات مختلطًا بقهقهة السجانين، نداء الجاويش المسجوع من حين لآخر:

- مُوية يا بنات.. الموية.

- أخرجت الشامة مكافأة صغيرة من مطبقتها وقدمتها لود أمونة نظير متعة التفلية وعربون خدمة قد تطلبها منه في يومٍ ما. العنبر الطويل يحتوي على عشرين سيدة: عجوزان اتهمتا قبل عشر سنوات ماضية بحيازة جوالين من الحشيش، صبية جميلة رقيقة اعتادت سرقة الذهب والمجوهرات، أمه بائعة عرقي البلح وقد ضاعف قاضٍ غيور على الدين العقوبة عليها سبع مرات لأنها لم تقلع عن الفعل الحرام؛ طالما جلدت مرارًا، وغرمت تكرارًا وسجنت شهورًا كثيرة متفرقات، الشامة اتهمت بقتل زوجها وتقول إنه شرب الصبغة مع عصير البرتقال من تلقاء نفسه غيرة عليها وأخريات، وأخريات، وأخريات. لكن ود أمونة كان لا يهتم بغير واحدة لا يعرف كم عمرها ولا يفهم طبيعة جريمتها، كانت قليلة الكلام، تغني دائمًا بصوتها الشجي وتحكي له قصصًا طويلة تقصر عليه الانتظار الطويل بالسجن، ولو أنها كانت تقضي فترات طويلة، مريضة طريحة بلاط العنبر إلاّ أنها كانت الأكثر مرحًا، هادئة وطيبة لينة وصبور، أمه لا ترغب في أن يتقرب إلى العازة.

- يا ولد أخير ليك تختى(تترك) الشرموطة دي.

- وذلك أمام عازة مباشرةً وفي حضرة من حضر، لا يهم، تضحك عازة وتجلس على الأرض، (تطلب مني أن أركب في ظهرها، وفي قفزة سريعة أركب، تنهض بي على الرغم من أرجلي الطويلة تجري بي في الفراغ الذي يقع بين العنبرين).

- وعندما دخل الجاويش فجأة المطبخ، ارتبك الطباخ، أمر ود أمونة بأن يذهب إلى سجن الرجال ويحضر الأواني الفارغة.

- بسرعة يا ولد.

- وهرب ود أمونة نحو عنبر الرجال.

- أدخل هدية الشامة سريعًا في جيبه ثم تحسسها بكف يده اليمنى ليتأكد من استقرارها هناك، باسته على خده قائلة:

- أجري غسِّل يديك، عايز تاكل بيهم كدا.

- عندما يضع هدية الشامة في علبة التوفير مع ما وفره من هدايا المسجونين والمسجونات وحتى الطباخ نفسه والعساكر، يكون قد تمكن من مبلغ لا يعرف قدره ولكنه يزداد يوميًا، ببطء، ولكنه لا ينقص، حتى عندما يرسلونه إلى الدكان القريب أو السوق لإحضار تمباك أو علبة سجائر أو ما شابه ذلك ويطلبون منه الاحتفاظ بالباقي، فهو يبخل على نفسه بقطعة من الحلوى الكثيرة الشهية التي تطل عليه من بين الأرفف والطبليات وفي أيدي الأطفال الذين في عمره، كان يعرف أيضًا المساجين الذين في عنبر الرجال، قد تتغير الأوجه يوميًا ولكن المساجين الجدد يُعرَفون في اليوم الأول لقدومهم، بالاسم والقبيلة والجريمة والمدينة والقرية والشهرة. جمع بسرعة الأواني التي دفع بها السجناء خارج زنزاناتهم أو عنابرهم ثم أخذ ما يستطيع حمله على جسده الصغير ومضى به نحو المطبخ.. كان الصول لا يزال هناك، وعندما رأى ود أمونة يترنح تحت ثقل الأواني صرخ في وجه الطباخ:

- إنت عايز تقتل ود المرا دي ولا شنو؟

- فأسرع الطباخ في تناول الأواني من على كتف ود أمونة وهو يعتذر بهمهمة غير مفهومة.

قال لود أمونة بود:

- يلا أجري العنبر، أمك في انتظارك، تكون جات من الخدمة.

قال ود أمونة للشامة:

- أنا ماشي لعازة.

ردت عليه في شماتة:

- إنت ما عارف إنو دخلوها الزنزانة.

- عارف وووديت ليها موية قبيل، مسكينة عازة.

قالت بصورة حادة:

- ما مسكينة ولا حاجة، عازة دي مجرمة.

قال ود أمونة مستغربًا:

- مالها، عملت شنو؟ قالت لي هي ما عملت أيّ شيء.

قالت الشامة:

- لقوا عندها ممنوعات.

- عندها استطاع أن يربط ود أمونة أحداث قبل الأمس، بأحداث يوم أمس بما سمعه اليوم من الشامة.

أحداث أول أمس:

كانت عازة تحت الحائط الشرقي، لسنا بعيدين عن بُرج المراقبة، حيث كان السجان بريمة بين وقت وآخر يتبادل الكلمات مع العازة وأيضًا السجائر، حدثتني العازة عن أمانة تخصها عند امرأة في الحُمرة بإثيوبيا، وأن المرأة جاءت من هناك، وهي الآن في القضارف ولم تجد طريقة لإحضار الأمانة لها في السجن، لأنها تخاف من البوليس ولها سوابق كثيرة.

ثم أضافت ضاحكة:

- سُمْعَتها سيئة.

أحسّ ود أمونة حقيقة بارتباكٍ في تفكيره عند سماعه الجملة الأخيرة (سُمْعَتها سيئة(، ولم يفهم لهذه الجملة معنى محددًا، ولكنه ابتسم واقترح في نفسه أن لها معنى مثل جملة الطعام الفاسد، تجاوز ذلك، أو لم يستطع أن يتجاوز ذلك، قال لها:

- يعني مالها؟

قالت له:

- يعني..!!

وأحنت رقبتها الطويلة بطريقة عقدت المعنى، ثم أضافت:

- سجنوها كم مرة.

- زي أمي كدا.

قالت بسرعة:

- أمك مسكينة ما عندها حاجة غير عرقي بلح بس، ولكن القاضي قاصدها.

قذف بريمة للعازة بعلبة سجائر برنجي، سقطت على حجرها مباشرة، وعندما نظرت إليه غمز لها بعينه اليُسرى، فضحكت وضحك، ضمتني عازة إلى صدرها بشدة إلى أن شممتَ رائحة إبطها وقالت لي هامسة:

- تساعدني يا ود أمونة.

- كيف؟

- تجيب لي الأمانة من ألم قَشي؟

- ألم قشي؟

- إنت ما قلت لي مرا من الحُمرة؟

- أيوه، إنت ما عارف إنو ألم قشي من الحُمرة.

أضاف في استسلام:

- وين ألاقيها؟

قالت وهي تحك بأظافرها سيخ الباب:

- في موقف الشُواك.

- وكيف أطلع؟

قالت لي مبتسمة:

- سـهلة، لمـا يرسـلك الطبـاخ للسـجائر زي كل يـوم، تقـوم جـاري لموقـف الشـواك وتلقاهـا هنـاك منتظـراك، الـكلام دا بعديـن، بعـد صـلاة الضهـر.. زي كل يـوم.

- لو ما رسلني الليلة؟

قالت بثقة:

- حيرسلك، دَخِّلْ الأمانة هنا.

- وين؟

- هنا، هنا.

ولا يـدري، أحـدث هـذا صُدْفَـة أم عِنيّـة، ولكـن اسـتقرت كفهـا هنالـك لوقـت خبيـث لا بـأس بـه، وقبـل أن تـشرح لـه أكـثر قرصتـه برقـة فيـه، رقـة وحشـية غامضـة، رقـة أكـثر.

ما حدث بالأمس:

اعتاد ود أمونة أن ينام مع أمه في ذات السرير، أو هي كانت تصرّ على ذلك، ربما خوفها الشديد عليه له ما يبرره، خوفها من الجميع دون فرز، مسجونات ومسجونين، سجانين وعمال سجن، لم يكن هو الطفل الوحيد الذي في صحبة أمه بالسجن، بل كانت هناك ثلاث طفلات، ولكنهن رضيعات ولا يعرفن شيئًا، بل لا يمكن إصابتهن بمكروهٍ ظاهر، لكن طفلها، ود أمونة، طفل التاسعة في خطرٍ دائم من الجميع، لأسباب أهمها أن لابنها جسدًا أكبر من عمره وأنه رغم البؤس وسوء الطعام مع قلته، له جسدٌ سمينٌ وساقان طويلتان مما يجعله أكبر من عمره بكثير، وإذا أضافت إلى ذلك وسامته، فإن الأمر يبدو واضحًا وجليًا. أمه، تعرف أن الطباخ منحرف، وأنه يتقرب إلى ابنها وقالت لنفسها:

- إذا لمس الولد ده لمسة، لمسة حأكتلوا كتلة يتحدث بها الناس إلى يوم القيامة. ولكنها تخاف عليه أيضًا من النساء ولو أنه لم يبلغ الحلم بعد ولكنها تعرف أنهن يعرفن كيف يستخدمنه.

ولقد خاطبتهن على مَلَأ:

- أسْمَعنْ يا شراميط هيييي، اليوم الألقى فِيهُ ولدي دا مع واحدة، حأرسلها الآخرة.

ضحكن؛ غِظنها بقولهن إنهن سيفعلن، وإنها فرصة له ليتدرب، ولكنهن في باطن عقولهن، كن يعرفن أنها جادة في قولها وأنها ستفعل.

عندما استيقظت أمه استيقظ، في الحق استيقظ العنبر كله على جَلَبَةِ مصدرها عراك في عنبر الرجال، السبب البنقو.

- البنقو؟

وكعادة السجانين أنهم يتبعون أقصر الطرق للحصول على الحقيقة وهي الضرب المبرح والقرص بالزردية، لذا لم يستغرق الأمر طويلًا، جاء جاويش يُسمى غلبة إلى عنبر النساء، أمسك بيد عازة، أوقِفَتْ، ثم صُفِعَتْ في وجهها بكف كبيرة قبل أن يقول لها غلبة:

- أرح وراي.

قال ود أمونة للشامة وقد استدرك الأشياء كلها، وربط بينها:

- البنقو، مش كدا؟

قالت له الشامة:

- أيوه، البنقو.

سألها:

- جابته من وين؟

قالت له:

- أبت تعترف.

سأل خائفًا:

- وإذا ضربوها حتعترف؟

قالت له:

- هم ضربوها ولكن العازة عنيدة، ولو كتلوها ما حتعترف.

جلس عند باب الزنزانة، كانت يدها على يده بين السيخ، قوية وواثقة ودافئة، كانت آثار الضرب واضحة على وجهها، اعتاد ود أمونة على هذه المناظر وما عادت تؤلمه كثيرًا، فقد رأى أمه مرارًا بوجه متورم وظهر متقيح، بل شاهد ذات مرة الجاويش غلبة يتحرش جنسيًا بوالدته وعندما أبعدته عن نفسها، قام بصفعها في وجهها عدة مرات.

قال بصوت ضعيف مرتجف:

- حيقبضوني.

ضحكت العازة مؤكدة له إن الشيء الذي أحضره من ألم قشي ليس هو البنقو ولا شيء ممنوع وفتحت له كيسًا كان قربها وأخرجت منه لفافة، هي ذات اللفافة التي أحضرها، مدتها إليه قائلة:

افتحها.

أبعد يديه في خوف:

- لا.

- أقول ليك شوف فيها شنو، عشان تتأكد.

وعندما رفض وحاول أن يهرب، قامت بفضها، فلم يكن بها سوى قطن طبي، قالت له:

- قطن، قطن تحتاج ليهُ النُسوان، وهو ممنوع في السجن لأن المساجين بيعملوا منه قنابل بالبنزين.

لم يقتنع ود أمونة ولكنه أحس براحة نفسية عميقة، قالت له:

- أنا ما بعت أي بنقو للمساجين ـ ولا يحزنون ـ وما تخاف عليّ ولا على نفسك.

قبل غروب الشمس بقليل جاءت أمه، كان قد استحم وغسل جُلبابه الآخر وحذاءه البلاستيكي وانتظرها راقدًا على السرير، كاد ينام، رمت عليه كيسًا صغيراً به تفاحة وقطعة حلاوة المولد، ورغيف وطحنية.

- الليلة اشتغلنا غسيل في بيت المأمور، غسلنا ملابس ناس الحِلة كُلها.

قالت له أمه في حنية وهي تمسح رأسه بكفها:

- كنت وين بالنهار؟ رسلوك للدكان والسوق؟

- غسلت العدة للطباخ واتونست مع عازة، لو شفتي يا أمي دقوها دق.

قالت أمونة جملة واحدة ورمت بنفسها على السرير قربه:

- تستاهل..

- ليه يا أمي؟

- البت دي قليلة أدب شوية، الوداها تبيع البنقو شنو؟

قال دون تركيز:

- يا أمي هي عندها قطن مش بنقو.

قالت مستغربة:

- قطن شنو؟ في قطن يبيعوه.

- والله أنا شُفتُهُ.

- إنت ما عايز تختى الزولة دي، أنا مش قلت ليك ما تكون معاها.

سكت ود أمونة قليلًا، بدأ يقضم جزءًا كبيرًا من التفاحة، أكلها باستمتاعٍ ظاهر، قال:

- كل يوم جيبي لي تفاحة.

- كويس.

عندما نامت أمه، أخذ ما تبقى من الكيس ومضى نحو الزنزانة، كان الظلام قد بدأ يهبط ولكن الإضاءة الضعيفة عبر الممر دائمًا ما تمكنه من التجول بسهولة في أنحاء السجن، كما أن الحرس قد اعتادوا

عليه ولا يعترضون تجواله بل يرحبون به ويداعبونه ويرسلونه، على كلٍ، هو شخص محبوب هنا. رفضت العازة في بادئ الأمر تناول ساندوتش الطحنية الذي مده إليها ود أمونة، ولكنه عندما بدأ يبكي، أخذته منه، كانت جائعة جدًا وبدت له شاحبة وهزيلة وأظهرتها الإضاءة الباهتة مثل شبح كبير حقيقي، ولكن كفها الدافئة تؤكدها باستمرار وتسري في نفسه بهجة وحبًا، لأول مرة تسأله عن والده، قال لها:

- أمي قالت لي أبوي يمني، وقالت رجع اليمن، كان عنده دكان في الحلة، **تزوج أمي وطلقها.**

- ما عندك أخوان تاني؟

- لا، أنا وأمي بس، أهل أمي في البلد.

- وين بلدكم؟

- والله ما عارفها، أمي قاعدة تقول البلد، والبلد دي وين؟ أنا ما شفتها.. أنا ولدوني في (الحلة) وما مشيت أي مكان تاني غير جينا هنا القضارف في السجن، دخلت مع أمي كتير.. قالوا من ما كنت برضع، ولكنها طلعت ودخلوها تاني.

- أنا حأطلع قبل أمك.. لو أمك وافقت حآخدك معاي أنا عندي أهل وأسرة في القضارف هنا.. تعيش معانا في البيت لحدي ما تطلع أمك من السجن: كويس؟

قال لها في يأس:

- أمي ما بتقبل.. لو عليّ أنا.. حأمشي معاك طوالي.

- حأحاولها، إن شاء الله تقبل.. إنت لازم تمشي المدرسة. هَسِعْ(الآن) عمرك كم؟

- تسع سنين.. ما حيقبلوني في المدرسة؟ أنا حأمشي أشتغل مع الميكانيكيين عشان أطلع سواق وميكانيكي.

قالت بصورة مؤثرة:

- لا.. حتقرا وتطلع دكتور.

قَدّمَ لها قطعة كبيرة من حلاوة المولد وهو يضيف:

- وأمي قالت بدون شهادة ميلاد مافي ليّ طريقة.

قالت وقد رأى بريق عينيها عبر ضوء الممر الخافت:

- حأطلع ليك شهادة تسنين، وحأدخلك المدرسة.. أنا بعرف مدير مرحلة الأساس، قاعد يجي بيتنا في القضارف، وبعرف الزول البيطلع شهادات التسنين، ما عندك أي مشكلة، بس كيف أمك توافق.

مرّ بهما جاك طويلة، وهو شرطي نحيف طويل اسمه علي، يعرفونه بالجاك طويلة، شخص مرح ويُعْرَفْ بأنه متدين، ودائمًا ما يَؤم السجانين في الصلاة، قال مخاطبًا عازة :

- لقيتي زول تتونسي معاه.

ردت عليه عازة:

- الله كريم.

قال وهو يمسك باب الزنزانة:

- قابلت أبوك الصباح.

- طبعًا ما سأل مني.

- قالي لو طلعتوها من السجن، إخوانها حيقتلوها. أخير تكون قاعدة معاكم.

قالت بإصرار:

- ما فيش زُول يقدر يقتلني.. والراجل يمد إيدو عليّ، وأنا حأطلع بعد شهر. ونشوف: الحشاش يملأ شبكته.

قال وهو يحملق في وجهها الذي ألصقته بسيخ الباب.

- سافري من البلد، أمشي أي مكان تاني تعيشي فيهو، وإنت زولة متعلمة.. وعندك مهنة.

قالت محاولة أن تبتسم:

- الغُنَا دا كمان مهنة؟

- ليه؟ الفنانين ديل دخلهم دهب.

- أنا حأشتغل أبيع شاي، وفي القضارف، وعارفة ما فيهم واحد راجل يقدر يلمسني كان أحمد ولا الصادق.

قال لها مغيرًا مجرى الحديث:

- المأمور قال بُكرة حيطلعك من الزنزانة للعنبر، ولكن حيكتبك إقرار عشان ما تقومي بأي عمل إجرامي هنا في السجن.

قالت:

- رَبُّنَا أحسن منه.

قال ضاحكًا:

- إنت بس لو سبتي بنات حي فوق ديل، ما في حاجة بتجيك.

قالت بضيق:

- أنا يا مولانا ما عملت حاجة، يعني شنو لو لقوني في بيت عزابة؟ ولييه ما سجنوا العزابة؟

قال:

- العزابة هربوا.

قالت بمرارة:

- كلهم معروفين.. وقاعدين في القضارف، ولو عايز هسع أرح أمشي معاي أسلمك ليهم واحد واحد.. ومنو القال ليك هم عزابة؟

قال في صوت خفيض:

- دي مسؤولية المباحث والتحري والقاضي، أنا زول شغال في السجن هنا، يجيبوا لي أحرس، ما جابوا.. ما عندي غرض بزول.

أيضًا لم يفهم ود أمونة ماذا يعني أن يقبضوا على امرأة إذا دخلت بيت (عزابة(، اعتبر ذلك مثل الطعام الفاسد أيضًا.

عندما مضى جاك طويلة جلست معطية ظهرها للباب الحديد، وخلف السيخ كان ود أمونة يمشط شعرها بخلاله وهي تغني بصوت شجي عميق:

من طرف الحبيب جات أغرب رسايل

يحكي عتابُهُ فيها

قال ناسينُهُ قايل

قال ناسينُهُ قايل

هذه الأغنية لا تعجبه، تعجبه أغنية:

ما هي دنيتنا الجميلة

شوفو دنيتنا الجميلة

بأزهارها بأشجارها ونخيلها

غنتهـا لـه، عندمـا دقّ جـرس النـوم، أي دوي الطـرق عـلى القضيـب المعلـق وسـط السـجن معلنًـا أن السـاعة الآن التاسـعة مسـاءً، تلمـس ود أمونـة الطريـق نحـو عنـبر النسـاء، وهـو في الطريـق، لأول مـرة يفكـر في شـيئين: أبـوه والمدرسـة.

وهـما شـيئان مـا طرقـا بـاب مخيلتـه مـن قبـل، هـو لم يـر أبـاه في يـوم مـا، ولا حتـى صورتـه؛ بـل لم تحدثـه عنـه أمـه إطلاقًـا، ومـا قالـه للعـازة ليـس سـوى بعـض مـما سـمع مـن حديـث لأمـه مـع جـارة لهـا، قبـل أعـوام كثـيرة ولم ينسـه، أعمـل فيـه بعـض الخيـال وقالـه لهـا.

أمـا المدرسـة فلـم يفكـر فيهـا، كأنمـا هـي شيء لا يعنيـه عـلى الإطـلاق، وهـي حلـم كبـير لا تسـعه مخيلتـه، فقـد دخـل السـجن في هـذه المـرة الأخـيرة مـع أمـه منـذ سـنتين، أي أنـه كان في السـابعة مـن عمـره وهـو العـام ذاتـه الـذي التحـق فيـه أنـداده مـن أطفـال الجـيران بالمدرسـة، فهـو لم يرهـم يذهبـون إليهـا ولا يعـرف عنهـم شـيئًا منـذ عامـين، لا يـزال يتخيلهـم يلعبـون في الخـور وعنـد الماسـورة المتعطلـة أو يصطـادون الطيـور، الفراشـات، الجـراد والفـئران، أو يلعبـون دكاتـرة وممرضـات مـع البنـات الـلائي في أعمارهـم، يجـرون بترتاراتهـم، يركبـون الحمـير السـائبة وفي موسـم الصمـغ يذهبـون إلى زريبـة المحاصيـل لخطـف الصمـغ مـن الحجّـات، وعنـد العـصر يلعبـون حـرب حـرب، ضـد أولاد الحـي المجـاور، أمـا أن يذهبـوا إلى المدرسـة، فهـذه فكـرة لا يعـرف إليهـا سـبيلًا.

وجـد أمـه لا تـزال نائمـة ويعـرف أنهـا لـن تسـتيقظ إلا عنـد صـلاة الصبـح حيـث يصـلي جميـع المسـجونين في العنابـر صـلاة جماعيـة إجباريـة في الميـدان وسـط السـجن، الرجـال في الأمـام والنسـاء خلفهـم، ود أمونـة وحـده خلـف النسـاء، قـرر بينـه وبـين نفسـه أنـه بعـد صـلاة الصبـح سيسـأل أمـه عـن أبيـه ويطلـب منهـا أن ترسـله إلى المدرسـة، وعندمـا نـام، حلـم بأنـه ذهـب إلى المدرسـة، كان يحمـل حقيبـة كبـيرة فارغـة،

قابلـه مديـر المدرسـة وهـو طبـاخ السـجن ذاتـه، مـلأ لـه الحقيبـة بالكتـب والكراسـات وقـدّم لـه حَلّـة كبـيرة مملـوءة بالعـدس والطحنيـة، وقـال لـه:

خذها إلى العازة، وقول ليها دي جنازة أبوك.

فَجَـرّ الجثـة خلفـه عـبر ممـرات الزنازيـن، إلى أن أوصـل الفَـرَس إلى عـزة، ركبـا الفَـرَس وهربـا بعيـدًا، كان الأشرار يطاردونهـما عـبر النجـوم والغابـات، ولكنهـما مضيـا عـلى مـتن سـحابة كبـيرة ممطـرة إلى الأعـلى.. الأعـلى.. الأعـلى.. الأعـلى.

حدثهـم جـاك طويلـة عـن عذابـات يـوم القيامـة، كأنمـا كان يخاطبهـم فـردًا فـردًا، عـذاب السـارق، عـذاب القاتـل، عـذاب اللوطـي، عـذاب الشرموطـة، عـذاب صانـع الخمـرة، شـاربها، مناولهـا، بائعهـا، ناقلهـا والمنقولـة إليـه، عـذاب مـن لم يطـع الحاكـم، السـياسي، عـذاب مـن يهـرب مـن العدالـة، مـن يُحْـرض عـلى الهـرب، الـكاذب، الغاضـب، الـذي يمـوت وفي عنقـه ديـن، المتمـرد، الـزاني، المـزور، الـذي لا يصـلي، مـن أفطـر في نهـار رمضـان، ثـم تحـدث عـن عـذاب الكافـر وذكـر تحـت هـذا المسـمى:

الشيوعي.

والشيعي.

والمسيحي.

واليهودي.

والوثني.

والأمريكي.

وناكح الفرجين.

وناكح الرجل.

والرجل المنكوح.

الساحر، تارك الصلاة، والخامسية،

والخنزير، شجرة الزقوم،

وآكل الخنزير، وآكل الزقوم،

وقاتل النفس البشرية ولكن بغير حق،

وآكل مال اليتامى.

ولكي لا يغلق الباب الذي فتحه الله للإنسان، أكد أن التائب من الذنب كمن لا ذنب له:

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)..

اذهبوا إلى عنابركم يرحمكم الله.

قال لأمه وهو يُمسك بثوبها لكي تقلل من سرعتها، حيث أن الجميع يهرول من ميدان الصلاة هَرْوَلة إلى العنبر، ليكملوا نومهم.

- أبوي وين؟

قالت مندهشة وهي تقف فجأة وتنظر إليه في استغراب كأنها تراه لأول مرة في حياتها:

الليلة من وين طريت أبوك؟ بسم الله الرحمن الرحيم..!

- بس عايز أعرف.

أبوك في اليمن.. طلقني ومشى اليمن، وأنا لسع ما ولدتك.

- مش حايجي تاني؟

أجابت متثائبة:

- أنا نعسانة وعايزة أنوم.. والله ما عارفاهُ، لمّان تكبر تمشي تفتش عنُو في اليمن، كويس.

صمت قليلًا ثم قال:

- أنا عايز أخُش المدرسة.

- يا ولد، إنت جنيت؟ الليلة مالك؟ من الصباح دا قايم عليّ.. كدي قول بسم الله، وخلي الشمس تطلع، إنت قايل المدرسة دي ساي(بلا مقابل) كدا.. حتقعد مع منو؟ حتأكل من وين؟ والرسوم والكتب، وشهادة الميلاد.. زول شهادة ما عندو!

قالتها بطريقة كأنها تحمله المسؤولية كاملة، وهي عدم امتلاكه لشهادة الميلاد، ثم أضافت برقة:

- كدي خليني أطلّع من السجن وأشوف لي شُغل، إن شاء الله فرّاشة بعد داك أدخلك المدرسة.

قال لها وهو يمسح وجهه بظهر كفه:

- لمّان تخرج عازة من السِجن بعد شهر أنا حأمشي معاها، هي حتدخلني المدرسة.

هي قالت ليك كدا؟

ردّ في تردد:

- أنا قلت بَرَايْ(وحدي).

قالت بصورة قاطعة لا تخلو من الحَنَق:

- حنطلع من السجن دا أنا وإنت في وقت واحد: سَوَا سَوَا، شيطان ما حياخدك مني.. إنت ولدي أنا، ود أمونة.. فاهم.

امْرَأَةٌ اسْمُهَا أَلَمْ قِشِيْ

(عَلَّمَنَا هذا المكان قيمة العمل)

قالت لي بالتجِرنّة، المرأة النحيفة الطويلة، وهي تعبث بقِدْرٍ عليها ماء على موقدٍ صغير، ثم أضافت باللغة العربية، لغة الحدود:

- راجلي ضعيف زيك.

رفعت عينيها إليّ وكأنها تريد أن تتأكد من موقعي في القطية.

- بالله، راجلك؟ عندك راجل؟

كان تعليقي محرجًا، وأحسست بمرارة ذلك في حركة سريعة قامت بها، حركة غير مخطط لها، عندما أتى صوت جميل يغني في الخارج، قالت منادية:

- يا ود أمونة، عليك الله تعال دقيقة.

دخل ود أمونة، أنيقًا ووسيمًا كما هو، في جلباب أزرق نظيف، حياني قائلًا:

- كيف؟

- تمام.

ثم نظر إلى المرأة فأجابت:

- عليك الله ظَبِّتْ الشِيشَة لصَاحِبَكْ دا.

سألني وفي فمه ابتسامة كبيرة:

- عادي ولاّ تُفاح؟

- عادي.

- عليها شُوَيّةَ سيجارة خضرا؟

- لا، مُعسل بس.

أضاف ولم تفارقه الابتسامة بعد:

- عندنا حبشي وإريتري برضو، وأبو حمار.

- شنو الحبشي وشنو الإريتري وطبعًا أبو حمار معروف.

قال مندهشًا:

- الجن والكونياك.

قلت ضاحكًا:

- بعدين، بعدين.. شكرًا يا ود أمونة.

خرج يتبعه عطر فهرنهايت مُدهش. قالت بفخر:

- ولد ممتاز.. اتربى هنا معانا في بيت الأم.

قلت لها مراوغًا:

ولكنه قال لينا أنا اتربيت في سجن القضارف.

قالت مجيبة:

- صاح، لمّان كان صغير، دخل السجن بيرضع، ودخله بيمشي، وطلع منه مراهق، الذنب ذنب أمه أمونة، ومن ما طلع من السجن دخل بيت الأم هنا، إلى اليوم.

وفي هدوء النسيم دخل ود أمونة، وضع الشيشة أمامي في أدب جم وخرج دون أن يقول شيئًا، أضافت ماءً نقيًا للقدر الكبير، هدأ فورانه، أخذت تجمع حاجيات القهوة من مكان خارج القطية، لم اعتد لباس الملاءة، لونها أبيض، مما أظهرني كحاج تعب أرهقه التطواف، أعرف أن صديقي قد يفعل في ساعة ما سوف يقوم بفعله شخص مثلي

في يـوم كامـل، أعـرف عنـه أن مـا مـن غامـض يقـف أمامـه، أنـه مغـرم بفـض غمـوض كل شيء، امـرأة، حجـرة، كل شيء، لم أشـغل نفـسي كثـيرًا بـه، الزِقِنِّـي الـذي أحبـه، بالشـطّة الدِّليـخ أكلتـه بـ(القِيِّـحْ بَربَـري) لذيـذًا طاعـمًا، كان عَبـق قـلي البـن الحبـشي، أثـار فيّ ذكريـات كثـيرة وفي مـا بعـد ارتبـط عنـدي بصـورة مدهشـة بـكل مـا يخـص علاقتـي بـألم قِـشي.

كنـت تعبًـا ومرهقًـا كحـمار عجـوز. السـفر إلى (الحِلـة) بالمواصـلات العامـة وخاصـة عـلى ظهـر (البربـارا) يعتـبره البعـض نوعًـا مـن الانتحـار والمغامـرة، وعـلى أقـل تقديـر الطيـش.

- النـاس البعرفـوا البلـد دي، بيركبـوا البـص، البـص أضمـن وأسرع، البربـارا مـوت أحمـر عديـل.

كانـت تدلـك ظهـري بخليـط مـن الحَنْظَـل، دهـان أبي فَـاس، زيـت الزّيْتـون وعجـين القَمْـح. تتحـدث بصـورة مسـتمرة عـن المـكان والزمـان؛ وأدّي وود أمونـة، البنـك الـذي سـوف يفتـح فرعًـا في الحلّـة، شركـة الاتصـالات التـي سـتجعل الحلّـة قريبـة جـدًا مـن العاصمـة الخرطـوم، بـل يمكـن الاتصـال بأسـمرا أو أديـس أبابـا حتـى أمريـكا ذاتهـا. كانـت تقـول عـن ود أمونـة إنـه الرجـل الوحيـد والـذراع اليمنـى للنسـاء، هنـا بالبيـت، وفيـما يشـبه تقريـرًا قصـيرًا مقتضبًـا أفضـت إليّ بـأسرار المـكان كلهـا، كانـت مـا فـوق الثلاثـين بقليـل، تبـدو عارفـة بالحيـاة، خبـيرة في كل شيء، تحيـط بهـا هالـة مـن القداسـة، أو كـما يبـدو لي، مثلهـا مثـل كل النسـاء جميلـة وغامضـة، ولديهـا مـا تقدمـه، وجههـا يخبـئ فرحـة أو حزنًـا أو أنـه يفصـح عـن الاثنـين معًـا في آنٍ واحـد. بحرفيـة وبراعـة، سـحبت رجـلي اليـسرى عكـس دوران السـاعة، ثـم جذبتهـا إلى الأعـلى في ذات اللحظة التـي تناولت فيهـا يـدي اليمنـى جذبتهـا إليهـا بقـوة، مـما جعـل جسـدي يصـدر صوتًـا بائسًـا مثـل كـسر فـرع لوسـيانا يابـس إثـر ريـح قاسـية، ولـو أن الأمـر لم يتعـد عـدة ثـوانٍ لصرخـت. عندمـا تركتنـي، كنـت أنعـم براحـة جسـدية لا توصـف وخـدر لذيـذ. قالـت لي فجـأة:

- أنا ماشه البيت.

قلت مندهشًا:

- البيت؟

قالت:

- أيوه.

ثم أضافت:

- بشتغل هنا مع أديّ ولكن أنوم في بيتي، عندي أولاد وراجل هناك، ثم أضافت بحرفية:

- عايز واحدة تنوم معاك؟

في الحقيقة لم أكن متأكدًا من هذه الرغبة، حيث إنني والحق يُقَال لست ميالًا للممارسات الجنسية، وربما لم أفعل هذا الشيء سوى مرات قليلة في حياتي وبصورة أستطيع أن أسميها غير كاملة، بل إن ذكرياتي في ذلك الشأن مؤلمة، أظن أنني كنت خجولًا عندما يتعلق الأمر بالمرأة ولكن فاجأت نفسي بالرد:

- عايز.

أجابت وكأنها تعد الإجابة مسبقًا:

- ألم قِشي. ألم قِشي حتجي تنوم معاك الليلة، فاليوم هو يوم عملها، بت ظريفة وحلوة وحتعجبك.

ربما أرادت أن تقول شيئًا آخر، عندما اقتحم صوت أدّي الأم هدوء المكان. كان صوتًا متميزًا حادًا. به رقة طاغية وربما سببها الطريقة التي تختتم بها الجُمل القصيرة، التي تلقي بها هنا وهناك. استأذنت للدخول وتحدثت إليّ مباشرة:

- صَاحِبَك دا أغرب زول في الدنيا.

لم أفاجأ لأنني أعرفه جيدًا، هي لم تكتشف قارة جديدة، كما تشير الطريقة التي أعلمتني بها. قلت ببرود لم يعجبها كثيرًا وربما أثار دهشتها لبعض الوقت:

- أيوا، هو أغرب زول في الدنيا، عايزاني أمشي معاك ليهُ؟ ولا تجيبيهُ لي هنا؟ حيكون عمل مشكلة، أنا عارف.

قالت بطريقة استعراضية:

- طردناهُ.

قلت منزعجًا، حيث إنني لم أتوقع أن يُطرد.

- ليييييه طردتوه؟ وين هو هسّعْ؟

بينما كنت أجمع حاجياتي وأتحرر من الملاءة البيضاء، تأهبًا للخروج، كانت الأم تحكي لي قصة لم أسمعها جيدًا، لكنني فهمت منها أنه طُرد قبل ساعتين كاملتين وأنه لا يمكنني معرفة مكانه إلاّ إذا مضيت خلفها بسرعة والآن.

- ليه ما قلتي لي من بدري. بعد ساعتين؟

قالت وهي تأخذ نفسًا طويلًا من الشيشة:

- كنا نحاول نعالج الموضوع.

تناولت خرطوش الشيشة بطريقة تلقائية،

قلت منزعجًا؛ وقد تحررت من الملاءة تمامًا:

- وين هو هَسّعْ؟

قالت وهي تطلق هواء الشيشة بعيدًا في شكل دوائر صغيرة تتلاشى تدريجيًا في فراغ القُطِية:

- أرح، تعال وراي.

انتعلت حذائي، بالتالي أصبحت بكامل هندامي. لم أكن قلقًا ولو أنها ألمحت ليّ بأنهم قد يقتلونه ويتخلصون من جثته في نهر بَاسَلام، إلاّ أنني أعرف أن لا أحد على الأقل بالحلّة يستطيع أن يقتله، فهو من أولئك القِلة الذين لا يخطر ببال أحد أنهم سيموتون قريبًا، بل دائمًا ما يعطونك إحساسًا بأنهم سوف يسيرون في جنازتك، يحفرون قبرك ويشيلون الفاتحة على روحك، متنطقين بابتسامة حزينة طوال أيام الحداد. مررنا أولًا أمام راكوبة صغيرة مضاءة بمصباح كهربائي يرسل ضوءًا ضئيلًا حوله، ولكنه يظهر بوضوح ود أمونة، يجلس على بَنْبَرٍ كبير متسع وهو يدلك قدميه بحجر خشن يستخدم لتنعيم القدم، تقف خلفه امرأة في عمر أدّي تقريبًا، أربعينية طويلة ذات بشرة بُنِية تبدو داكنة بتأثير الإضاءة، ولكن ملامح وجهها تدل على أن لونها يميل إلى الاصفرار، كانت تستخدم الحلوى في التقاط الشعر من على ظهره، يتحدثان بصوت خفيض، توقفا عن الكلام تمامًا عندما مررنا بهما، أنا وأدّي. خاطبتهما أَديّ بمرح:

- الولد دا شايلنُهُ الدلالة؟

ردّ ود أمونة ضاحكًا:

- النظافة من الإيمان يا أدّي.

(بيني وبين نفسي قدرت أن ود أمونة ولد ما نافع، زول يشيل جسمه بالحلاوة، ويكرش رجله زي البنات بالحجر؟ وما معروف تاني بيعمل شنو، الله يعلم).

عندما ابتعدنا قليلًا عنهما، قالت لي أدّي وكأنها قرأت ما يدور في خلدي:

- ود أمونة دا أرجل زول في الحلة، أنا ربيته في يدي دي، تربية أدّي مية مية.

قلت لها محتجًا:

- قال لي بلسانه إنه اتربى في السجن.

قالت ببرود:

- سجن شنو يربي زول؟! أنا استلمته لا خلقة ولا أخلاق، ببصلة ما بينفع .

هززت رأسي إيجابًا ومضينا عبر طريق ضيقة تمر خلف القطاطي المثيرة الكبيرة، التي تبدو أحيانًا مثل أشباح عملاقة تقبع في بحر من الظلمة، الأم تسير أمامي، سمينة قصيرة تتبعها رائحة صندلية التاج الأصلية، يُسمع لِمشيتها طقطقة يعطيها الليل سحرًا خاصًا، كانت التحايا تصلنا من هناك وهنا، متسللة عبر سياج القطاطي وأبواب الرواكيب وسقوف القش.

- مساء الخير أدّي.

- مساء الخير أمي.

- أمي أدّي.

- أدّي.

تأتي التحايا مختلطة بوَحْوَحَة العاشقين وثغاء السكارى، وفَحِيح الفعل الليلي ونداء الأجساد الحية النشطة الشبقة؛ تستجدي ملائكة المتعة أو شياطينها، الأمر سيان.

قالت لي وهي تتحدث باستمتاعٍ خاص.

- الدنيا لعبة وآخرها كوم تُراب.

هززت رأسي إيجابًا، بالأحرى بما يعني: فهمت. مررنا بصوت سيدة تستجدي عَلنًا وبصوت عالٍ بائس أن يأتي من ينقذها، وأنها سوف تموت الآن إذا لم. كانت تسترحمه وتستجديه أن يتركها، أن يُخْرِجه، أن

يخليها تتنفس، تتنفس لا أكثر، أن يرفع جسده الثقيل منها، أن يقذف بسرعة، إنها تموت.

وبشهامة معروفة عني، انطلقت نحو القُطِية قاصدًا فك الاشتباك، ولكن أدّي أمسكت بيدي بقوة قد لا تصدر من امرأة في عمرها، وخاطبتني قائلة:

- ما تَصَدق النُسوان؛ يا ولدي: من صَدّقْ النُسوان؛ كَذّب الرُسُل.

ثم انتهرتَها بحَزْم، موبخة إياها:

- يا بِتْ أرجلي.. عَيب.

فصمت الصوت صمتًا تامًا مضيفًا للمكان رهبة الموت. عبرنا نحو زقاق أكثر ظلامًا خارج مجمع أدّي السكني، كان السُكارى والعابرون يلقون علينا التحايا في كلمة واحدة سريعة.

- أدّي.

فتجيب أدّي بصورة ميكانيكية حنينة:

- أهلًا ولدي.

- أهلًا بتي.

- أهلًا أخوي.

- أهلًا أمي.

- أهلًا حَوَيْ(أخي).

كانت تميز وجوههم السوداء المظلمة وجهًا وجهًا، تعلم أصواتهم المخمورة المخدرة المبحوحة وترًا وترًا، أشباحهم، هيئاتهم، إيقاع مشيهم، أنفاسهم. خاطبتني فجأة:

- صَاحِبَكْ دا أول زول ينطرد من بيتي..

في أكثر من تلاتين سنة قَبلُهُ كان واحد بس، هو منقستو.

قلت مندهشًا:

- منقستو؟

- أيـوه.. منقسـتو هايـلي ماريـام، قبـل مـا يكـون رئيـس في الحبشـة، كان فالول(قاطـع طـرق) في غابـة زهانـة وخـور الحمـرة، كان زول صعـب، اللـه يرحمُـهُ.

سألتها:

- وين الزول دا؟

قالت مشفقة عَليّ:

- الله يرحمُهُ.. مات زمان.

لم أقـل لهـا أنـا أقصـد صديقـي وليـس منقسـتو هايـلي ماريـام، ولكنـي هَـزَزْتُ رأسي إيجابًـا.

يمكـن سـماع طَقْطَقـة شبشـبها، في ظنـي، في كل البيـوت المجـاورة، مررنـا بامـرأة سـوف تكـون لهـا حكايـات كثـيرة في قـادم أيامنـا بالحلـة، وهـي الصافيـة، امـرأة نحيفـة سـوداء كالعـادة هنـا؛ حيـث الظـلام يَصْبـغ الجميـع ببهائـه، تحمـل شـيئًا في يدهـا ويتبعهـا رجـلان، تبادلتـا التحايـا بينـما سـكتُ أنـا وصمـتَ الرجـلان، عَبـق العرقـي البلـدي مختلطًـا بصُنـان نفّـاذ وعَـرَق كَادِح: عـبرا في وجهينـا.

عندما ابتعدوا قالت لي أدّي:

- الليلة الجنقو نزلوا، ما شايفهم شايلين القُوقُو كيف؟

وتعنـي بالقُوقُـو حقيبـة صغـيرة يحملهـا الجنقـو عـلى أكتافهـم، يحتفظـون فيهـا بأغراضهـم ويعتقـدون فيهـا كذلـك. سـألتها مـا إذا كانـت المـرأة أيضًـا جنقوجورايـة، فأجابتنـي بأنهـا أشـهر الجنقوجورايـات في الشرق

كلـه، مـن الحُمَـرة الى أقـصى صعيـد القَضَـارِفْ، مـن الحَواتـة إلى الفَشَـقَةْ، كل النـاس يعرفونهـا. ثـم أكـدت لي أن جدودهـا والشـياطين هـم الذيـن افتتحـوا هـذه الأراضي. كانـت تتحـدث بيقـين وعلـم راسـخ وتُقْسـم بـين الحـين والآخـر باللـه، بـأن هـذه الأنحاء مسـكونة بالجـن، ثم أضافـت قائلة:

- والكلام دا مذكور في الكتاب.

قلت لها مندهشًا:

ياتو كتاب؟

قالت بسرعة:

- كتاب الدين، في كتاب تاني غير كتاب الدين؟

هَزَزْتُ رأسي بما يعني: لا والله.

بـين حـين وآخـر أجـد نفـسي منشـغلًا بمصـير صديقـي ولكـن أدّي لا تـترك لي فرصـة للتفكـير، فهـي إمـا تتحـدث، أو تسـحبني خلفهـا بسرعـة رهيبـة في الظـلام، هـي تحفـظ تضاريـس الطريـق وشِـعاب المـكان وأنـا كالسـكران لا أسـتطيع أن أمـشي غـير متعـثرٍ، وكـدت أسـقط عـدة مـرات. مشـينا مسـافة قدرتهـا بالميـل، ربمـا عبرنـا صفـين آخريـن مـن بيـوت القصـب والقـش والقطاطـي الكبـيرة. تهيـأ لي أننـا كنـا نسـير في زاويـة منفرجـة، حينـما بلغنـا مـا اعتقـدتُ أنـه زاويـة المثلـث، سـمعت صوتـه، عاليًـا، بـل يـكاد يكـون صراخًـا، وهـذه أيضًـا إحـدى عـادات صديقـي السـيئة، وهـي ليسـت علامـة غضـب ولكنهـا دليـل عـلى أن الأمـور تسـير في صالحـه، وبصـورة جيـدة.

كان يهتف قائلًا، إنه لا يدفع ولا قرشًا واحدًا، ويكرر أن هذا مبدأ؟

كانـوا داخـل حـوش كبـير مـن القصـب والأشـواك، في وسـطه قُطيـة كبـيرة وراكوبـة، ترسـلان ضـوءًا شـحيحًا مـن عمقيهـما، كانـوا يجلسـون

ويقفـون تحـت ظـل الضـوء الشـحيح، تبـدو أشـباح الرجـال الخمسـة جليـة واضحـة، طلبـت منهـم أن يتركـوه، هتـف فيّ أحدهـم:

- إنت منو(من)؟

قالـت لهـم الأم أدّي، وفي وجههـا البُنـي تتحـرك عينـان قلقتـان كبيرتـان تلمعـان في الظـلام كعينـي قـط يتربـص فـأرًا:

- خلوه صاحِبُهُ دا حيحل معاه المشكلة.

قال مخاطبًا إيّاي، بصوت محمول على خدر الخمرة ولسان ثقيل:

- أنـا عايـز أفَهِـمْ النـاس ديـل الفـرق بـين الرذيلـة والفضيلـة، الفـرق هـو القـروش العايـزني أدفعهـا دي، القـروش بتحـول اللقـاء الحـار الإنسـاني البديـع الخـيّر المبـارك الحصـل بينـي وبـين الزولـة الجميلـة القاعـدة جـوه دي - مشـيرًا إلى عمـق ظـلام القُطيـة - إلى نـوع مـن الدعـارة والشرمطـة.

فجأة أتى صوتها من عمق سحيق مظلم قائلة ببجاحة:

- أنـا عايـزة حقـي يـا زول، دا شُـغُل!! أنـا مـا بتنفـع معـاي فصاحـة الشـيوعيين الكُفـار دي، عايـزة حقـي، عايـزة حقـي، حقـي وبـس.. دُوُريـن زَي السِـمْ !! دوريـن يـا ظـالم وتقـول لي شَرَمَطـةْ!! دوريـن.. دلكـة وعِصـير رجلـين وطقطقـة أصابعـين ومـص وعـض دا كلـهُ مِلِـحْ؟ أنـا بعرفـك مـن ويـن عشـان أديـك بـلاش؟ لا حبيبـي ولا ولـد حِلتنـا ولا أخـو صاحبتـي.

يبـدو أن الحـوار كان يـدور بهـذه الشـاكلة لأكـثر مـن سـاعتين، كحـوار الطرشـان. في تجمعـات صغـيرة بـين هنـا وهنـاك يُـرى الندمـاء قـرب راكوبـة باهتـة، تحـت في مـا كان ظـلًا عصريًـا ابتلعـه الظـلام وتركهـم، رائحـة سمسـم يُشـوى، قرقـرة شيشـة قريبـة جـدًا، سـيدتان تضحـكان بتحفـظ، قـال لي:

- المرا دي جابتك؟

قالت أدّي منفعلة:

- أنا أدّي مُشْ المرا دي!! سامع؟

انتهره أحدهم:

- اتكلم مع أدّي بأدب.

قلت لأدّي متجاهلًا كل شيء:

أنا عايز أرجع.

قالت لي مندهشة:

- ترجع وين؟

- للقطية.

قالت:

- عايز تَرِجّعْ قروشك؟

حيث إنها كانت قد رأتني أدفع (للمرأة) نقودًا كثيرة جدًا.

قال لي صديقي محتجًا:

- إنت دفعت قروش؟ إنت زول داعر.

لم أرد عليه، قلت مخاطبًا أدّي:

- عايز أرجع القُطية.. ممكن؟

قالت بانشراحٍ وقد فهمت ما أرمي إليه:

- إنت زول تاني.. ما زي صَاحِبَكْ.

خاطبني بسخرية:

- نتقابل الصباح يا أبو الشباب، يا فالح.

هَزَزْتُ رأسي إيجابًا أو بما يعني: على كيفك يا بُنيّ.

عـبر زقاقـين قصيريـن مظلمـين قـادني رجـل كلفتـه أدّي إلى بيـت الأم. حيـث التقيـت لأول مـرة بامـرأة انتظرتنـي طويـلًا في القُطيـة اسـمها: ألم قِـشي.

عَزُومَةْ الصَافِيَةُ

قابلناها في سوق القَنْذي، وهو سوق للملابس المستعملة الرخيصة، يُقَامُ على هامش السوق الكبير، قرب زريبة المواشي في مكان خجول منزوٍ حتى تُضمن خصوصية الرواد، البائع والبضاعة، يرتاده الجنقو بين حين وآخر، إما لبيع ملابسهم وأحذيتهم وما تبقى من زينتهم، واستبدالها، أو شراء أخرى، وذلك في شهور الفلس قبل موسم الحصاد أو عندما يقبضون على ما تحصلوا عليه من نقود نتيجة للعمل في الحصاد، ولا يمنع أن يمروا عليه كذلك للبحث عن ملبوسات خاصة قد لا تتوافر في مكان آخر غيره.

شاهدناها من بعيد تقف أمام البائع، تتفاوض في شراء جلباب، قال لي في ما يشبه الهمس:

- الصافية.. الصافية الرهيبة.. أنا عايز أتكلم معاها.. يا صديق.

وكان يُطْلِقْ عليّ هذه الصفة عندما يشرع في الحديث عن موضوع يظنه بالغ الأهمية.

- المخلوقات البسيطة الصغيرة المهملة المرمية على هامش المجتمع والمكان، تجد فيها أسرارًا لا حد لها، إن الله دائمًا ما يستودع حكمته في نوع زي ديل..

أنا عايز أصل لأصل الحكمة فيها.

قلت له ساخرًا بذات اللغة التي تحدث بها:

- عايزها مشروع حياة.

- بالضبط، حتكون إضافة حقيقية لتجاربي الإنسانية، تصور لو عرفت كل تجربة مرت بحياتها، لو عرفت أحلامها وأحزانها وآمالها،

لـو عرفـت كيـف بتفكـر الزولـة دي، كل زول لاقيتـه في الحلـة دي يحـكي لي عنهـا حاجـات أقـرب للأسـاطير، كلمنـي عنهـا مُخْتَـارْ عَـلِيْ، أنـا عايـز أصـل للحقايـق بنفـسي، وليـس مـن سـمع كمـن شـاف.

سألته:

منو مختار علي دا؟

- واحـد عجـوز مريـض اتعرفـت عليـه امبـارح بالليـل، رجـل طيـب، بـت معاهـو في البيـت.

وبأسـلوبه المبـاشر، المعـروف، طلـب منهـا أن تسـمح لـه بدفـع ثمـن الجلبـاب، مانعـت قليـلًا ولكنهـا قبلـت أخـيرًا، وشـكرتنا الاثنـين وتبعناهـا إلى سـوق الكَجَيـكْ، دفـع لهـا ثمـن رطلـين مـن السـمك الجـاف

- الكَجيـكْ وكـوم الكَـوَلْ، الفُرنـدو وربـع اللّوبـة البيضـاء، كُرَاعـات الشَرمُـوطْ، لفتـين المُـصران وربـع رطـل الكمبُو(اطعمـة بلديـة سـودانية). قالـت ممتنـة:

- كـدا تكونـو وفرتـوا لي قـروش المريسـة لأسـبوع كامـل، ووفرتـوا أكل لخمسـة عـمال مسـاكين لأنـه دا (الميـز) بتاعهـم.. بعد يومين حنرجـع الخلاء.

قال لي، وكأنه يهمس همسًا:

- ليـه مـا نمـشي معاهـم الخـلاء؟ ! أنـا عايـز أشـوف الجنقـو في مواقـع عملهـم، في بيئتهـم الطبيعيـة.. حتـى ولـو أشـتغل معاهـم.. أنـا عايـز أدرس حياتهـم، دراسـة مـن شـاف وعايـش وعـاش.

- ضحكـت مـن كل أعماقـي، أنـا أعـرف أنـه لا يسـتطيع فعـل ذلـك، وأعـرف أنـه لا يعـدو كونـه برجوازيًـا صغـيرًا متخـمًا بالمتناقضـات والادّعـاء والأحـلام الكبـيرة، يحـاول أن يقـضي عطالتـه وصالحـه العـام في مـكان يقدم لـه الدهشـة والانفعـال، المتعـة والإثـارة؛ متعـة المشـاهدة، أمـا أن يعمـل في قطـع السمسـم، فهـذا مسـتحيل. العلاقـة بينـي وبينـه قائمـة عـلى الصراحة

والوضوح، بالإضافة إلى أننا كنا نعمل في مؤسسة حكومية واحدة، طُردنا للصالح العام معًا، إلاّ أننا عشنا طفولة واحدة في قِشْلاقِ السجون بمدينة القضارف، ولو أنه كان يسكن في قِشْلاق الضباط، حيث إن والده كان ضابطًا كبيرًا ومديرًا للسجن، ووالدي جنديًا بالسجن، امتدت علاقتنا من المدرسة إلى الحي إلى البيت، ثم لم ننفصل عن بعضنا البعض منذ أكثر من ثلاثين عامًا، كلانا كان كتابًا مفتوحًا مفضوحًا أمام الآخر، حيث إننا كُوِنّا نَفَسِيًّا ومعرفيًا بصورة تكاد تكون متطابقة، قرأنا في مدرسة ديم النور الابتدائية، لعبنا خلف البَيطري وعلى تُخوم مقابر المدينة معًا، تشاجرنا مع أطفال دَلَسَا وسَلاَمَةْ البَيهْ جنبًا لجنب، سَبحنا في خُور مجاديف وبِرَكْ مَكِي الشَابِكْ، ولعبنا جيش جيش في وسط غابة الحسكنيت على سفح جبل مكي الشابك، قرأنا ذات الكتب واندهشنا معًا باكتشاف جُبران خليل جُبران، ميخائيل نعيمة وإيليا أبو ماضي، ومهرجان المدرسة القديمة لإبراهيم أسحق. ونحن نكبر تدريجيًا عرفنا معًا نيتشه والنساء، ودقات ريشة ڤان جوخ، ثم حفظنا أشعار أمل دنقل، ناظم حكمت، محمد محيي الدين، المُومِس العمياء، ماريا وامبوي، عشقنا البنات أيضًا معًا، في باكورة مراهقتنا أحببت أخته وأحب أختي، كأول مغامرات غرامية لكلينا، ولو أنني ما كنت أدري ماذا يفعل وأختي بالضبط، حيث إنهما كانا يحرصان على إخفاء نشاطاتهما عني، إلا أنني، ولأن أخته تكبرني بعامين أو ثلاثة، كنا نعمل على اكتشاف جسدينا بصورة محمومة وممتعة، أختي تصغره بعامين، مما جعلني أفترض أن شأنهما قد يختلف، لأن البنات الأكبر سنًا هن دائمًا يبتدرن ما يخص الجسد، وأنهن يعرفن كل شيء، ونسبة لصغر سن أختي ما كنت أظن أنها بمهارة أخته، دائمًا ما أتخيلها بريئة مسكينة عويرة، على كل ليس فيها ما يُعجب ولدًا ما، فهي في أحسن الأحوال مملة ومضجرة، وكنت لا أطيقها لحظة، لا تفلح في شيء غير فضح كل ما أقوم به عند أبي. ثم قرأت وإياه ذات الجامعة، ذات

الكليـة، ذات التخصـص، وأول امـرأة أجرينـا معهـا فعـلًا جنسـيًا كانـت هـي نفـس المـرأة؛ محـاضرة شـبقة بالقسـم. أقـول كنـت أعرفـه تمامًـا، قلـت لـه:

- أنا مُشْ حأمشي معاك للخلاء حانتظر هنا.

قال ضاحكًا:

- مع ألم قِشي، مُشْ كِدا؟

قلت له:

- بالتأكيد.

قالت الصافية فجأة:

- إنتم الليلة معزومين معاي في بيت أدّي.

قال فزعًا:

- تـاني بيـت أدّي؟ مـن قبـل قلعـوا سـاعتي الجوڤيـال الأصليـة وشـالوا كل القـروش الـف جيبـي ولـو مـا سـتر اللـه كانـوا كتلـوني عديـل كـدا.

قالت الصافية بثقة:

- إنت حتكون ضيف عند الصافية.

قالـت الجملـة الأخـيرة وهـي تندفـع أمامنـا مثـيرة عاصفـة مـن الصُنَـانْ مختلطـاً بعـرق المريسـة. أضافت:

- أنا لازم أكرمكم، بِتِشْرَبُوا؟

قلنا معًا في آن واحد:

- بِنِشْرَبْ.

ثم أضاف صديقي:

- المستورد علينا.

قالت:

- أنا عليّ أبو حمار.

ضحكنا ونحن نتوغل في أزقة الحي الضيقة، تحيط بنا القَطَاطِي وأصرفة الشُوك والقصب ورائحة المُشُك من كل جانب، يَمُر بِنَا السُكارى والعُشاق والأطفال، يحييون الصافية بكلمة واحدة:

- الصافية.

فترد بكلمتين حنينتين تسعان الجميع:

- أهلًا أبوي.

- أهلًا أمي.

فاجأتني الصافية قائلة:

- قالوا إنت سِبتْ صَاحِبك للمجرمين، ومشيت لألم قِشي، كييف لو كتلوهُ؟

قلت مندهشًا:

- منو القال ليك؟

قالت ببرود:

- كل الناس بيعرفوا الموضوع دا، مافي شي هنا يندّسْ.

قلت لها مبررًا:

- أنا عارف مافي زول بيقدر يكتلهُ.

أضاف ضاحكًا:

- على الأقل قبل عشرين سنة، عندي مشروع ما بيخلص قبل عشرين سنة، بعد داك أصبح مستعد للموت.

سألتْ الصافيةُ في براءة:

- مشروع في الفَشَقَةْ؟

حـاول أن يـشرح لهـا معنـى مشروعـه العشرينـي، ولكنـه فشـل فشرحـت لهـا أنـا، فَهِمـتْ. قالـت:

- ولكن الموت بيد الله.

قال:

- نعم، ولكن الحياة بيد الإنسان.

قالت بيَقين عميق:

- الحياة والموت، الاثنين بيد الله، الزول ما بيدُهُ حاجة.

قال مغتاظًا:

- إذن الإنسان قاعد ساكت(ليس بامكانه فعل شيء)؟

قالت في هدوء:

- والله ما عارفه، أنا بس بعرف إنو(ان) الموت والحياة بيد الله.

أعـرف أنـه أغتـاظ قليـلًا لفشـله في كسـب الحـوار، وأعـرف أنـه لـن يتنـازل بسـهولة، ولكنـه الآن يوفـر نفسـه لمعركـة أخـرى في ميـدان آخـر، ظهـرت طلائعهـا عندمـا همـس في أذني:

- عـارف يـا ولـد، الصافيـة دي فيهـا أنوثـة مجنونـة عديـل، أنوثـة وحشـية.. أنوثـة كلبـة معوبلـة، أنـا شـاميها شَـمْ.

قلت له:

- وإنت كلب عاير.

قال بسرعة:

- تمامًا.. تمامًا.. كلب عرمان.

في حـوش طـرفي مـن بيـت الأم حيـث جلسـنا، أنـا وود أمونـة وألم قِـشي، وقـد هيـأ ود أمونـة بخفّـة محـترف كل شيء وجلـس قريبًـا مـن البـاب، كنـت أحـس برغبتـه العارمـة في التحـدث معـي، ورغبتـه أيضًـا في أن يتركنـي وألم قِـشي وحدنـا، وتحسسـت بميتافيزيقيـة رعنـاء رغبـة ألم قِـشي في أن تطارحنـي الفـراش، ورغبتهـا في أن يبقـى ود أمونـة كـما هـو في موقعـه. المهـم حسـمت الأمـر بـأن قلـت لـود أمونـة جملـة اعتراضيـة:

- قلـت لي اتربيـت في السـجن مـش كـدا، أنـا والـدي يرحمـه اللـه كان سـجان بسـجن القضـارف؟

أحسسـت حينهـا أن ألم قِـشي وود أمونـة كادا أن يطـيرا مـن الشـعور بالراحـة، قـال وهـو يأخـذ نفسًـا عميقًـا مـن الشيشـة:

- آهـ.. .. السجن، صاح.. .. اتربيت في السجن.

ودْ أَمُونَةْ مُتَبَلًا

عِطْـرُ البَخُـورِ الحَبـشي يمـلأ القُطِيـةَ، تـأتي أصـوات المـكان مخترقـة القـش والأقصـاب عَـبْر الظُلمـة للداخـل، واسـتطعنا أن نميـز غِنـاءً جميـلًا رقيقًـا يتلمـس سِـكَّكَه عـبر الليـل نحونـا، قـال ود أمونـة:

- دِيّ بوشاي.

ثـم واصـل في حـكي تفاصيـل السـجن، تحـدث بتلقائيـة وبسـاطة، بهـدوء ورقـة لا تتوافـر في شـخص غـيره. ألم قِـشي تقاسـمني الوسـادة البيضـاء المسـتطيلة عـلى طـول عـرض السريـر، تخلـف سـاقيها مـع سـاقي، وبـين وقـت وآخـر تتعمـد حَـكّ أخْمَـصَ قدمـي بأحـد أظافـر رجليهـا، مُثيرةً شَـبَقًا وحشـيًا تؤجلـه دائمًـا حكايـات ود أمونـة المدهشـة في السـجن. الليـل كعادتـه في هـذه الشـهور دافـئ مَـرِح، عَنّـتْ فِكـرةٌ لألم قِـشِي، عـبرت عنهـا بنهـوض مفاجـئ مـن حضنـي قائلـة:

- حَأعمل ليكمُ جَبَنَة(قهوة).

هكـذا يعـبر النـاس عـن حبهـم واهتمامهـم بالآخـر في هـذه الأمكنـة، بـأن: يعملـوا لـك جَبَنـة.

قـال ود أمونـة مواصـلًا حكايـة العـازة، لم تسـتطع عـازة أن تقنـع أمـه لـكي تتركـه معهـا عندمـا تخـرج مـن السـجن، وأرسـلت لهـا الوسـطاء مـن سـجانين ومسـجونين، وحتـى مأمـور السـجن نفسـه، ولم يقنعهـا سـوى مـا حـدث لـود أمونـة في ذلـك المسـاء: (كنـت في طريقـي إلى عنـبر النُسـوان).. بعـد أن عـاد مـن مشـوار كلفـه بـه الشـاويش خـارج السـجن، وعندمـا وصـل ود أمونـة الممـر المـؤدي إلى الزنازيـن وهـو الطريـق الأقـصر إلى الجـزء الغـربي مـن عنـبر النُسـوان حيـث مقـام أمـه، إذا بيـد ناعمـة قويـة تُمسـك بذراعـه، وأخـرى توضـع في فمـه، كانـت تفـوح منهـا رائحـة البصـل

والثُّوم مـما جعلـه يتعـرف بسـهولة عـلى الطبـاخ، ثـم همـس في أذنـه:

- ما تخاف، دا أنا.

ثم سُحبت الكف عن فمه، قال له ود أمونة:

- عايز مني شنو؟

قال الطباخ:

- إنـت بكـره مـاشي مـع عـازة، طبعًـا حيطلعوهـا مـن السـجن، وإنـت حتمـشي معاهـا، وأنـا جيـت عشـان أقـول ليـك مـع السـلامة، طالمـا إنت ما بـادرت بالـوداع، مُـشْ عيـب عليـك يـا ود أمونـة، ما تقـول لي مع السـلامة؟

قال ود أمونة متضايقًا:

- كويس، مع السلامة، يَلاّ فك يدي.

قال الطباخ محاولًا أن يكون رقيقًا ومهذبًا:

- لا.. مـا كـدا.. مـع السـلامة دي عندهـا طريقـة تانيـة، وفي حفلـة صغـيرة أنـا عاملهـا ليـك في مخـزن المطبـخ برانا(وحدنـا)، أنـا وإنـت.. جِبـت شـمع وعنـدي ليـك هديـة، ملابـس جديـدة وجزمـة وكـرة وحـلاوة وحاجـات حتعجبـك.

قال ود أمونة وهو يحاول نزع يده:

- إذا ما فكيت يدي حأصرخ وأمي تسمع وحتجي تقتلك.

فأدخل الطباخ يده في جيبه وأخرجها قابضة على نقود لها رنين.

قال له ود أمونة

- أخير ليك تفكني.

بيـد الطبـاخ الممسـكة بالنقـود، أعـاد النقـود إلى جيبـه وبسرعـة ومهارة فتـح زرار بنطالـه وأخرجـه؛ شيء لم يسـتطع ود أمونـة تمييـز معالِمـه في

الظلام، ولكن عندما دفع به الطباخ إلى بطن ود أمونة، أحس به ود أمونة قويًا وطويلاً. قال الطباخ:

- الموضوع بسيط، وما بِيَاخُدْ دقيقة واحدة، وأنا أدّيك أي حاجة عايزها.

وعندما مَدّ فَمَه الذي تفوح منه رائحة الصعوط مختلطة بسجائر البرنجي، محمولة على عَبق عرقي العيش، بحركة رشيقة خاطفة أمسك ود أمونة بشيء الطباخ، كان مظلمًا، كبيرًا وأملس، أدخل ما يكفي في فمه وبين أضراسه الحادة نفذ وصية أمه بحذافيرها، الشيء الذي جعل كل من في السجن والذين يجاورونه والذين تصادف مرورهم في تلك الليلة بتلك الأنحاء، يقفزون رعبًا في الهواء من جراء صرخة الطباخ العنيفة البائسة؛ التي لم يسمع أحد في حياته مثلها ولن تتكرر في مقبل الأيام، صرخة أطارت العصافير الصغيرة النائمة في أشجار النيم في وسط السجن، جعلت السمبريات العجوزات الساكنات بالسنطة عند بِركة المياه جنوب السجن، تضرب بأجنحتها في ذعر، كانت الصرخات التي ألحقها بالصرخة الأولى، أقل أهمية، لأن أحدًا لم يسمعها سوى ود أمونة، كانت أكثر بؤسًا ورعبًا. ثم سقط.

- بصقت رأس الذكر من خشمي(فمي).

كان شيئا مقرفا.

قالت لي أمي بعدما صلينا صلاة الصُبح في الساحة:

- إنت حتمشي مع عازة إلى بيتهم، أنا تاني ما حأخاف عليك، إنت بس حافظ على أسنانك، حأديك قروش تشتري بيها مساويك.

رائحة قلي البُن الحبشي تملأ رئتي عبقًا لذيذًا، وصوت بُوشَاي الحُلو يغني، فيأتي به الهواء الدافئ من حي العُمدة إلى قُطِيّة أدّي شَهيًا. قالت ألم قِشي:

- بعـد دا كلـه.. الطبـاخ شـغال لِسَـعْ(مازال) في السـجن، سـمين زي البغـل.

كنـت أعـرف هـذا السـجان، وقـد سـمعت بقصتـه هـذه مـن قبـل ولكنـي لم أعـرف التفاصيـل إلاّ الآن، ولم أحـس ببشـاعة الحـدث وفداحتـه بهـذا القـدر، لقـد كان هـذا السـجان يسـكن في ذات القشـلاق الـذي كانـت أسرتي تسـكنه، فـأبي يعمـل بـذات السـجن، ويعـرف النـاس عنـه غرابـة السـلوك، ولـو أنـه لم يتحـرش بـأي مـن أطفـال القشـلاق، فلقـد كان لـه رفقـاء في عمـره، لم أقـل لهـم إننـي أعرفـه، ولم أقـل لأمي قـشي أن مـا قالتـه عـن اسـتمرار عملـه بالسـجن وسـمنته ليسـا حقيقـة، فلقـد مـات الطبـاخ بعـد هـذه الحادثـة بسـنة واحـدة، لدغَـه ثُعبـانٌ في مخـزن البقوليـات بالسـجن. لم أقـل لهـم أن هنالـك صِلـة قرابـة تربطنـي بـه.

تحركـت أمي قِـشي وهـي تحمـل المِقْـلاة تطـوف بالقُطيـة مقربـة إياهـا مـن أنوفنـا، فنستنشـق المزيـد.

قال ود أمونة:

- طلعـت مـن السـجن وأنـا عمـري عـشر سـنوات، لكـن تقـول راجـل كبـير، كنـت بعـرف كل شيء، مـا تفـوت عـليّ كبـيرة ولا صغـيرة.

أضافت أمي قِشي في زهو:

- مـا شـاء اللـه.. ود أمونة دا.. أصلو ما تقـول كان طفل في يوم من الأيام.

صبّـت الـبُن في الفُنُـدك وأخـذت تـدق بتنغيـم اتبعتـه بغنـاء بلغـة الحماسـين.

قال لي ود أمونة معتذرًا:

معليـش شـغلتك بحكايـات السـجن والأمـور الفارغـة دي، أنـا حأخليـك شـوية مـع أمي قِـشي وحنتلاقـى، أنـا قاعـد في قُطيـة مـا بعيـدة مـن هنـا.

بالغرفة سرير واحد ولكنه ضخم، يساوي سريرين كبيرين، مصنوع من السنط، له قوائم ضخمة ثقيلة، عليه ملاءة بيضاء مطرزة بالكروشيه في شكل طاووسين كبيرين متقابلين بالفم، ويبدو النهج الحبشي واضحًا في فن الحياكة والتطريز، من حيث استخدام اللون الأصفر والأحمر والأخضر. كانت ألم قِشي كعادة الحبشيات تبدو في بشرة حمراء ناعمة وساقين طويلتين نحيفتين منتظمتين جميلتين، عليهما نقوش حناء باهتة ووشم على القدم غريب، بدا لي كصليب أو خاتم سليمان، أو ربما وردة سحرية، على كلٍ، كان شهيًا وطيبًا وطازجًا.

لا أفهم كثيرًا في ممارسة الجنس، في صباي، أنا وغيري من صبية الحي، في أيام مراهقتنا الأولى، أتينا الأغنام والدحوش وحتى العُجول ولم يكن ذلك ممتعًا، ولكنه مهمًا حيث تبدو كبيرًا وفحلًا أمام أصحابك وإلا لُقبت بـ المرا، وهذا لا يجوز في حق أحدنا، ولكن، تجربة شريرة حدثت لي قبل ذلك ـ أي قبل البلوغ ـ كانت الأكثر إدهاشًا وأكثر بقاءً في ذهني وربما لا تزال توجه بوصلة الجنس في ظلماء نفسي، اعتادت خالتي التَّاية أن ترسلني إلى المِطحنة عند الصباح الباكر، قبل الذهاب إلى المدرسة، لكي أوصل جردل العيش إلى هناك ثم أعود لأخذه في نهاية اليوم وأنا عائد من المدرسة، أي بعد أن يتم طحنه، حيث تقوم بإعداده لصنع كِسرَة يوم غدٍ، التي تبيعها في السوق الكبير. صاحبة المطحنة امرأة شابة ليس لديها أطفال، يعمل زوجها في سوق الخضار، وكعادته لا يعود إلاّ عند المغرب، وهي سيدة معروفة في مجتمع المراهقين بصورة جيدة وكل واحد منهم له معها قِصة؛ ربما أغرب من قصتها معي، ولكن ربما الشيء الذي يميز حكايتها معي؛ هي أنها كانت تضربني ضربًا مبرحًا، لا أدري لماذا في ذلك الوقت، ولكني فهمت في ما بعد بعض الشيء، عندما أعود لأخذ الطحين كانت تأخذني إلى داخل المنزل عبر باب داخلي للمطحنة، وهناك تخلع ملابسها وملابسي. في أول مرة شرحت لي وأرتني إياه، وخفت

خوفًا حقيقيًا عندما رأيته لأول مرة، كان لا يشبه كل التصورات التي رسمتها له مع أصحابي، كن نظن أنه شيئًا جميلًا، جذابًا مثل الوردة، ولكن هذا الشيء الذي أمامي شيئًا آخر، إنه أشبه بفأر كبير على ظهره شعر أسود مرعب، له فم كبير وربما أسنان أيضًا، بل له رائحةٌ كريهة،لا أدري كيف خُدعنا به طوال تلك السنوات، فلم آلفه أبدًا، ولكنها بخبرة المرأة المجربة التي تعرف كيف تُثير، أزالت مخاوفي، ثم عرفتُ كل شيء، أو ما ظننت أنه كل شيء، ولكنها كانت تطلب مني غير الإيلاج أن أقذف، بالأحرى كانت تأمرني قائلة:

- بُول... بُول.. بُول.

وأنا لا أعرف كيف أبُول هناك، وليس لدي بُول في مثانتي، فكنت أقول لها ذلك فتغضب فتضربني قائلة:

- بُول، بُول الرُجال، إتْ مَاكْ راجل (الست انت برجل)؟

ولم أعرف بُول الرِجال هذا إلا بعد سنوات كثيرة، عندما جاءتني في الحلم هي ذاتها عارية، وبَحلق فيّ فأرُها المتوحِشُ، وضربتني عندما اشتد بها الشبق.

- بُوووووووول.

فبللت ملابسي بسائل دافئ، له رائحة اللالوب الذي كنت أكثر من أكله في تلك الأيام، خرج البُول في لذة وألم مُدهشين. ثم لم أبل في سيدة بالفعل أبدًا، حيث لم تتح لي فُرصة لذلك، أو أنني كنت خجولًا أمام النساء، ولم تصادفني من هي في جُرأة تلك المرأة، أو لست أدري ما هي حكايتي بالضبط، كل ما امتحنت به جسدي، كانت لمسات أخت صديقي الدافئة البريئة، إذن بعد خمسة وثلاثين عامًا هآنذا وجهًا لوجه مع امرأة، ولأول مرة في حياتي: امرأة فعلية مجربة وخبيرة، وأنا رجل كبير في السن راشد وبالغ ولا خبرة لي في النساء،

ولا أدري كيـف فَهِمَـتْ ألم قِـشي ذلـك، ولكنهـا قامـت بـكل شيء بنفسـها، بـدءًا مـن لِبـسِ الواقـي؛ انتهـاءً بالبُـول؛ بُـول الرُجَـال، كانـت تسـحبه مـن أعماقـي بِجُنـونٍ ولـذّةٍ لا يوصفـان.

مُخْتَار عَلي، كُلّيقَةْ، الجلابي سُماعين.

ثـم واصـل مختـار عـلي الحكايـة. يسـتطيع الآن مختـار عـلي المَـشي لقضـاء الحاجـة وحـده، بـل أن يذهـب للـدكان عنـد ناصيـة الطريـق، ويشـتري حجـارة البطاريـة. قـال:

- لمـا قلنـا كـدا بسـم اللـه ودخلنـا السمسـم، كَـبّرْ الجـلابي سُـماعين ثـلاث مـرات: اللـه أكـبر.. اللـه أكـبر.. اللـه أكـبر.. لَمّـنْ الخَـلا كُلـهُ صَـنّ يَـوُوُوُوُ.

ثـم جـاء الجـلابي سُـماعين بخروفـين كبيريـن أقرنـين، كرامـة وسـلامة وطلـب منهـم أن يذبحوهـما وقتـما شـاؤوا.

عندمـا يكـون السمسـم جيـدًا، فتيًـا مرصوصًـا كالـدرر عـلى سـاق حمـراء شـامخة، يجـبر الجنقوجـوراي عـلى الانحنـاء لحصـاده، حينهـا يصبح الحصـاد مهرجانًـا مـن الرقـص، يغنـي الجنقـو لحنًـا واحـدًا ثريًـا، حلـوًا عـلى إيقـاع ضربـات المِنجـل، خشخشـة ربـط الكُلّيقَـةْ ورميهـا بالخلـف، متعـة الانجـاز:

كُلّيقَةْ

كُلّيقَةْ

كُلّيقَةْ

كُلّيقَةْ

تصنـع (حِلـة) والحِلـة، اسـتطاعوا هـذا العـام أن يرفعـوا سـعرها إلى ثمانيـة جُنيهـات، وهـو ثلاثـة أضعـاف سـعرها في العـام المـاضي، كل ضربـة مِنْجَـل هـي جـزء مـن ثـروة كبـيرة، كل ربطـة كُلّيقَـةْ، كُـراع بوليـس: هـي بعـض الحلـم يتحقـق، كل حِلـة انجـزت؛ هـي ثمانيـة جنيهـات تنضـاف

إليهـا ثمانيـات أخريـات، ثـم ثمانيـات أخريـات، ثـم تسـلم إلى الخالـة؛ بالحلـة:

ثمانيـة + ثمانيـة + ثمانيـة + ثمانيـة + ثمانيـة + ثمانيـة + ثمانيـة + ثمانيـة + ثمانيـة + ثمانيـة + ثمانيـة + ثمانيـة + ثمانيـة + ثمانيـة +.. ..

ث م ا، +

م، نيـ +، م

ا، ة + ث

نيـ ث ـ ث + نية

ة، م + ة

+ نما، ن.. ية.. .. + + + نية

وأحـس مختـار عـلي برأسـه ثقيـلا، بيديـه مشـلولتين، رجليـه؛ أيـن هـي رجلاه؟

أحـس أنـه ينسـحب، قليـلًا قليـلًا، ينـ.. .. سـ.. حـب، مـن حقـل السمسـم، حقـل الحيـاة:

- أبّكـر آدم مـا لاحـظ إنُـهُ أنـا اتأخـرت، يمكـن إلا عندمـا وقعـت في الواطـا تَـبْ، حتـين شـافاني.

أسـبوع بأكلمـه قضـاه مختـار عـلي مريضًـا في التّايـة، وحيـدًا، حيـث يذهـب الجميـع إلى العمـل يتركونـه مـع الفـئران، الزرازيـر، أولاد أبـرق، عشوشـاي وكلـب الخفـير.

- واللـه لمّـان تقـول جاتنـي نفسِـيّات، كلمـت سـماعين الجـلابي قلـت ليـهُ أنـا يمكـن أمـوت هنـا في الخـلا دا سـاكت(بلا فائـدة)، ودينـي الحِلـة، عنـدي أختًـا لي هنـاك متزوجـة، ودينـي ليهـا، وشـالاني جابـاني هنـا، رمـاني

رميـة واحـدة، بـت عمـي، أختـي سـافرت همدائييـت، راجلهـا اشـتغل هنـاك في التهريـب.

لم يـره الجـلابي سُـمَاعِين مـرة أخـرى، كأنمـا رمـى بـشيء قـذر في وادٍ مهمـل مهجـور، كان قـد وعـده بـأن يحـضر المسـاعد الطبـي أو يأخـذه إلى المستشـفى المحـلي، أو حتـى ينـادي لـه الفـكي عـلي ود الزغـراد، وهـو زول يـده لاحقـة، لكنـه هـرب منـه هروبًـا، كـما وصفـه بعـض الجنقـو في مـا بعـد: هـروب جبـان.

ولكـن بـارك اللـه في الأخـوات والأخـوان، عـلى رأسـهم الصافيـة، وهـي غزالـة سـوداء نحيلـة، قـل نحلـة لأنهـا دائمـة الحركـة، لهـا رائحـة متميـزة، عبـارة عـن صُنـان مختلـط ببقيـة الليلـة الماضيـة وعـرق كـدح دؤوب، هـذه السـيدة البسـيطة الهزيلـة، التـي يتبعهـا لفيـف مـن الجنقـو كظـل لهـا، المسـالمة، مـن يحتفـي بالأخـوان ومجالسـهم، الطيبـة، هـي ذاتهـا الحيـوان الـشرس الضـاري في المشروعـات الزراعيـة، الـذي، عندمـا يقتحـم حقـل السمسـم يرمـي الحِلـة خلـف الحِلـة خلـف الحِلـة خلـف الحِلـة خلـف الحِلـة خلـف الحِلـة.

وكأنهـا تعمـل بماكينـة، مـا شـاء اللـه، ينجـح الجـلابي صاحـب المـشروع حتـمًا إذا نجـح في أن يضـم الصافيـة إلى فريـق عملـه، حـكى مختـار عـلي:

- قالـت لي الصافيـة أنـا حـأدب ليكـم سُـماعين ود الحايـل، حَأخَليـهُ يَبْـكي بِدِموعُـهُ.

جابـت لي الممرضـة، جابـت لي الفـكي عـلي ود الزغـراد بنفسـه، جابـت لي القِضيـم، جابـت لي العدسـية، جابـت لي أم جَلاجِـلْ وعِرْقَهَـا المُـرْ، سـوت لي المديـدة، الفيتريتـة الحمـراء وعصيـدة الدُخُـنْ. قاطعـة الشـايقي؛ وهـو كـما يعـرف الجميـع جعـلي، ولكنـه ملقـب بالشـايقي لآثـار شـلوخ في وجهـه:

- قالوا الصافية دي فيها جنس مرا؟

وعضّ يده في ألم، ثم أضاف: لو كان بتنعرس، والله أعرسها.

ضحك الجميع في آنٍ واحد، ولو أن بعضهم يخالفه الرأي، بل يحتفظ في أضابير وعيه برأي عكس ما طُرح تمامًا، لكنهم ضحكوا، تململ البعض، آثروا الاستماع، الكلام عن النساء وفيهن مثل أكل المُوليتة، مُرٌ، حارقٌ ولكنه لذيذْ، دائمًا له طعم متجدد، ربما لأنه يحرك حنينًا منطويًا في ذواتهم عن أم جميلة فُقدت في موطن ما، أو أخت حنينة لم تنس تمامًا ولكنها مختبئة في ركن غيب الذاكرة؛ بعيدة قريبة في آنٍ واحد، أو بنت استحال إنجابها، وربما زوجة، عشيقة، صديقة لم تتبين ملامحها بعد في موطن جاءوا جميعًا منه إلى هنا، ولكن؛ أيضًا للصافية خصوصيتها، هنالك جوانب مظلمة في حياتها، خاصة في ما يتعلق بنشاطها الجسدي، وكل ما يدور في هذا الشأن ليس سوى أسطورات صغيرات يمْخِرن في أودية وخيران دافئة، تحت سنطات وسيالات عجفاوات، وعلى حوافر الثعالب والأرانب والحَلُوُفْات، أسطورات حالمات وديعات.

قال له مختار علي متحديًا، وقد نسي أم تناسى حكايته:

- إنت لقيتها وين؟

قال أبّكر آدم:

- لو ما لقيتها ما بكون سمعت بحكايتها مع وَدْ فُور؟! يا أخوي لو ما مُتنا؛ شقينا المقابر.

حسنًا، سوف لا نتطرق إلى هذه الحكاية الآن، لأنها معروفة ومكرورة وقد يتولد لدى البعض بأننا نعرف كل ما يحيط بها، وهذا مجانب للحقيقة، فكل شخص في هذا المكان يحتفظ برواية خاصة به عن الصافية وود فور، حُكيت من قبل من قِبل عشرات الأشخاص،

نساء ورجال وأطفال، وكل حكاية ما كانت تشبه الأخرى، وما جاءت به، ما يُشبه الندوة في بيت أدَاليا دَانيال يوم مريستها؛ كان شيئًا آخر.

الجناح الذي خصتنا به الأم من بيتها الكبير المتسع، يقع في آخر صف من القطاطي الملحقة برواكيب صغيرة ممتدة في شريط قد يصل طوله إلى مائتي متر، وهو موقع شبه مهجور، وربما خاص. اكتمل المزاج بالشيشة، حيث برع في إعدادها ود أمونة الذي لم يحتمل بقاءنا بدون نساء يَحَلين طعم القَعَدَة ويكسبن بعض المال، ولم تعجبه فكرة أننا نكتفي بهذا الوحش ـ في نظره ـ الصافية، وذكر في أذني اسم ألم قِشي كلما وجد فرصة لفعل ذلك، لأنه لا يعرف عني زهدي في النساء، ظل يلاحقني، إلى أن لاحظتْ ذلك الصافية، فتحدثت معه بأسلوب غليظ، حرمنا من نكاته وملاحظاته الجميلة عن الحِلة وناسها وعن السجن، وحرمنا من نفحات عطر راقٍ يَنْسِمها. صمت، ثم، خرج.

قالت لنا الصافية من بين قرقرات الشيشة، وكأنها تمتص العالم كله في نفس واحد:

- البلد دي أسسّتها حَبُوبَتِي(جدتي) الصافية، أنا سموني عليها. لمّان جات هِنا، كان البلد ما فيها غير المرافعين(الضباع) والقرود والحَلُوفْ والجن، البلد كُلها غابة كِتِر ولالُوب ونَبَكْ.

حَكَتْ لنا حكايات كثيرة ممتعة، عن المكان قبل عشرات السنين، عن سُجناء يهربون بـ(الفِرو) من سجن الحُمرة بإثيوبيا، عن شياطين يسكنون ويتزاوجون مع البشر، عن بشر يتحولون إلى حيوانات وغربان، عن أناس يموتون ثم يحيون في شكل بعاعيت(اشباح).

وعن أناس عندما يموتون ويحيون سبع مرات يتحولون إلى أبي لمبة. وعن بشر يأكلون البشر، وعن.. .. .. عن.

إلى أن قاطعها صديقي سائلًا:

- قولي لينا حكايتك شُنُو مع ود فور؟

أنـا والحـق يُقـال، خفـت، ولأول مـرة في حيـاتي أخـشى ردود أفعـال لا أسـتطيع أن أتنبـأ بهـا إطلاقًـا، نهضـتْ، مـدتْ خرطـوش الشيشـة إليّ، دون أن تنظـر إلى أيّ مِنَـا، مشـتْ نحـو قُطيـةٍ تبعـد قليـلًا عـن مَجلسـنا، القطيـة الأكـبر حجـمًا، منـذ أن غابـت الشـمس أضاءهـا ود أمونـة مـع بقية القطاطـي الفارغـة، حتـى لا يتخذهـا الشـيطانُ مسـكنًا، اختفـت هنـاك، لم يُسْـمَعْ لهـا حـس، لم أسـتطع أن أتفـوه بكلمـة، ولـو أننـي كنـت في أشـد الحاجـة لـكي ألومـه، وأن أكـرر ملحوظتـي عـن سـلوكه الفـظ، وطريقتـه المبـاشرة الفجـة عنـد مخاطبـة النـاس.

(تعلم الكياسة، تعلم كيف تخاطب الناس).

لم أتفـوه بكلمـة واحـدة، وضعـتُ الخرطـوش جانبًـا، نهضـتُ، ناديـتُ بأعـلى صـوتي:

يا ود أمونة.

وفي لمـح البـصر، وكأنمـا كان ينتظـر خلـف البـاب مترقبًـا النـداء، جـاء ووقـف أمامـي في أدب وهـدوء قائـلًا:

- نعم؟

قلت له:

- أرح.. نمشي.

لم يَقُـل إلى أيـن، ولكنـه مـضى أمامـي ومشـيت خلفـه، كنـا نهـرول هَرْوَلـة، دخلنـا زقاقًـا ضيقًـا، أفـضى بنـا إلى زقـاق ضيـق، عـبر صـف مـن الرواكيـب والقطاطـي، عبرنـا شـجرتي نيـم خلـف زريبـة، تبيناهـا مـن رائحة روث البهائـم، تفـوح منهـا رائحـة (المُشْـك) ثـم يتلـوى بنـا زقـاق آخـر،

ليلفظنا خارج بيت الأم في طريق رحبة يؤمها السكارى والعاشقون ولفيف من خلق الله من الجنقو والجلابة وبعض عساكر الجيش. ومضى ود أمونة، ومضيت خلفه صامتًا. إلى أن دخل بيت مختار علي، حينها قال لي:

- إنت عايز بيت مختار علي، مش كدا؟

قلت له:

- أيوه.

ولم أسأله كيف عرف ذلك، دخلنا، وجدنا مختار علي وقد خلد إلى النوم، استيقظ فور أن ولجنا الحوش الكبير وصاح:

- منو؟

قال ود أمونة:

- نحنا يا مختار.

- مرحبا، اتفضلوا.

قال لي ود أمونة مستأذنًا:

- أنا عندي شُغُل في بيت الأم، لو ما كدا كنت قعدت معاكم، الليلة في ضيوف كُتار في البيت، نتلاقى الصباح.

ودون أن ينتظر ردًا مني، ذهب واختفى في الأزقة التي حتمًا ستسلمه إلى أزقة، التي سوف تلقي به في بيت الأم.

بيني وبين نفسي كنت قد فسرت هروب ود أمونة مني وادعاءه المشغولية بعودته السريعة إلى بيت الأم، كان يريد أن يشهد بأم عينيه ماذا سيجري ما بين صاحبي والصافية، سألني مختار علي بصوت نعسان مرهق عن صاحبي، قلت له:

تركته في بيت أدّي مع الصافية.

قال محتجًا وقد طآر النعاس من عينيه:

- ليه؟

قلت له في برود:

- رغبته.

قال وقد جلس:

- لكن مع الصافية؟

قلت مؤكدًا:

نعم مع الصافية.

قال لي:

- ما سمعت قصتها مع ود فور؟

قلت ببرود:

- ولكن قصتها معك كانت مختلفة.

قال محتجًا:

- الموضوع مختلف، معاي براو(بشكل)، ومع ود فور براو.

قلت له:

هل أنت متأكد من أن قصتها مع ود فور صحيحة؟

قال مستسلمًا:

- في الحقيقة ما في زول متأكد من الحصل بالضبط لود فور، ولكن الناس كلها متأكدة إنو حصل ليهُ شيء، كويس؟ كعب؟ الله يعلم. المهم ربنا يستر.

قلت له وقد عاد واضطجع في السرير:

- ما يهمني إنا(انها) ما حتقتله، لأنو ما بيموت بالساهل، وكل شيء غير الموت، هو تجربة مفيدة في حياة الزول، بتنفعه وما بتضره، كعب الموت بس.

ولكي ينهي النقاش سألني مختار إذا كنت أرغب في النوم داخل القُطِية مثلما يحب صديقي، أكدت له أنها رغبتي أنا أيضًا، وأنني معتاد على ذلك منذ صغري، طالما لم تكن لديّ رغبة في النوم، قلت لنفسي لأجرجرنه في الكلام ولو في الموضوعات التي يحبها كبار السن مثله.

- ليك كم سنة هنا؟

انقلب على جنبه الأيسر ليقابلني وجهًا لوجه:

- والله ما بتذكر أنا جيت(جئتُ) هنا متين(متى)، أول مرة، لكن من ما كانت الحِلة دي بيت واحد كبير مزروب بشوك الكتر والسيال، المرافعين والثعالب تحوم والشمس في نص السما، كان الجلابة البيزرعوا هنا، محسوبين على أصابع اليد الواحدة، والأرض المزروعة ذاتها كانت صغيرة وضيقة، كنت أنا وكيل مشروع، أكبر مشروع، ما بشوف التاجر الجلابي دا إلا يوم الحصاد وبس، كل البوابير والعمال تحت إدارتي أنا، ولكن نحنا ما فينا فايدة، الواحد بيلقى العشرة والعشرين في زمن القرش الواحد عندو قيمة، ولكن الواحد مننا يشيل القروش وينكسر في كنابي(بيوت) المريسة في(الحُمرة) في فريق قرش:

دي حلوة

دي مُرّة

دي حامضة

دي فطيرة

دي خميرة

دي فتاة، ودي عزباء، دي شرموطة، ودي شريفة. لحدي ما يكمل الفي جيبهُ، وتاني يبدأ من جديد. أكثر من أربعين سنة بالصورة دي، يمكن حتى تقوم الساعة دا لو ما انتهى الواحد مننا في شجرة الموت، في فريق قرش، وتبقى سوء الخاتمة.

قلت له مندهشًا:

- شجرة الموت؟ تقصد سدرة المنتهى؟

- لا، دي شجرة الموت دي شجرة كبيرة في الحُمرة في فريق قرش، لمّان يكبر الجنقوجوراي خلاص ويقرّب من الموت أو يمرض مرض تاني ما في عافية بعده، يمشي وحده أو ترميه الفدادية (صانعة المريسة) صاحبة البيت في الشجرة دي حتى يموت، الأخوان ما بيقصروا منه يدوهُ الفيها النصيب كان طعام، كان قُرُوش، كان هُدُوم، كان شراب، كان تُمباك.

قلت له ثائرًا:

- ليه ما يرجعوه لأهله؟

- ما في زول يقبل يرجع لأهله بعد العمر دا كله، يرجع ليهم زول موت؟ عيب والله؟

ثم حدثني أن الجنقوجوراي، أي جنقوجوراي، يأتي إلى هنا للعمل موسما واحدا فقط ويقول لنفسه إنه بعد هذا الموسم سوف يعود لأهله، يبسط أمه وأخواته ويتزوج، فيعمل موسمه الأول، ولكن أولاد الحرام وبنات الحرام دائمًا له بالمرصاد، فيشرب قروشه كلها مريسة وعرقي وينوم مع النسوان ويصاحب، ويقول السنة الجاية بعد حصاد السمسم مباشرة سوف أعود إلى أهلي، وهكذا، إلى أن يبلغ من العمر عتيًا، فيمرض ويموت، قال ضاحكًا:

- أنا في حياتي ما شفت جنقوجوراي واحد رجع لأهله!! إلا إذا جاء أهله وساقوه من هِنا.

- غريبة؟

ثم أضفت وقد طغى على ذهني موضوع الشجرة الغريبة:

- أنا أتمنى أشوف شجرة الموت دي.

- في حي قرش، شجرة مشهورة في الحُمرة، جنب بيت العُمدة دَوَدَهْ، هي مصير الزيّنا ديل.

قلت له مشفقًا:

- إنت أهلك وين يا مختار؟

قال في حسرة:

- أنا ما عندي أهل، أنا حسي(الآن) عمري فوق الستين، بعد دا في أم ولا أبو ولا أخوان بيكونوا موجودين؟ وأنا كنت أصغرواحد في الأسرة.

- أولاد إخوانك وأخواتك وين؟

- لا أعرفهم، ولا هم يعرفوني. وقريتنا ذاتها في دارفور انمسحت بالواطا، ضربتها الحكومة. أنا مصيري بس شجرة الموت يا ولدي. وأنا ما ندمان على شيء، والله عشت زي ما عايز. واستمتعت بحياتي في شبابي، وحتى الآن أنا بعمل وبجيب دخل، وأنا مقتنع أنه أي إنسان ضاق نُسْوَانْ البلد دي، وشرب مريستها تاني ما بيفارق عيشتها، وأنا لا خليت نساوين ولا مرايس. من خشم القربة حتى فريق قرش في الحُمرة، ومن الحواتة حتى الفزرا، بس أنصحك يا ولدي؛ ما تفرط في حياتك.

قلت بيني وبين نفسي: والله فرطتُ وانتهى.

قلت له:

- الله يستر.. الله يستر.

استيقظنا مبكرين كعادة ناس البلد هنا، ينامون مع الدجاج ويستيقظون معه، ما عدا السكارى والعشاق، يسهرون إلى ما بعد منتصف الليل، ويستيقظون مبكرين، تركت له ما تبقى لديّ من تُمباك وقصدت بيت الأم مباشرة، كانت الشوارع تضج بالمارة القادمين من القرى القريبة في طريقهم إلى سوق الجمعة، البربارات مشحونة بالسمسم، القرويون يقتسمون ظهرها الضيق، مرّ أمامي لوري، ثمّ كارو لماء الشرب، ناداني الطفل الذي يقود الحمار باسمي، عندما التفت إليه معيراً إياه كل انتباهي خاطبني قائلًا:

- صاحبك أُمبارح نجمتو الصافية.

قلت مندهشًا:

شنو؟

قال مكررًا في استمتاع خاص ولذة قوالاتية بالغة:

- صاحبك الصافية أُمبارح (بالأمس) ورتُو(أرته) نجوم النهار.

قلتُ بسرعة:

- وين؟

قال وهو يطرق برميل الماء إعلانًا لمائه:

- أمبارح، بعد ما مشيت خليتُهُ، وسبتُهُ إنت وود أمونة في بيت أدّي مع الصافية.

سوقْ القَنْزِيْ

افتقدتُ ود أمونة فور دخولي إلى حوش بيت الأم، كان غيابه واضحًا

قالت لي أمِ قِشي:

- ود أمونة قاعد يَعلِّمْ العروس.

- يَعلِّمْ العروس؟ يعلمها شنو؟

- يعلمها الرقيص، إنت ما عارف ود أمونة فنان؟ ورقّاص وحَنّان وحلاق برضو؟

هززت رأسي إيجابًا و لكنني كنت أقصد بيني وبين نفسي: نفيًا تامًا.

أضافت في شهية:

- العروس بت أبرهيت، حيعرسها محمد عوض كاجوك سَوّاق البربارا، يمكن سمعت بحمدو.

هززت رأسي إيجابًا بما يعني: إلى حد ما.

قالت لي أمِ قِشي:

- ود أمونة لو ما الله ستر كان حيجي بت.

ضحكت وقلت:

وبيعمل عمل البنات. ظاهر عليه ما راجل.

قالت وهي تضحك:

- ما في مَرَا (امرأة) جربتهُ حتى الآن، وما في راجل برضو جربهُ حسب علمنا ومعرفتنا. غير حكاية الطباخ الفي السجن لمّان كان صغير، تاني ما في شيء. حسي هو راجل عمره عشرين سنة، ولكن أبوه غير معروف.

قاطعتها:

قال أبوه يماني.

- عشان لونُهُ الأصفر ولاّ شُنو؟

هو قال كدا، أمه قالت ليهُ.

قالت وهي تدلك رجليّ بِعجينة دلكة:

- كل الناس عارفين قصة أمه.

حكت له أن أمونة عندما هربت من أسرتها قبل ثمانية وعشرين عامًا، وكانت أسرتها في قرية نائية في الغرب، أن سائق اللوري الذي صادفته في الطريق مارس معها الجنس، وأن المساعد الذي يعمل معه أيضًا مارس معها الجنس، وأن الجلابي صاحب العربة أيضًا، وعندما وصلت مدينة القضارف، صاحب الكارو الذي استقلته لحلة البنات أيضًا مارس معها الجنس، ثم اليماني صاحب الدكان، النذير شيخ الحلة، ود جبرين صاحب اللوكاندة وراجل المرأة التي استضافتها في الحلة، والأستاذ زكريا المُعلم بمرحلة الأساس، ثم حبلت بود أمونة. وهذه الحكاية أنا سمعتها مباشرة من كلتوم بت فضل وهي أعز صديقات أمّونَة.

- ولكن ود أمونة طلع يشبه منو؟

- والله أنا الجماعة ديلك كلهم ما شفتهم، ولكن لونو دا لون أمه، إنت ما شفت أمه، أمه بيضاء وجميلة زي القمر، بالرغم من إنها كبيرة حسي، ولكنها جميلة.

- وين هي؟

- متزوجة من عسكري سجون في القضارف، ولدت ليهُ بِتْ، كان شُفت أمه الليلة تقول عمرها ثلاثين سنة، دلكة وخُمرة وحِنّة ودلال.

ثم أضافت:

- يمكن أمه هي الخربتهُ (التي افسدته)؟

- كييف؟

- كان مُدلّع.

- لكنه قضى معظم حياته في السجن.

- برضو في السجن كان مُدلّع؛ دلعنهُ السجينات والمساجين والعساكر، تحت تحت الناس بيقولوا العساكر كانوا بيستعملوه.

الجو صحوٌ والسماء زرقاء وصافية، كنا نجلس تحت الراكوبة الكبيرة أمام القطية، وهي أجمل الأمكنة للونسة وشرب القهوة، ولا أظن أن أول من ابتكر الراكوبة كان يعني بها شيئًا آخر غير المؤانسة، سألتني:

- وين صاحِبَك.

مع مختار علي.

- صاحِبك دا زول غريب.

هززت رأسي إيجابًا.

أضافت:

- يوم حيكتلوه.

قلت لها:

لا، مافي زول حيكتله، دا ما النوع البيموت مكتول.

قالت:

- والله في الحُمرة في فريق قرش ما بياخد عشرة دقايق، شفت العملية العملتها فيُهُ الصافية؟

قلت لها:

- النـاس هنـا يزيدوا الحكايات، وكل زول بيحـكي الشيء البيتخيلهُ كواقع.

ثـم أخـذت تحـكي لي القصـة كـما تظـن أنهـا الحقيقـة، وقاطعتهـا عـدة مـرات، محـاولًا محاصرتهـا لكشـف تناقـض قـد يبـدو لي هنـا أو هنـاك في الحكايـة، ولكنهـا مضـت في حكيهـا بثبـات وثقـة العـارف المتأكـد، ثقـة مـن شـاف، ولـو أنهـا وغيرهـا لم يـروا شـيئًا، وهـذا حسـب ادعـائي أنـا أيضًـا، لكننـي فضلـت عـدم الخُـوض في هـذا الموضـوع، خاصـة بعدمـا انضـم إلينـا ود أمُونـة، كانـت تفـوح منه رائحة الخُمـرة والعطور النُسـوانية البلدية، كان ناعـمًا لامعًـا ونسـوانيًا أكـثر مـما رأيتـه مـن قبل، قال إنه مسـتعجل واشـتكى مـن أن العـروس شَـتَرا ولم يسـتطع أن يرقصهـا إلا عـلى الأغـاني الحبشـية.

- وحتـى الأغـاني الحبشـية باللـه ويـا مـين، الدلُوكَـة في جِهـة والرقيـص في جِهـة، ووب علينـا مـن دي شَـغَلانَةْ.

خاطبني قائلًا:

- صَاحْبَك أُمْبَارحْ الصافية طَلّعتْ مَيَتِينُهُ.

وأخذ يقهقه بالضحك إلى أن سمعنا صوت صديقي يلقي السلام:

- شُنُو مبسوطين كِدا يا شباب؟

اسـتأذن ود أمونـة مُدعيًـا أنـه مشـغول بالعـروس. تناولنـا وجبـة الإفطار فيـما يشـبه الصمـت وخرجنـا إلى سـوق العـمال، حـين وصلنـا كانـت هنـاك بـوادر ثـورة عـلى الجلابـة، وبـدا لنـا أن الأمـر جديـر بالمشـاهدة، فمثـل هـذه الحـوادث نـادرًا مـا تحـدث، تركنـا ألم قِـشي في المنـزل.

سـوق العـمال في كل سـبت، عنـد الميـدان الكبـير الـذي يقـع جنـب المركـز الصحـي الـذي شـيدته منظمـة عابـرة تسـمى (كرسـتيان أوت ريتـش Christian Outreach)، كمقـر لرعايـة الأمومـة والطفولـة، احتلتـه في مـا بعـد مؤسسـة التأمـين الصحـي التجارية مـشردة الأمهات والأطفـال، فيعرف

الآن بميدان التأمين الصحي، تحت شُجَيرات النيم الخمس، يقع سُوق (على الله) يؤمه العتالة، الجنقو، البناءون، النجارون والسماسرة، كانت لاندروفرات، باربارات، بكاسي ولواري الجلابة تصطف عند الجانب الجنوبي من السُوق، قُرب موقف الشُواك، حيث سُوق الميكانيكية والحدادين، الزيوت والإسبيرات. التجار الجلابة في جلاليبهم الكبيرة، أوجههم المنعمة، يتوسطون حلقات العمال يساومون، يفاصلون، يخادعون، يحاورون، يجادلون، يتاجرون ويسترضون. سألنا جنقوجورايةً جميلةً بُنِيّةً، اسمها بِتْ المَلَايِكةْ، فشرحت لنا ما يحدث:

- أول مرة يحدث في البلد دي يتفق الجنقو على سعر واحد، كلهم بدون فرز.

كان واضحًا أنّ ثمّة أمرًا قد تمّ ترتيبه وأن اتفاقًا ما قد وَقع بين العاملين، كانت وجوههم السوداء والبُنية، الغبشاء والتي يبدو عليها ما تبقى من ليلة الأمس واضحًا جليًا، تلك الوجوه المرحة المتسامحة غير المبالية، تبدو اليوم أكثر جدية وخطورة، تنطق جملة واحدة فقط:

- حِلة السمسم بتسعة جنيه.

يقول التجار بسعر ثمانية، ويشتكون بأن الثمانية التي يعطونها الآن مقابل أن يقطع الجنقوجوراي حلة واحدة من السمسم لا تطُاق، فكيف التسعة؟

يعلم الجنقو، ويعلم الجلابة أن السمسم هو صاحب الكلمة الأخيرة، وما هذه المساومات والحجج التي تدور الآن سوى مضيعة لوقت الجلابي، وفعلًا، عندما ارتفعت الشمس في قبة السماء، هبت ريح شمالية حارقة، أرقصت المكان، سُمعت أغنيات السمسم موقعة على دلوكة ود أمونة في محاولاته البائسة في ترقيص العروس الشتراء، فتفتقت السنابل السمينة ممزقة ثيابًا يريد لها الجلابي أن تبقى إلى

حـين أن يصلهـا المنجـل، منجـل الجنقوجـوراي الحنـين، الشـمس الآن في بـرج السمسـم بالـذات، القمـر الـذي سـوف يطلـع عندمـا تغيب الشـمس، بفعـل المـدّ والجـزر؛ هـذان الفعـلان الشـيطانان، سـوف يفتقـان فسـاتين السـنابل، فيندلـق الذهـب منهـا إلى الأرض، يلتقطـه نمـل نشـط لا يـكل ولا يمـل، فيحتفـظ بـه في صوامـع أمينـة تحـت الأرض لأيـام الشـدة، تحرسـه بَرَكـة الملـكات الرؤومـات. الجنقـو متأكـدون مـن أنهـم سـوف يكسـبون الرهـان، والجلابـة أيضًـا يعرفـون أنهـم سـوف يخـسرون، ولكـن بعـض الحـوار قـد يفيـد، دخـل الوسـطاء، سـماسرة، وكلاء مشـاريع، داعـرات شـهيرات، أصحـاب لكونـدات، سـائقو بوابـير، تجـار الـكلام، واقـترح البعـض:

أن يأتـوا بعـمال مـن محليـة الفشـقة المجـاورة، عـمال مهـرة ولا يكلفون كثـيرًا، وأن يتركـوا هـؤلاء الثائريـن، وسـوف يندمون.

ضحك الجنقو عندما سمعوا بذلك قائلين لبعضهم البعض.

- هه.. .. الفشقة؟ يخلوا سمسم الفشقة لمنو(لِمَنْ)؟

اقترح الجلابة لأنفسهم بصوت مسموع:

- نجيب عمال من معسكر اللاجئين.

ضحك الجنقو قائلين:

- لاجئين.. .. ؟؟؟

أنتـوا بتحلمـوا؟؟ اللاجئـين في المعسـكرات بقـوا أغنـى مـن المواطنـين، يحمـدوا ربنـا الخلقهـم.

وما في لاجئ فاضي لقطع السمسم.

اقترح الجنقو لأنفسهم بصوت مسموع:

- أحسـن نحـن ذاتنـا نسـيب الشـغلة بتاعـة السمسـم المـا نافعـة دي، ونشـتغل مـع شركـة الاتصـالات في حفـر الكوابـل.

قال جنقوجوراي بصوت عالٍ غليظ:

- أنا لو أشتغل زي ود أمونة، ما بقطع السمسم بثمانية تاني.

قال الجلابة لأنفسهم بصوت عالٍ:

- حنجيب عُمال من خشم القربة.

قال الجنقو لبعضهم البعض:

- إلا لو عايزين طَنَبَّارة(مغنين) ومدرسين.

ثم هتفت الصافية قائلة:

- أرح يا شباب نمشو(نذهب)، (القُوقُو) قال داير الحلة، أرح نكمل سَكَرة امبارح، النسوان في انتظاركم يا أولاد.

وعندما تحرك فوج العمال نحو الحِلة، وعندما قاصد مباني البنك تحت التشييد، تحدث السمسم سرًا لجيوب الجلابة فقالوا:

- رضينا بالتسعة، وإن شاء ما تنفعكم وتبقى ليكم بالساحق والماحق والبلا المتلاحق.

قال الشايقي وهو يبصق سَفّة تمباك كبيرة على الأرض:

- نحن قُروشكم دي عندنا زي قُروش الحرام، نشربها بالنِهار ونَبُولها بالليل.

قبل الجنقو ولكن ألا يذهبوا اليوم، بل غدًا، لأن القُوقُو إذا اتجه إلى مكان ما، لابد أن يواصل مشواره، سيكملون سَكرة الأمس، فالقوقو يتجه الآن نحو الحِلة، ومخالفة اتجاه القوقو شؤم ما بعده شؤم.

في الصباح الباكر غادروا إلى المشاريع، ما عدا مشروع الجلابي سُماعين قالوا إن عليه أن يتأدب، مما أعاد الاعتبار إلى مختار علي، فبكى من الفرح.

ونحن راجعين إلى داخل الحِلة سألت صديقي:

- شنو حكايتك أمبارح مع الصافية؟

قال لي وهو ينظر بعيدا:

- حأحكيها ليك بعدين، حتعرف كل شيء.

قلت له:

- قالوا فعلت بك الصافية فعلة نكراء؟

قال مندهشًا:

- فعلت بي شنو؟

- قالوا إنو الصافية عندها(موضوع) زي بِتاع الرجال، وأكبر شُوية، نُص حمار مثلًا. يعني قدر بتاع الدحش كِدا.

قال وهو يبتلع ريقه في ضيق بيِّن:

- حأحكي ليك، الموضوع مختلف تمامًا، الناس هنا مغرمين بالأساطير، هو موضوع غريب، لكن ما عنده علاقة ببتاع حمار ولا بتاع كلب، ولا بُنْية الوعي التناسلي.

جلسنا على قهوة في سوق العيش قرب الصيدلية، كان الجنقو يعبرون أمامنا إلى بطن الحلة جماعات جماعات، يتحدثون بأصوات عالية وبلكنّات كثيرة مختلفة، يثيرون الأغبرة من مشيهم السريع، حيث يسحبون أرجلهم سحبًا على الأرض، يضحكون وهم يحاكون الجلابة، أخذ أصحاب المطاعم يغلقون أماكنهم ونساء الشاي والطعام يفعلن الشيء نفسه لأنهن يعرفن أن السوق قد(سَبّحْ وَرَبّحْ)، وأن الجنقو لا يقنعهم الآن سوى مجلس الشراب، على النساء أن يلحقن بهم في الحلة لكي يبعن لهم العرقي أو يهيئن لهم المفارش، فهذه الأيام هي أيام الحصاد والمحصول هو الجنقوجوراي، دَيّنه مضمون

ونقـده أكـثر ضمانًـا، بـس كيـف يدخـل البيـت. فالنسـاء يتخاطفنوهـم مـن الشـوارع.

اعتذرت لنا صاحبة القهوة عن تقديم أي شيء لنا قائلة بوضوح:

- الـرزق دخـل الحلـة، وعنـدي عرقـي خايفـاه يبـور، أخـير ألحـق أبيـع كُبايـة كُبايتـين، ولا شـنو يـا أخـواني؟ ربنـا أجـلّ سـفرهم الليلـة، فرصـة، ولاّ شـنو يـا إخـواني؟

هززنـا رأسـينا معًـا بالإيجـاب، ونهضنـا في وقـت واحـد مـن (البَنْبَريـنِ) مظهريـن رضـا تامًـا بقرارهـا، بـل عـن طريـق حـركات مقصـودة وهمهمات طيبـة، أكدنـا لهـا أنهـا تفعـل الـشيء الأكـثر صوابًـا، وربُنَـا يكـون في عونهـا، تمنينـا لهـا ذلـك بصـدق وإخـلاص، مـما جعلهـا تـترك لنـا (البَنْبَريـنِ) في الراكوبـة طالبـة منـا عندمـا نغـادر أن ندخلهـما الحجـرة ونغلقهـا بالطبلـة، التـي تركتهـا دون إغـلاق.

- سَمِح يا أخواني؟

رد عليها بحنّية:

- سَمِح يا أختي.. سَمِح.

قلت لها:

شكرًا.

وقالت وهي تنسحب وعلى رأسها قفة المهمات:

- أنا بيتي جنب بيت الأم.

ونظـرت إلى صاحبـي نظـرة فيهـا معـانٍ كثـيرة، وخُيِّـلَ لكلينـا أنهـا ابتسـمت، الـشيء الـذي أكدتـه لنفـسي أنهـا لم تبتسـم، رأيـت وقـع ذلـك حزنًـا طفيفًـا عـلى وجـه صاحبـي، ذهبـتْ وهـي تترنـم بأغنيـة بنـات هابطـة، قـال لي:

- تقصد شُنُو الزُولة دي؟

قلت له دون مبالاة:

- تقصد موضوعك الامبارح مع الصافية.

قال:

- لابد من أن ود أمونة هو النشر الدعاية دي؟

سألته:

- إنت عَمَلتَ شنو بالضبط؟

وأكدت له أن ود أمونة كان يُرَقِّصْ العَروس في ذلك الوقت، بعد ما قام بتوصيلي إلى بيت مختار علي، سمعت صوته يغني بالدلوكة: (اللُوليّة بسْحَرُوك يا لُولَى الحَبَشِيةْ).

وتقريبًا ناس الحلة كلهم كانوا يسمعونه، صمت صمتًا طويلًا، وهي صفة يتسم بها أيضًا خاصة إذا كان يفكر في أمر شائك. لم أجد سببًا وجيهًا يمنعه من أن يخبرني بالحقيقة، فبيني وبينه دائمًا الصراحة والوضوح، وليس الحواجز والصمت.

مرّ أمامنا نفر من ضباط الجيش، يتبخترون في مشيهم كالطواويس، سألنا موظفون من شركة الاتصالات ما إذا كانت (بخيتة) موجودة، قلنا لهم إنها في المنزل. فذهبوا نحو الميس، كان صديقي يعرف بعضهم ومن بين هذا البعض مدير الشركة، مرّ بنا عمال يلبسون أفرولات زرقاء وسوداء وبيضاء عليها بقع من الزيت. تشهد الحلة هذه الأيام نهضة تنموية ينظر إليها الجميع بعين التفاؤل والتقدير، ويهتم الأهالي ويشجعون مظاهرها الخارجية، وتنظم البنات الأغنيات عن المعلمين وضباط المحلية والشرطيين ومهندسي شركة الاتصالات، وحتى عمال طلمبة الوقود بشارع همدائييت.

سألنا رجل وهو يدخل نصفه في الراكوبة:

- بخيتة مشت وين؟

قلت له:

في البيت.

فنظر إلى صاحبي نظرة فاحصة وقال:

- إنتو جُداد في البلد دي مُشْ كِدَا ؟ (انتم جدد في هذه البلدة، اليس كذلك؟)

قلت له:

- نعم.

- نازلين في بيت الأم؟

قلت له:

- نعم.

ابتسم ابتسامة عريضة، أظهرت أسنانًا متفرقة بُنية بفعل التسوس والصعوط، فسرّ صاحبي هذه الابتسامة بأنها نوع من السُخرية أو الشماتة، وحكى لي ما سماه كل شيء حدث بينه وبين الصافية، حتى يغلق هذا الباب على الأقل من جهتي.

سَبَعَةْ يُومْ عَوَضِّيهْ بَيي

البلد، ويقصد الحِلة، لم يكن بها في الماضي سوى المرافعين، الحَلُوفْ، أبو القدح والقرود والثعالب، وفي كل مكان تلقى الجنون، في الكرب وطرف البحر وحتى في باطن الحِلة، ساكنة مع الناس. الحِلة كانت عبارة عن بيت واحد كبير جدًا مزروب بالشوك، بيت طوله نحو ألف متر وعرضه أكثر من ذلك بكثير، ومحروس بالكلاب وهو بيت الصافية الحبوبة، في الداخل كان مقسما لبيوت كثيرة، كلها قطاطي من القش والقصب ورواكيب كبيرة من حطب الكتر والدهاسير، وفي المنتصف توجد مطامير الذرة والدخن وخمارات الكَوَلْ، كل الجُدد القادمين إلى الحِلة، يجدون لأنفسهم براحات يبنون فيها قطاطيهم داخل هذا الحوش الكبير، أما العابرون إلى جهات إثيوبيا وإريتريا، أو الصعيد، الذين أتى بهم الطريق، فإنهم يُستضَافون في ديوان الجَدة الصافية، حيث توجد زاوية الصلاة وسبيل للمياه والمستراح؛ وهو عبارة عن حفرة معروشة بالحطب القوي والقش تستخدم كمرحاض. وقد عبر بهذا الديوان حجاج جاءوا من تشاد، نيجيريا، النيجر والكاميرون، وحتى مغاربة بيض الوجوه لهم ذقون ولحى طويلة شقراء، استراحوا هنا، وهم يمضون نحو باب المندب إلى اليمن ثم إلى مكة، كان بعضهم يقيم لأكثر من عام، فيتخذ لنفسه أرضًا، يقوم بفلاحتها وزرعها بالسمسم والدخن، وقد يتزوجون وينجبون الأطفال. منزل واحد كان مركز الدنيا، وامرأة واحدة كانت سمعتها تملأ الشرق كله، وقد نقل سيرتها الحجاج إلى بيت الله الحرام بمكة، ولمّا رجعوا لأهلهم، حكوا لهم عنها كذلك، في الحقيقة، ما كانت الصافية الجدة هي مؤسسة هذا النزل، ولكنها الأشهر بين صافيات كثيرات عِشْنَ في هذا المكان، سُلالة جد جاء هاربًا من سجن في الحُمرة، في سنة

موسومة بسنة النَجَمة أم ضَنَبْ التي لا تظهر إلا في السنوات التي سوف تشهد أحداثًا عظيمة، كان نجمًا كبيرًا تبختر في السماء بذيله الطويل لأسبوع كامل، جدها اتهمَ في إثيوبيا بسرقة بيت (القِشي) نفسه، وسيقتلونه بالتأكيد، ضربًا أو جوعًا. المسجونون في ذلك الزمن الغابر، يخرجون في مجموعات، يُرْبطون في حبل واحد من التيل، يُطَوّفون بالأحياء والأسواق والمطاعم، يأكلون البقايا ويسألون الناس الطعام والمال، التباكو والصعوط، وهي الوسيلة الوحيدة للحفاظ على الحياة وتجنب الموت جوعًا، فالسجن ليس مسؤولًا عن طعام المساجين، يكفي أنه يوفر لهم سَقفًا يقيهم المطر وحر الشمس. كان الجد عبد الرَازِقْ مع بعض أصدقائه في مطعم بالحُمرة، قُرب سُوق همدائييت، وهي سوق يؤمها لفيف من السودانيين للبيع والشراء، ولأنهم يأتون عن طريق همدائييت عابرين نهر سيتيت فسمي بهذا الاسم، كانوا يتناولون الزِقْنِي بالأنجيرا، والشطة الدليخ وهي وجبتهم المفضلة في إثيوبيا. عندما رأى توءمه عبد الرزّاق مربوطًا من قدميه في حبل من التيل مع عشرين من المساجين، كانت حالته بالبلا ووجهه أصبح عظامًا من الجوع، تفوح منه رائحة كريهة، احتضنا بعضهما البعض إلى أن فرّق بينهما السجان والمسجونون المتعجلون، حيث إن زمن البحث عن الطعام لا يمكن تضييعه في علاقات اجتماعية لا فائدة تُرجى منها، وتكلما بلغة تخص قبيلتهما، ثم أعطى توءمه طعامًا ومالًا ووعدًا صادقًا.يعرف عبد الرازق عن توءمه أنه خجول وعديم الحيلة، ولا يمكن أن يسرق شيئًا مهما صغُر وأُهْمِل، ويعرف أيضًا أن عبد الرزّاق قد يموت بالسجن إذا لم ينجده، الحبشة بلد غُربة، وهو لا يعرف رجلًا مسؤولًا أو وجيهًا إثيوبيًا يستعين به، وحتى صاحبة البار التي كان دائمًا ما يختلف إليها قالت له عندما حدثها عن محنة أخيه وتوءمه: لا، القشي حيقتلني، وهو ليس لديه مال للرشوة، أمامه بديل واحد فقط، ومضى نحوه دون تردد، عليه أن ينقذ توءمه،

مهـما كلـف ذلـك. كان مختـار عـلي يحـكي لنـا الحكايـة كأنمـا حـضر كل حادثـة منهـا أو أنـه أحـد أبطالهـا، عـلى الرغـم مـن أنـه يـؤرخ لذلـك بـين حـين وآخـر قائـلًا: دا حصـل مـن أكـثر مـن ميـة وخمسـين سـنة.

كنـا نسـير ببـطء عـبر الأزقـة، لا نهـدف إلى مـكان بعينـه، هـي فكـرة مختـار عـلي، أن نتمـشى قليـلًا في شـمس الصبـاح؛ لأن بهـا فيتامينـات مهمـة، وأكـد لي أنـه حتـى الثعابـين تطلـع مـن جحورهـا لتأخـذ منهـا قـوة النظـر، صحتـه بـدت في تحسـن ملحـوظ اليـوم، كان متفائـلًا ويضحـك لأتفـه الأسـباب، يتحـدث بصـوت عـالٍ وهـو مـا ليـس مـن طبيعتـه في شيء، وجدنـا نفسـينا ندخـل زقـاق بيـت أداليـا دانيـال، التـي فاجأتنـا مـن أعـلى صريـف بيتهـا:

- يـا مختـار عـلي، إنـت وصاحبـك تعالـوا جُـوه، صاحبكـم ذاتـو قاعـد هنـا في بيتـي، تعالـوا اشربـوا ليكـم مريسـة وونسـوا خشـم خشـمين.

قبلنـا الدعـوة الكريمـة شـاكرين، فالدنيـا صبـاح والمريسـة أطيـب مـا يُسـتفتح بـه، وونسـة الصبـاح هـي مصيـدة حكايـات الليلـة السـابقة، سـميتها وصديقـي: جريـدة الصبـاح. فالمريسـة تطلـق الخيـال، الـذي بـدوره يطلـق اللسـان، فينفتـح القلـب للقلـب مبـاشرة وتهبـط ملائكـة الحكايـات الرائعـة في المجالـس فتحلـو. وجدنـاه يجلـس عـلى بَنْـبَرٍ كبـير، كشـيخ أسـطوري نُـسِي مـن مذبحـة العَنَـجْ، عـلى بَنْـبَرٍ آخـر، قربـه العَجُـوز، وهـو أشـهر مغـنٍ يسـتخدم أُمْ كِيـكِيْ في الحِلـة والحـلال المجـاورة أيضًـا، بالأحـرى، لم يـر السـاكنون مغنيًـا يسـتخدم أُمْ كِيـكِيْ غـيره، ولم يسـمعوا بـه مجـرد سَـمَعٍ، يبـدو أنهـما أنهيـا فاصـلًا ممتعًـا مـن الأغنيـات، حيـث إنهـما الآن يتحدثـان عـن مناسـبة أغنيـة:

سَبعَهْ يوم عَوَضِيّهْ بَيَي

أبو اللّقَنَي رُوَدَاي بقنيص.

فالتقطنا بقية كلام نطق به العجوز:

- نـاس الكَلَـشْ هـم أصحابهـا الحقيقيـين، أنـا جبتهـا مـن قيسـان، وسـمعتهم يغنوهـا في قنيـص والكرمـك، وحتـى حـي الزهـور وفي يابُـوس، وكل حفـلات الروصـيرص، لكـن أنـا أول زول يغنيهـا بـأُم ْكِيـكِيْ.

التفت إليّ صديقي قائلًا في انشراح: وين إنت يا أبو الشباب؟

ضحـكَ، ضحكـتْ أداليـا دانيـال، ضحـكَ مختـار عـلي وضحـكَ هـو في هسـتيريا، قـال لي:

- إنت الوحيد البتضحك عن معرفة.

قالت أداليا وهي تهزّ صدرها الناهد في ما يشبه الرقص:

- يوم ليك ويومين عليك. كلنا عارفين يا أخوي، الدنيا أصلها كدا.

أحـضرت أداليـا دانيـال العسـلية والمريسـة، أحـضرت الأُم فِتْفِـتْ بالشـطّة الخـضراء والفـول الدكـوة، قالـت:

- عندي مُوليتة.

قال العجوز: أنا أحب المُوليتة.

سألتها:

- عندك أبُنْغَازِي؟

قالت وهي تشير بأصبع عليه خاتمٌ كبيرٌ من الذهب إلى الشطة:

- فيها، الشطة فيها أُبنْغَازِي.

قدمـت لنـا أداليـا الكـؤوس الأولى بيديهـا الناعمتـين السـوداوين، تبـدو الحنـاء عـلى أظافرهـا رقيقـة سـاحرة، شـهية وأكـثر سـوادًا، بمنزلهـا أيضًـا قليـل مـن الجنقـو، حيـث سـافر الجميـع في الصبـاح الباكـر لقطـع السمسـم، كان مختـار عـلي بـين حـين وآخـر يذّكـر النـاس بانتصـاره عـلى

إسـماعيل الجـلابي.

- سُماعين ود الكِدِك، ما لقى جنقوجوراي واحد يمشي معاهُ.

ودون رد أو تعليـق مـن الحاضريـن، أخـذ العجـور يغنـي بصوتـه الشـجي:

قيسان البعيدة.

قيسان البعيدة.

عندي فُوقُو الحبيبة.

قيسان البعيدة، عندي فُوقُو الحبيبة.

ولأن كل أغانيـه جماعيـة، يسـتحيل أداؤهـا دون كـورس، أخذنـا نـردد خلفـه المقاطـع الأولى مـن الأغنيـة، وليسـت تلـك مهمـة صعبـة، حيـث إن كل الأغـاني معروفـة لـدى الجميـع، أنـا وصديقـي غريبـان، ولكـن ترديـد جملتـين لحنيتـين بالسـلم الخـماسي، بهـما كلمتـان مـن اللغـة العربيـة وخمـس كلـمات مـن لغـة البرتـا؛ وثـلاث بالأنقسـنا، ليـس بالأمـر العسـير، ولـو أننـا قـد نشـتُر عـن اللحـن والإيقـاع أحيانًـا، ولكننـا نغنـي خلفـه بـإصرار وحـماس؛ مدّتنـا بـه عسـلية ومريسـة أداليـا دانيـال بجمالهـا ومذاقهـا الحلـو، في الحقيقـة لا يُوجَـدْ غُربـاء هنـا في الحلـة؛ فـور أن تنزلـك بربـارا أو يلقـي بـك بـاص كئيـب أو تهبـط مـن ظهـر لاندروفـر أو يرمـي بـك لـوري في الحِلـة، أو بمـكان مـا في السُـوق؛ تصبـح أحـد أفـراد الحِلـة المؤسسـين، وتعـرف كل شيء عـن كل شيء، في ذات اللحظـة وذات مـكان الوصـول. رَقصـتْ أداليـا دانيـال بصدرهـا المملـوء باللـبن بصـورة رائعـة، خلـدت في ذهنـي إلى الأبـد. تـبرع جنقوجـوراي شـاب مـن قبيلـة الوطاويط بـأداء إيقـاع الكَلَـشْ السريـع الصعـب، بواسـطة وعـاء بلاسـتيكي يُسـتخدم لتقديـم المريسـة. عندمـا انتهـت الأغنيـة، صفقنـا جميعًـا لأنفسـنا، حيـث كانـت الأغنيـة مـن أداء الجميـع؛ رقصـت أداليـا دانيـال عنـا بصدرهـا

الناهـد الوافـر، مـا جعلنـا نطلـب باقـي المريسـة (البايـرة(عندهـا. لأن الجنقـو الفـدّادة ذهبـوا، وأعطيناهـا ثمـن جردلـين مـن المريسـة لم نشربهما، بِحُـرّ إرادتنـا ووعينـا، وحَـشَر لهـا صديقـي في فـراغ مـا بـين النهديـن في مـا يُسْـمَى بــ(وادي الكَدايـشْ)، ورقـة نقديـة كبـيرةٌ، همـس لي مختـار عـلي في أذني ونحـن ننـصرف:

- لـو مـا عملـت كِـدا كان تبيـع مريسـتها الحامضـة دي لمنـو (لمـن)؟! وعسـليتها البايـرة؟

وضعنـا سريرينـا قُـرب قُـرب في المسـاء، كان الضـوء الباهـت يأتينـا مـن داخـل القُطيـة في شـكل عمـود ضخـم، حـكى لي عـن أسرة الصافيـة كـما طلبـت منـه. الجـدة ووالدهـا عبـد الـرازق، حدثنـي أن الجـد جـاء إلى هنـا بعـد هروبـه العجيـب مـن سـجن الحُمـرة وعـلى رأسـه (الفِـرو)، وهـو أول شَـخص في تاريـخ الحبشـة يهـرب بــالفِرو، وربمـا في إيطاليـا ذاتهـا، لأن الإيطاليـين هـم الذيـن جـاؤوا بالفِـرو إلى الحَبَشَـة، وهـو يُسـتخدم لتأديـب الثـوار واللصـوص. شربنـا قهـوة أعدّتهـا لنـا إحـدى الجـارات وناولتهـا لنـا مـن عـلى الصَرِيـفْ، مُذكـرة إيّانـا بـأن اليـوم هـو عيـد القديـس يُوهَنِـس، باركنـا لهـا العيـد واعتذرنـا عـن المُباركـة المتأخـرة لأننـا مـا كنـا نعلـم. قالـت لي الجـارة: ألم قِـشي تسـلّم عليـك. سـألتها بسرعـة:

- وين ألم قِشي؟

قالــت وبصوتهــا احتفاليــة جزلــة: هــي قاعــدة معانــا هنــا، عايــز تشــوفها؟

وجودنـا في بيـت مختـار عـلي، حرمنـا مـن حضـور الاحتفـال العظيـم الـذي أقامتـه أدّي في منزلهـا؛ احتفـاءً بعيـد القديـس يُوهَنِـس، وحرمنـا مـن وجبـة الديـوك الحمـر والأم بَابَـا، ولـو أنـه لم يكـن هنـاك رقـص وغنـاء نسـبة لانشـغال ود أمونـة بتعليـم العـروس الشـتراء، إلا أن اليـوم كـما حُـكي

لنا لاحقًا كان (خطير)، على حسب تعبير ألم قِشي، وأشير هنا إلى أن ألم قِشي هو الاسم الذي يلاحقني في هذه الأيام، وأنا وهي متهمان بأننا ننوي القيام بخطوة ما كانوا يتوقعونها، يقولون إننا سوف نتزوج في عيد الأضحى القادم، وأقل الأقوال تفاؤلًا بعلاقتنا هي أنني أحُبها حُبًا شديدًا، وهي أيضًا متأكدة من حُبي لها، مثلها مثل الجميع، إلا أنا، لا أعرف شيئًا عن هذا الحُبْ، كل ما أعرفه أن ألم قِشي أول من أنهت عذريتي بصورة واضحة وطبيعية؛ وأنها إلى حد ما كسرت حاجز الخُوف الذي بيني وبين المرأة؛ والحق يُقال أيضًا، كنت دائمًا ما أتخيل نفسي بأنني سوف أفشل مع النساء حالما تُتَاحُ لي الفرصة كاملة، لذا كنّ يخفنني، كما أنني كنت مُقْتَنِعًا بفكرة غريبة مفادها أنني إذا فشلت مع المرأة الأولى، سوف أصبح عُنِّينًا بقية حياتي، ولم تنفع الشهادات الهشة التي كنت أستعين بها للدفاع عن رجولتي من حين لآخر، مثلًا ذكرى صاحبة الطحّانة التي اغتصبتني وأنا طفل، وذكرى أخت زميلي، ذكرى دَحَشَةٌ ومِعزة أتيتهما وأصحابي المراهقين، ذكرى كلبةٍ ألبسناها طَبَقًا من السَعف حول عنقها واغتصبناها، وأستاذة الجامعة الشبقة، وغيرها من الممارسات غير السوية المقرفة، ألم قِشي هي التي أعادت لي ثقتي بنفسي بِحَرفية عالية، بذكاء بالغ، بمتعة مدهشة، وجدت نفسي أتعامل مع امرأة كاملة طبيعية وإنسانة. أتينا الفِعْلَ في ليلة واحدة ما لا يقل عن عشر مرات، أو قل الليل كله وعند الفجر وقبل وبعد الإفطار، أعطيتها أجرها بكرم سخي، ثم لم نفعل مرة أخرى ولو أننا تقابلنا وشربنا القهوة معًا وتلامسنا، أما مسألة الحُبْ والزواج وغيره وغيره، لم أعرف منها شيئًا، ولم أفكر فيها أبدًا، وإذا صَدَقتُ القَول، أنا لم أحب في حياتي مطلقًا، وغالبًا ما يصفني أصدقائي بأنني (بارد) ألم قِشي سيدة طويلة، لها بشرة ذهبية ناعمة، بل قل حَمراء، لها عينان حبشيتان كبيرتان، يُحيطُ بهما ظل ثقيل يكسيهما سِحرًا خاصًا بساكني المناطق الجبلية والهضاب العالية

ذات المُنَاخاتِ المطيرة، فوق ذلك لم تكن بالسيدة الفاتنة فتنة ظاهرة صارخة، على الرغم من أن لها جسدًا شهوانيا، وإلا لأصبحت عاملة بار ناجحة في الحُمرة أو قُنْدَرْ أو حتى أديس أبابا ذاتها، ولكن ما يبدو من فتنتها أبعدها، كما تقول دائمًا، عن منافسة البَارِسْتَاتْ المحترفات شكلًا ومهارةً هنالك، وقادها إلى الأراضي السودانية الجديدة، حيث شِيعَ وعُلِمَ عن السُودانيين حُبهم للحبشيات وتفضيلهن على نسائهم الوطنيات، وسبب ذلك، كما تؤكد ألم قِشي: الطَهَارةَ وعَدَمْ الحِنيّة. وعدم الحِنيّةْ سببه الطهارة برضو، قلتُ للجارة الطيبة: قولي لألم قِشي مَبروك عيد القديس يُوهَنِس، وأنا ح أجيها بعد شوية عندكم .أصدرتْ الجارةُ صوتًا بباطن لسانها، وشفطت كمية من الهواء بفمها فيما يعني في هذه الأنحاء: حسنًا.

ساعدتُ مختار علي على الاستحمام. لأول مرة تقريبًا يستحم، منذ أكثر من أسبوعين، أي مُنذ أن أُصيبَ، حيث نُصح بعدم الاقتراب من الماء، حتى لمجرد الوضوء للصلاة؛ عليه بالتيمم. نَصحهُ أفراد كثيرون أصيبوا قبله بضربة الدم، وهو التصنيف المحلي لمرضه المجهول. عندما فرغنا من الاستحمام، وجدناها في انتظارنا خارج القُطية، في الراكوبة مضجعةً على عَنَقَريبٍ عجوز دون لحاف، تُظهر عُري سَاقيها بصورة استعراضية إيروسية في غاية الإغواء. قالت: طالما أنا رافض أن أزورها، فبادرت هي بالزيارة، ولكنها أكدت أيضًا، أنها لن تكرر هذه المحاولة: كُلنا عِندنَا عِزة نَفِسْ.

تشاغل مُخْتَار عَليْ بأمر ملابسه ونظافته الشخصية. سأعترف هُنا، بأن ألم قِشي أحَبتني، ولكن في ظاهر الأمر أنا الذي أغير عليها، لأنني طلبت منها أن تترك العمل مع أدّي كفتاة مَبيت، وتعمل طباخة في مَيسِ شركة الاتصالات الجديدة. قلت مُعلقًا ومحببًا الفكرة:

- عمل شريف.

قالـت بِغنـج وهـي تحـاول أن تخفـي عـري سـاقيها بحركـة أخـرى أكـثر إثـارة:

- عملي مع أدّي عمل شريف.

قلت لها: على الأقل أنا شايفه غير شريف.

قالت بإصرار:

- أنـا شَـايفَاهُ عكـس كِـدَا، دَا شُـغُل، العايـز يدفـع، وأنـا بصراحـة مـا قاعـدة اسـتمتع بالرُجَـالْ: شُـغُل يَعْنِـي شُـغُلْ.

وأكدتهـا باللغـة التِجْرِنـة) سَرِحْ سَرِحْ بَيُـوْ(ثـم أضافـت: العَيـب فيـهُ شُـنُو؟

عرفـتُ في مـا بعـد، بعـد سـنوات كثـيرة، وذلـك بعـد أن قـرأت كتـاب (نَقْـدُ الفِكـرِ اليَوَمِـي(لمهـدي عامـل، أن العَيْـب الـذي فيـه تربيتـي أنـا، القيـم الخاصـة بي كآخـر أقيـم في ظـرف مختلـف ونـوع مختلـف وثقافـة مختلفـة، تـراني اعـترف بأنهـا فتحـت لي آفاقًـا إنسـانية فيـما يخـص علاقتـي بالمـرأة، وتـراني اسـتمتعت تمامًـا بالفعـل الجِنـسي معهـا، ولكننـي رغـم ذلك أنظـر إلى الأمـر كلـه بميـزان الخطـأ والصـواب، وهـذا فضـح لرجـل انتهـازي يسـكن في خبايـا شـخص مـدعٍ آخـر وهُـمَا أَنـا، هـذه شـيزوفرينيا أعـاني منهـا كثـيرًا، ولا أظـن أن الأمـر لـه علاقـة بالديـن أو السُـلوك الشـخصي، المسـألة معرفـة فحسـب، طالمـا كُنـا، أنـا وهـي نُـدرك أن الخـير والـشر وكل الديانـات والكُفْـر أيضًـا مـن ذات المصـدر، وأن العمـل مقـدس. نـاداني في هـدوء، خاطبنـي قائـلًا:

- تعال ح أحكي ليك موضوع الصافية.

قلت له متعجبًا:

- إنت مُش حكيته لي أمبارح؟

قال وفي فمه ابتسامة تعبة:

- الحكايـة القصيتهـا ليـك قطعتهـا مـن رأسي، إنـت حاصرتنـي وأنـا حاولـت أفوتـك، تعـال يـا مختـار عـلي كُـون شَـاهِدْ، هـي حكايـة عـلى كل حـال ظريفـة، ولا رأيكـم شـنو؟

أشرنـا برأسـينا في وقـت واحـد إيجابًـا وجلسـنا عـلى عنقريـب وبنـبر قربـه.

شَبَقُ المَرْفَعِينْ

استيقَظَ إثر نداء الصافيةِ له، كان قد نام على الكُرسي الذي تركتُه عليه، دخل القُطية الكبيرة، كانت شبه خالية من الأثاث، عدا سريرين من خشب السُنط مفروشين بلحافين لم يتبين تفاصيلهما، الإضاءة، لحد ما جيدة، طلبتْ منه أن يجلس في السرير الآخر، جلسَ. قالت له:

- عايز تعرف حكايتي مع ود فُور؟

رد عليها بدبلوماسية ليست من طبيعته:

- لو ما بزعجك الموضوع دا.

قالت وهي تأخذ نفسًا طويلًا من الشيشة فتصدر صوتًا بائسًا: كُويّس.

الخريف الفات كنتُ شغالة في مشروع الزبيدي، تعرف مشروع الزبيدي؟! وقبل أن تسمع إجابته واصلت الحكاية، كانت هي المرأة الوحيدة بين عشرين رجلًا من الجنقو، وتستطيع أن تتذكر أسماءهم، اليوم، الشهر والساعة. أنا وود فور كنا ماسكين مقاولة سوا في مشروع الزبيدي؛ كانا يعملان في فريق واحد؛ لاحظتْ أن ود فور في الآونة الأخيرة كان يتقرب منها كثيرًا، ودائمًا ما يضع نفسه في مجموعة العمل التي تضمها، ولاحظتْ أنه يتعمد الالتصاق بها ومداعبتها، وبغريزة المرأة التي لا تُخيب، عرفتْ أنه يرغب فيها، وعرفت أنها تريد ذلك ولأي مدى، إنها لن ترفضه، إذا طلبها للزواج، فهو شاب ونشط ومسؤول والأهم أنه كان دائمًا ما يحترمها، فهي ترغب في أن يكون لها أطفالٌ وبيت ورجل، وفوق ذلك كله، لها رغباتها التي يجب أن تُشبَعْ، لذا لم تدفعه عنها ولم تستمله إليها، تركته يقوم بالدور كاملًا، وهي طريقة

تجيد النساء تمريرها للرجل الغبي المتعجل العاشق الأعمى، وهي صفات لحسن الحظ، يشترك فيها الرجال كلهم. «قلت لنفسي يا بِتْ خلي المسألة على الله». وبلع المسكين الطُعم، أطلق المبادرة تلو المبادرة، إلى أن نفدتْ حِيله الصغيرة المسكينة، التي أجادت الصافيةُ ادعاء تجاهلها. قال لي، والدُّنيا ليل ولكن القمر أبيض في السما وكل شيء واضح:

- يا الصافية أرحكي معاي للحفيرة نَوَنُسُو(نحكي)، أنا ما قادر أنوم شايفة القمرة بيضا كيف؟

تثاءب صديقي، شَرِبَ كَوبًا من الماء كان على الترابيزة جنبه، قفز على تفاصيل كثيرة كثيرة، تحدث عما رآه فقط مهمًا، قال: إنها أصرّت على أن تحكي تفاصيل تفاصيل ما حدث بينها وود فور، ربما يكون هو الشخص الوحيد في الدنيا الذي يفهمها، إنها لم تحكها لأي كان من قبل، ما من أحد طلب منها ذلك، اكتفى الجميع بالإشاعة، قالت له بألم: أنا تعبت، تعبت من الحكاية دي، عليك الله اسمعها كلها وما تزهج. وغرقت في التفاصيل، التفاصيل، التفاصيل. أكدنا له، أنا ومختار علي، أنه ليس مطالبًا بأن يختصر، فالليل طويل ونحن ليس لدينا ما نفعله بما يتبقى منه: خُذْ راحتك. قال قالت له: مشينا الحفير، طلعنا فوق الدُولَة. كان ذلك المكان هو الوحيد الذي لم ينمُ به عُشب الخريف، هي تخاف من الثعابين حصرًا، ولا تخاف شيئًا آخر، طمأنها بأنه يمتلك ضَامِنْ عَشَرةْ مُجرب، وأراها له مربوطًا بصورة محكمة على ذراعه اليُسرى، سويًا مع سِكينته، فرشا برشًا صغيرًا أتيا به، قالت لي فجأة، وقد علا شهيقها وزفيرها:

- قام جاري؟

قال لها مندهشًا: منو؟

قالت وهي تُمسك بيده بشفقة: ود فور، قام جاري مني.

- ليه؟

سأل محتجًا.

قالت بصوت عميق مخنوق بعبرة مُرّة: جرى مني أنا، جرى ود فور.

ثم هدأت قليلًا وهي تقول: كنتَ عايزاه، وبدأنا كل شيء. في الحقيقة كنتُ في حالة قريبة من الغيبوبة، ولكنه قام جاري، فجأة جرى زي المجنون.

أحسستُ أنها لا تستطيع أن تشرح أكثر من ذلك، من الأحسن ألا أطالبها أو أجبرها على الحكي، أحسست بالشفقة تجاهها، قررت في الحال أن أضاجعها، وذلك لما توصلت إليه من تحليل، متعجل بعض الشيء، وسريع لحالتها وهو أنها تفتقد الرجل في حياتها، الذين يحيطون بها لم يعرفوا المرأة فيها، ما عدا ود فور، ولم ينتبهوا إلى الإنسانة البائسة ولا يفهمون شيئًا عن حاجاتها الصغيرة الحقيقية. باختصار كانوا يعاملونها كرجل في ثوب امرأة لا أكثر.

صُدِمتُ لاكتشاف الحقيقة، أو ما أسميته بالحقيقة الأولى. وهي أن رائحة جَسَدَهَا لا تُطاق، وقالت صراحة في ذلك: معليش، ما كان عندي وقت لنفسي. وقامت لأجلي بمسح جسدها بالماء، مُستخدمة مُلاءة قديمة من مُلاءات الأم أدّي، كانت لا ترتدي شَيئًا تَحتْ فستانها، وهذه فضيلة، لأنني لا أُطِيقُ رؤية ملابس المرأة الداخلية متسخة أو ممزقة، ولديّ فُوبيا سِرية منْ ذلك، ففور رؤيتي ما ذكرت، أصاب بالعجز الجنسي التام، كانت تحتفظ بِعطر الخُمرة في القُوقُو، لم تستخدمه من قبل. قالت إنها اشترته من دلالية متجولة قبل عام، وأخذت تدلك أطرافها به، عطر قوي جدًا، كان تافهًا، لم يَرقُ لي إطلاقًا، الأمر لا يحتاج إلى كل هذا المجهود من جانبها لأن الفكرة بسيطة، كما شرحتها

لنفسي: سوف أحاول الجسد إلى أن يستجيب وتصل ذروة نشوتها ثم ينتهي كل شيء. لا أكثر ولا أقل. الأمر في الحقيقة أقرب لمقاولة، وهذا في ظني ما تحتاج إليه الصافية، وأحتاج إليه أنا لأقنع نفسي بأنني قدمت لها عملًا خيرًا وإنسانيًا كبيرًا؛ بل ونادرًا، فعلًا حُرمتْ منه طوال حياتها، وأتمنى أن أكون مخطئًا في هذه الفذلكة، اقترحَتْ هي اقتراحًا آخر، وهو أن أتركها تستحم استحمامًا كاملًا، وقُوبِل هذا الاقتراحُ أيضًا من قبلي بالرفض، الموضوع لا يستحق كل هذا التعب. قَامَتْ، أغلقتْ الباب بصورة جيدة، ربما خافتْ أن يقتحمنا أحد الزبائن، أو يتلصص علينا ود أمونة. أو قل ربما أنها خَشيتْ أن يهرب منها كما هرب ود فور من قبل، ولو أنه رفض فكرة قفل الباب، ولكن يبدو أن ذلك حدث بعد فوات الأوان. اقترحتْ هي أيضًا اقتراحًا آخر، وهو أن تبقي الإضاءة كما هي، وافق. ثم طرحتْ عليّ بسرعة مجموعة من الإجراءات لم يكن هناك داعٍ لطرحها في ذلك الوقت بالذات، كل ما أرجوه أن ينتهي هذا الموضوع وبأسرع ما يمكن. المفاجأة الأخيرة، التي لولا قُوة عودي وعزيمتي وصبري على المكروه لكانت القاتلة. قال إنه ليس بالسهل أن يصف لنا ما شاهد، بدا ذلك واضحًا من الطريقة التي أخذ يتحدث بها. لا يمكن لشخص مثلي أن يتخيل ذلك مجرد تخيل، بل لا يمكن أن يخطر ببال شيطان رجيم، إذا كان للشيطان بال. قالت بصوت حزين:

- مما ولدوني إلى اليوم، ما قطعت شعرة واحدة منه، قالوا حلاقتهُ تجيب النحس وسوء الحظ، وبرضو ما لقيت وقت، وقتي كلهُ للشُغُل، بعد دا، ح أخلي بالي من نفسي شُوية.

قلت لنفسي: الموضوع ما بيستحق، خلينا نخلص.

كنت مصممًا على أن أجعلها تدخل تجربة جديدة مثيرة في حياتها، تجربة لا تُنسى، بما يساوي نقطة تحول، قالت:

- قاعدة أنظفُهُ وأسرحو بالمشط كل يوم جمعة.

حـكى لنـا بالتفصيـل المُمِـل، في الحقيقـة ليـس مُمِـلًا، بـل مؤذيًـا وضـارًا جـدًا، ثـم أقسـم وأقسـم وقـال:

- الصافية انقلبتْ مَرَفَعِين.

قلنا بصوت واحد كما لو كنا ممثلين في دراما تلفزيونية : مرفعين؟

- مرفعين عديل كدا؟

اللحظـة التـي وضـع يـده عـلى عُـري جَسَـدها وبـدأ يداعبهـا في أذنيهـا وأنفهـا الكبـير، بـدأ الصـوف ينمـو في جسـدها، صُـوف أسـود غليـظ خشـن وقبيـح، تمامًـا مثـل صُـوف الحِـمار، كان ينمـو بصـورة مذهلـة، بِسرعـة رهيبـة، ثـم أخـذتْ ملامـحُ وجههـا تتغـير، بـرزت أنيَابُهـا، ثـم أخـذتْ تُصـدر صوتًـا غليظًـا، ثـم انقضـتْ عـليّ، كـما لـو كانـت أسـدًا ضاريًـا، وأنـا فريسـةٌ بائسـةٌ جريحـة، حـدث كل ذلـك في ثـوانٍ معـدودات. لا أدري كيـف تمكنـتُ مـن الهـرب، عـبر البـاب المغلـق، أم عـبر الشُـبّاكْ الصغـير، أو أننـي قـد اخترقـت السـياج اختراقًـا، لا أدري ولكننـي وجـدت نفـسي خـارج القُطِيّـةَ، خـارج بيـت أدّي، خـارج الحِلـة كلهـا، حـدث ذلـك في لمـح البـصر. خلـع جُلبابـه وأراهـما خُدوشًـا في ظهـره وإليتيـه، ضحكنـا.

أُغنية الفِرّو، تَيرابُ البِنَيِّة، بُوشَاي، وأَشْيَاء أُخْرى

ذات صباحٍ باكر، أرسلت لي ألم قِشي ود أمونة برسالة شفهية، فهمت منها أنها تريد مقابلتي في بيت أدّي: الآن. المسافة ما بين بيت أدّي ومنزل مختار علي حيث أقيم وصاحبي، قريبة جدًا وبعيدة جدًا، يتوقف الأمر حسب العلاقات الاجتماعية مع الجيران والوقت: ليلًا أم نهارًا، حيث يمكن استغلال ما يسمونه بباب الجيران لاختصار مسافة كيلومتر من الهرولة عبر الأزقة والطرق الجانبية، إلى ما لا يتعدى العشرين مترًا، وشخص مثلي غالبًا ما تكون علاقته جيدة مع الجيران، لذا دخلت منزل أول جارة وهي سُعاد، تبادلت التحايا وزوجها، ثم عبرت عرض المنزل إلى بيت الداية بِتْ البُرون، وهي امرأة عجوز طيبة بوجهها شُلوخٌ عريضة وابتسامة دائمة، ليس لها زوج، ليس لها أطفال، بنت أختها التي تقيم معها، كانت نائمة في تلك اللحظة؛ تبادلنا التحايا، وعبر باب الشارع كان عليّ أن أعبر منزل الدينكاوية الحسناء أداليا دانيال ولم تكن بالمنزل، عَبَرتُ بيتها، لأجد نفسي وجهًا لوجه مع باب مُجمّع أدّي السكني. وجدتُ ود أمونة قد سَبَقَنِي لبيت أدّي وكي لا أموت دهشة، قال لي إنه ركب موتر مع الحاج البوليس الذي وجده مصادفة يمر بطريق منزل مختار علي، وذلك بعد أن أخبرني برسالة ألم قِشي مباشرة. أومأت برأسي أن فهمت، بادرتني ألم قِشي معاتبة:

- إنت ما سألت مني تاني؟ دا أسبوع كامل.

أضاف ود أمونة، بأسلوبه الخاص:

- وحات ربي، ألم قِشي مما نامت مَعاك، تاني رجلها دي ما رفعتها لزول.

قالت ألم قِشي بصورة مباغتة وهي تنظر في أم عيني:

- أنا ما عجبتك ولا شنو؟

أضاف ود أمونة:

- في زول ما بتعجبوا ألم قِشي؟

قالت ألم قِشي بغنج وهي تحرك صدرها بما يشبه الرقص:

- مـزاج نـاس المُـدن صعـب يـا ود أمونـة، ديـل متعوديـن عـلى البَنـات الفـي التلفزيـون يمكـن. أضـاف ود أمونـة مخاطبًـا ألم قِـشي برقّـة خبيثـة فاجـرة:

- إنتِ مَا إدخّنتِ ليهُ ولا شُنُو؟

ادعـت ألم قِـشي الخجـل، أمـا أنـا فكنـت محرجًـا مـن كل شيء، مـع وعيـي التـام بالـشرك الـذي أُصْطَـادُ بِـه، قُلـتْ:

- العفو، العفو، ألم قِشي جميلة.. ونظيفة.. كل في الكل.

أضاف ود أمونة:

- أنـا ح أدخِنهـا ليـك الليلـة وأدلِكهـا وأبقيهـا ليـك عـروس عديـل كـدا، قـصرت معـاك؟

قلت له مجاملًا:

- إنت ما بتقصر، ولو إنها كدا كويسة معاي.

قالت ألم قِشي:

- كويـس، عايـزاك في موضـوع تـاني، موضـوع الشُـغُل مـع نـاس شركـة الاتصـالات.

- يعني خلاص وافقتِ على الشُغُل؟

قالت دون مبالاة وهي تهزُّ صدرها بتلك الصورة المُدهشة: قلت أجرِّب، يمكن ربنا كاتب لي رزق في مكان تاني.

تعرف ألم قِشي أن العلاقة بيني وبين موظفي شركة الاتصالات الوافدة حديثًا للمنطقة هي عبر صديقي، فهو تربطه علاقة شخصية بالمدير، وقد طرح عليّ فكرة أن تعمل ألم قِشي طبّاخة في مَيس الشركة، إذْ إن الموظفين لم يحضروا زوجاتهم بعد، في انتظار اكتمال البرج والتوصيلات الأرضية، وإحضار الأجهزة الإلكترونية وغيرها من الأشياء التي تؤكد استقرار العمل، قلت لها:

- كويس، ح أكلمهُ أقول ليه ألم قِشي وافقت.

طلبا مني أن أشرب معهما قهوة الصباح، إلا أنني تعللت بارتباطي بمختار علي وصديقي في البيت، وأننا سوف نذهب معًا كما اعتدنا أن نفعل في الأيام الأخيرة إلى العجوز؛ حيث نحتسي عندها القهوة. وأنا أخرج من المنزل، سألني ود أمونة إذا ما كنت سأحضر في المساء، أكدت له ذلك، فغمز لي بعينه اليسرى بما يعني ما يعني. ابتسمتُ، أومأت برأسي مباركًا مساعيه وشاكرًا.

يبدأ صباحي كالعادة بكسل يتسم به العاطلون عن العمل ولديهم مصدر رزق يحول دونهم والموت جوعًا، وليست عليهم مسؤوليات أسرية، عبارة عن مَطَالِيقْ مثلي يبحثون عن متعة المشاهدة لا أكثر، لدينا زبونة واحدة فقط نشرب عندها قهوة الصباح، شَمطاء، تستغل راكوبة بيتها لتقدم الشاي والقهوة للعابرين من الجنقو والعمال الآخرين، بيتها في أقصى الشرق على طريق همدائيت، حيث يعمل عدد من العمال على تأسيس طلمبة الوقود، ذهبت إليها وحدي إذْ إن صديقي فضل دُخُولْ الحِلة، أما مختار علي فلبى دعوة جارة حبشية كريمة طلبت منه أن يشرب معهما هي وزوجها قهوة الصباح، وكما هو معروف لا يَرفض عيّنة هذه الدعوة إلا شخصٌ أهبل، فالناس

يؤمنـون هنـا أن لا أحـد يصنـع القهـوة بمهـارة تفـوق الحبشـيات، أعـدت لي العجـوز قهـوة وعليهـا كميـة أكـبر مـن الزنجبيـل، وهـي علامـة أننـي مـن مدينـة كسـلا، بينـما أنـا مـن مدينـة القضـارف. مـرّ أمامنـا شرطيـان، يتبعهـما شـيخ الحِلـة وبعـض أعضـاء اللجنـة الشـعبية، رمـوا علينـا السـلام ومضـوا في عجلـة نحـو الطلمبـة. قالـت لي العجـوز: - إمبارح(بالأمـس) واحـد مـن عـمال الطرمبـة ديـل طعنـوه.

- طعنه منو؟

قالت وهي تحرك جَمرّة صغيرة بملعقة السكر:

- أولاد مـن المعسـكر.. معسـكر اللاجئـين القريـب دا، كانـوا بيلعبـوا القُـمار مـع بعـض واختلفـوا، كلهـم كانـوا سـكرانين لَـطْ.

قلت لها:

- إن شاء الله ما اتعوق شديد؟

قالت بحسرة:

- مـات قبـل شُـوية في مستشـفى الشـجراب، شـالوه بلـوري عثـمان عيـسى لخشـم القربـة لكنُـهُ مـات في السـكة.

ثم أضافت:

- إنت ذاتك بتعرفُهُ.

وأخـذت تصفـه لي، ولكننـي، وهـي عـادة سـيئة عنـدي، عندمـا يمـوت شـخص أعرفـه معرفـة غـير عميقـة، أقصـد معرفـة عابـرة فإننـي أنـسى ملامحـه، بـل قـد لا أتذكـر أننـي قابلتـه مـن قبـل. الأمـر الـذي يكـون سـهلًا إذا مـا زال عـلى قيـد الحيـاة، لا أعـرف مـاذا وراء ذلـك.

- هو واحد من زباني، إنت شفتو هنا في راكوبتي ذاتها.

قلت:

- الود البرناوي؟

قالت ضاحكة:

- يشبه البرنو، لكنه مُوّلد.

وشرحت لي أن تسعة وتسعين في المئة من سُكان الحِلة ليست لهم أجناس. ليست لهم قبائل، كلهم مُولدون، أمهاتهم حبشيات بازاريات، بني عامر، حماسينيات، بلالاويات، أو أي جنس، وآباؤهم في الغالب إما غرابة: مساليت، بِلالة، زغاوة، فُور، فلاتة، تاما، أو حُمران وشكرية أو شلك ونوبة ونوير، وفي قِلة من الشَوايقة والجعليين، وكضاب الزول البقول عندو قبيلة هنا، ولا جنس ولا خشم بيت، قلت لها متحديًا:

- كويس أداليا دانيال؟

قالت: أداليا دانيال أمها دينكاوية، أبوها أشولي وراجلها لكويا.

قلت: إنتِ؟

قالت: أنا أمي بازاوية، وأبوي أمو حبشية وأبوه مسلاتي وولدي متزوج من الحُباب من أسرة الكنتباي ذاتها، وأنت عارف الحُباب ديل ناس سَمحين، وكل الأجناس القلتها ليك دي هي مجرد أسماء ولكن في الحقيقة انمحوا في بعض، بس الواحد فيهم بيتمسك بقبيلة الأب، وطبعًا دا كلام ساي، الدم كلهُ من الأم، والروح من الأم، والأبو دا عنده شُنو غير المُوية؟ ثم أخذت تعدد لي الأشخاص وكيف خُلِطوا، وختمت حديثها بما يعتبر من المسلمات: أهلنا ديل يموتوا في الحبشيات. وحكت لي قصة الحاج الذي ألهاه الشيطان عن اللّحَاق بركب الحج، حيث تمثل له في شكل فرج أنثى على فرع من شجرة لالوب شائكة استظل تحتها بمصوع، في طريقه إلى مكة، حيث أخذ الحاج يرمي العُضو بالحجارة لكي يسقط في الأرض؛ يهتز العضو، ويكاد يَسَقُطْ

ولكنه يبقى في مكانه، وهكذا ظَلّ الحاج يرمي الحجارة إلى انتهى موسم الحج ولم يُحْظَ بالعضو الجَيّدْ، ولم يُحْظَ بالحج.

قلت لها: الصافية دي شنو؟

- جدها مسلاتي، أمها من الأمهرا من جهة الأم، فوراوية من جهة الأب، وبيتهم فيهُ البازاوي والحبابوي والقمراوي والإنقريابي، والرباطابي وحتى الحلفاوي والمحسي والدنقلاوي.

قلت لها: كويس الجِنِسْ البينقلب مرفعين دا شنو؟

قالت بطمأنينة العالم العارف:

- الحكاية كُلها في اللبن.

صبّت لي فنجانًا آخر من القهوة وهي تكمل حديثها: الحكاية كُلها في اللبن، من جهة الأم، وخلط اللبن باللبن ما كُويس، الواحدة تخلي أطفالها يرضعوا هنا وهناك، وهي لافة من بيت لبيت وما عارفة الناس، فيهم تيراب البِنية البعاتي، وفيهم البنقلب غُراب، وفيهم البنقلب أسد أو مرفعين أو برطّا برطّا، وفيهم البياكل الناس عديل كِدا، وفيهم السَحّار، والبلد ملانة بالجن، تلقاهم في شَكل نُسوان ورجال وحمير وكَدَايِسْ وشَجَرْ، وربنا يكون في العُون. وحتى البُومة دي لو لقت طفل وحدهُ بِتْرَضِعُهُ، وربنا يكرم السامعين. دا هو تيراب السَحَارين. اللهم احفظنا واحفظ المسلمين، آمين يا رب العالمين.

قلت لها: أسرة الصافية هي أول أسرة في البلد هنا، مُشْ كِدا؟

قالت وقد بدا عليها الارتباك قليلا:

- منو القال ليك أسرة الصافية، الصافية السكرانة دي ربيناها نحنا في أسرتنا تربية، أمها ولدتها ورمتها لينا هنا وفاتت، ما في زول يعلم وين، وأنا السميتها الصافية على جدتي، الأسرة الكانت هنا، هي أسرتي أنا. ثم حكتَ لي الحكاية الحقيقية وما عداها اعتبرته تشويهًا دافعه

سوء النِيّة والجهل والحَسَدْ. عندما جاء أهلها إلى هذا المكان، لم يكن به سُوى الثعالب، المرافعين القرود، الحَلُوفْ، أبو القدح، الأرانب والصقور والحُبار، وأحيانًا يرى الناس بعض النُمور، كانت هناك غابات كثيفة من شجر الكتر واللالوب والهشاب وبعض السَيّال، وعند الخيران وبرك المياه تنمو أشجار السُنُطْ، أما في الكَرَب وعلى شاطئ النهر فالعرديب والتبلدي، ولكن البلد مشهور بالجن وأبي لمبة، منذ أن تغرب الشمس يخرج أبو لمبة. كانت أسرتها في طريقها إلى مدينة القضارف بعد أداء شعيرة الحج، حيث إنهم قدموا عن طريق اليمن، باب المندب، مصوع، الحبشة ثم إلى هنا، وقد داهمهم الخريف في هذا المكان، فأقاموا وبنوا أول منزل، قطع جدها وأبناؤه الأشجار، نظفوا الأرض وزرعوا محصول الذرة والدخن والسمسم، قالت: دا قبل أكثر من مية، مية وخمسين سنة. حكت لها بذلك جدتها عن جدتها عن جدتها، قالت جدنا الأكبر اسمو عبد الرازق وله توءم اسمو عبد الرزّاق، حبوبتي قالت، حبوبتها قالت ليها: كانا يعملان في تجارة الحطب والمحاصيل الزراعية التي ينتجانها، حيث يقومان ببيعها إلى الحبش في الحُمرة وبحر دار وحتى نواحي قُندر، قد يسافران لأيام تطول، بينما يبقى أبواهما في المنزل مع أختهما الصغيرة وهي التي تسمى الصافية. حكت لها جدة عن جدة عن الصافية، كان عُمرها لا يتجاوز السنوات العشر، في ذلك الوقت ولكنها تتذكر إلى الآن اللحظة التي جاء فيها أخوها عبد الرازق التوم على رأسه طُوق من الحديد، مربوط بشكل محكم، عيناه محمرتان وبارزتان إلى الخارج ولسانه خارج فمه مثل لسان الكلب، ورغم ذلك كان صامتًا، فقط يصدر صوتًا من صدره مثل نداء البوم، فهب إليه أبوها وأمها وأخوها عبد الرزّاق، الذي خرج من السجن قبل يومين فقط، تذكر إلى الآن جملة واحدة وهي: أنا ممكون بالفرو. وكان جسده كله يتصبب عرقًا، أخذ أبي يقرأ على رأسه آيات من القرآن ولكن عبد الرازق قال له:

- المُبرد، المُبرد يا حاج.

وفعلًا أتى أخي عبد الرزّاق بالمبرد وقاما بقطع الفرو، وكانت لحظة عجيبة جدًا، كلنا أحسسنا بالراحة.وكأنما هو وُلِدَ من جديد في تلك اللحظة، ولم يهتم أحد من الأسرة إطلاقًا بالهواء العظيم الذي اندفع من دُبر أخيها عبد الرازق، في شكل دوي هائلٍ مدهشًا سكون هواء الخريف الثقيل، ناثرًا عُفُونة إسهال حبيس بئيس. ثم استفرغ، ثم نام. أيقظه أبوه في منتصف الليل، حيث أُطعم، ثم نام مرة أخرى تاركًا الأسرة كلها قابعة قرب رأسه ينظرون إليه مندهشين، وكان عبد الرزّاق بين حين وآخر يردد:

- أنا السبب، دا كله عشاني أنا.

لكن أمه كانت تخفف عنه بالقول: في النهاية أخوك. تكررها في قلق. قالت لي العجوز وهي تحكي باستمتاع وقد نسينا فنجانًا من القهوة يقبع في صمت فتساقط عليه الذباب: كان المساجين في الحبشة وإلى وقت قريب، لا يطعمهم السجن، يربطونهم ليشحدوا في السوق والانداياات، وأثناء ما كان عبد الرازق يتناول طعامًا في سُوقِ الحُمرة مع أصحابه التجار، إذا به يرى توءمه عبد الرزّاق مربوطًا ضمن عددٍ من المسجونين يسأل الناس طعامًا، كاد يقف قلب عبد الرازق من المفاجأة: تومي عبد الرزّاق؟ أطعمه وأعطاه مالًا وقال له بلغة المساليت إنه سوف يأتي إليه يوم الجمعة في السجن، الجمعة التي بعد جمعتين كاملتين، يرتدي نفس الملابس التي يرتديها توءمه الآن، نفس الحذاء ونفس الطاقية، وسوف يطلب مقابلته وهنالك في السجن يتبادلان المواقع، وأضاف: أنا بعرف بتعامل مع الجماعة ديل كويس، أنا بعرف ليهم، أنا عشت مع الشِفته والفالول سنة كاملة. وبالفعل تبادلا المواقع في التاريخ المتفق عليه، ولكن في اليوم الثالث بلغ عنه المساجين الذين اكتشفوا الخدعة منذ اليوم الأول، بالرغم من أن عبد

الـرازق عبـارة عـن نُسـخة أخـرى مـن عبـد الـرزّاق، كأنمـا الأول صـورة للآخـر في المـرآة، ولكـن طبيعـة عبـد الـرازق تختلـف بصـورة جوهريـة عـن توءمـه، حيـث إن عبـد الـرازق كان يميـل لنـوع مـن الحيـاة لا يحبذهـا أخـوه، حيـث إنـه كثـيرًا مـا يختفـي لشـهور كثـيرة باحثًـا عـن المغامـرة والمتعـة، الخمـرة والنسـاء، مـع قُطّـاعْ الطُـرق الأحبـاش في أحـراش إثيوبيـا، كان ملـولًا، سريـع الغضـب وعنيفًـا ويتعاطـى كل مـا حـرم اللـه، ولم يصـل أو يصـم إلاّ في صغـره، عكـس عبـد الـرزّاق تمامًـا، حيـث كان طيبًـا مسـالمًا، ولـو أنـه مـا كان ميـالًا للعبـادة إلا أنـه كان لا يتعاطـى المُسْـكِرات ولا حتـى الصعـوط والسـجائر.

- قـدر مـا قلـت أقلـد أخـوي عبـد الـرزّاق؛ مـا قِـدرت خالـص خالـص، مـا قـدرت، فالطبيعـة جبـل كـما يقـول النـاس.

وأخـبر عنـه المسـجونون إدارة السـجن علهـم يجـدون وضعًـا مميـزًا أو عـلى الأقـل يتجنبـون المسـاءلة إذا اكتشـف أمـره السـجّانون، بأنفسـهم. فقامـت إدارة السـجن بضربـه ضربًـا مُبَرِّحًـا، ثـم خـيروه بـين الخـازوق أو الفـرو، وكلاهـما يعنـي المـوت ببـطء وألم شـديد، فاختـار الفـرو، فَرُبِـطَ في رأسـه بأقـصى درجـة ممكنـة وقالـوا لـه:

- لـو مـا جبـت أخـوك خـلال نصـف سـاعة، ح تمـوت، ومفتـاح الفـرو عندنـا هنـا في السـجن يلـلا (قَلْتِـفْ) ، وتعنـي بلغـة التجرنـة التـي يعرفهـا جيـدا: أسرع.

في الثـواني الأولى مـن ربـط الفـرو، تمنـى لـو أنـه وجـد أخـاه ليسـلمه للسـجانين حتـى يفكـوا مـن رأسـه الفـرو، ثـم أخـذ بالفعـل يبحـث عنـه دون تركيـز، دون خطـة، دون أمـل، كان يـصرخ في الطُرقـات وهـو يجـري في كل اتجـاه باحثًـا عـن لا شيء، كان يهتـف باسـمه، لقـد أُصِيـب بهلـع شـديد وحالـة مـن التشـتت، ولكنـه كان يمـضي بعيـدًا عـن السـجن عـلى أي حـال. كانـوا متأكديـن مـن أنـه سـيعود، حتـمًا سـيعود أو يمـوت، ويعرفـون أنـه

لـن يمـوت بعيـدًا عـن السـجن، يهمهـم في الأمـر الفِـرو الـذي لا بـد مـن إعادتـه للسـجن، جثتـه سـوف يرمـون بهـا في البـئر المهجـورة عنـد سـفح الجبـل.

- بعـد لحظـات بقيـت أوعـى، حسـيت بنفـسي، وتذكـرت كيـف الفالول يتعاملـون مـع الفـرو. ادعـى أن الـذي يلتـف حـول رأسـه ليـس هـو الفـرو آلـة الحديـد القاسـية المميتـة؛ ولكـن ثعبـان، ثعبـان قـد يقتلـه بلدغـة واحـدة؛ وقـد يتركـه في حالـه إذا تعامـل معـه برفـق وكلمـه بالحسـنى وأقنعـه بالمنطـق، ولأنـه يريـد أن يحيـا ولا يرغـب في المـوت ملدوغًـا مـن ثُعبـان سـام، عليـه بسياسـة النَفـس الطويـل، طولـة البـال، وأن يربـط مهمـة أن يخـرج مـن الحـدود الحبشـية بترضيـة الثعبـان، وأخـذ يتلـو نشـيدًا طويـلًا بالتجرنـة، كان نشـيدًا طويـلًا يتكـون مـن كلـمات بسـيطة قليلـة:

«لا أموت

لا أموتلا أموت لا أموتلا أموت

لا أموتلا أموت لا

أموت سوف أحيا سوف أحيا سوف أحيا».

ويسـتمر النشـيد في كلمتـين هـما سـوف أحيا، ولـن ينتهـي إلى أن يطلق الثعبـان رأسـه. واتجـه نحـو الحـدود السـودانية، مهـرولًا منشـدًا في اتجـاه الغـرب؛ متجنبًـا طـرق المشـاة، السـيارات، الحمّاريـن، كل السـكك المطروقـة إلى همدائييـت. اتجـه جنوبًـا، قليـلًا جنوبًـا، عـبر غابـة الطلـح الصغـيرة الواقعـة عـلى أرض حجريـة صَلْـدة حمـراء، بهـا خـوران وعـران وبعـض شـجيرات الكـتر الشـوكية، تنبـت مـا بـين هنـا وهنـاك، يعـرف هـذا المـكان جيـدًا، اشـترى منـه قبـل عامـين مائـة قنطـار مـن الصمـغ العـربي، مقابـل عـشر جـوالات مـن السمسـم الأحمـر النـادر مـن برهـاني كِـداني الحبـشي

الممسوخ كما يحب أن يسميه، وهو أحد أكبر الفَالول في نواحي خور الحمرة وغابة زهانة الأكثر وعورة ورهبة، اشترى منه الصمغ على علمه التام أنه لا يمتلك ولا رطلًا واحدًا منه ولا يفهم في طَقْ الصمغ ولا لقيطه، وللمبالغة يقولون عنه إنه لا يفرق بين الطَلحة والكِترة، لكن ليس بإمكان المزارعين الفقراء البائسين أن يبيعوا صمغهم إلا من خلاله هو فقط، وبالسعر الذي يضعه، وكان غالبًا لا يظلمهم ودائمًا ما يحميهم من قُطاع الطُرق واللصوص الآخرين، إذا التقى به هنا سوف يساعده دون شك في التخلص من الفرو. تبدو الشمس أمامه كبيرة حمراء مثل الدم تغيب الآن، يمضي نحوها، يعرف أنهم أطلقوه في هذا الوقت بالذات ليصعبوا أمامه خيارات النجاة، حيث إن الليل هنا عدو اللصوص أيضًا، في ذلك المغرب التقى فالول وشياطين، فروا منه. وقبل أن يكتمل الغروب استطاعت ساقه أن تسلمه إلى البيت.

عاد الشَرَطِيان، توقفا قليلًا عند العجوز، سألاها عن فتى باسمه ولقبه واسم أمه مصحوبًا بكلمة الشَرمُوطَة نِكايةً وغضبًا عليه، قالت لهما:

- مشى زهانة، معزوم مع أصحابه كلهم عيد القديس يُوهَنِس.

حوارٌ مَوضُوعيٌ وَكَرَميلا

أكـدّ لي أنّ مـشروع الصافيـة بالنسـبة إليـه لم ينتـهِ بعـد، وأنـه قـرر أن يخـوض المعركـة إلى آخـر طلقـة، ولم يكـن تصريحـه هـذا غريبًـا، فأنـا أعرفـه فيـما يزيـد عـلى الثلاثـين عامًـا مـن الصُحبـة؛ القـراءة المشـتركة، السـفر، الفشـل، الإحبـاط، النجاحـات الكبـيرة، العمـل والعطالـة. سـيكون تصريحـه غريبًـا إذا قـال لي إنـه تنـازل عـما سـمّاه بمـشروع الصافيـة أو خـاف. قـال بثقـة كبـيرة:

-أنـا بحلـل وضـع الصافيـة بالطريقـة دي: امـرأة عندمـا تُثـار جِنسـيًا، ينمـو الصـوف في جسـمها كلـه، تطـول أظافرهـا، وأذناهـا، تتحـول ملامـح وجههـا إلى مـا يُشـبه ذئبـا كبـيرا، أسـدا أو حتـى قـردا، فتهاجـم العشـيق، فيهـرب، وهـي نفسـها لا تكـون واعيـة بحقيقـة مـا يجـري لهـا. ثـم طـرح سـؤالًا: الـزول لـو انتظـر للنهايـة ح يحصـل ليـهُ شـنو؟ دعونـا نفكـر في هـذا الموضـوع بجديـة، دعونـا نفكـر كيـف نتعامـل معهـا، يجـب ألاّ نتركهـا هكـذا تعـاني وحدهـا هـذه الأزمـة الإنسـانية الفريـدة، نحـن شُركاء عـلى الأقـل في الإنسـانية. نحـن بـشر، يعنـي، هنالـك مسـألة تخـص الفـرد، تخـص الجميـع، ومـا يخـص الجميـع يخـص الفـرد، مسـألة مصـير واحـد، مـآل واحـد، ثقـب واحـد يجـب أن نعـبر بـه جميعًـا نحـو الحيـاة، أن يعـثر أحدنـا فيـه، يعنـي ألاّ يمـر الآخـرون. وأخـذ يهـذي بـكلام أعـرف أنـه يجيـده والأسـوأ أنـه يؤمـن بـه والأسـوأ أكـثر أنـه سـيفعله. قدمـت لـه نصيحـة لا تفيـده، وقـد تكـون طـوق نجـاة لغـيره:

- أتمنى أنك ما ترمي بنفسك في التهلكة.

قال بقلق:

- تقصد ما أتطفل.

قلت ضاحكًا:

- أيوه. قال: وجودنا هنا في (الحِلة) مُش نوع من التطفل؟! عندنا هنا شنو، غير ناس مطرودين من وزارة الصحة للصالح العام، كل يوم متطفلين على بلد من بلاد الله، وناس من ناس الله؟

فهمت أنه يعني فيما يعني أننا طالما تطفلنا على المكان، فنحن أيضًا تطفلنا على الإنسان، والأمر سيّان. كان دائمًا ما يكرر القول إنه يجب أن يَتَرُك أثرًا واضحًا، أينما يذهب، وأن يُدْهِشْ، وهذا الأثر وهذه الدهشة، لا يتأتيان ما لم يفعل ما لا يستطيع فعله غيره وهم العامة والخاصة معًا، ويختصر ذلك بالقول: اركب الصعب. أينما حللنا، كان يبحث عن الصعب والصعب فقط، يبحث عن الغرباء في الناس، في المجتمع، في المكان في كل شيء، كان يتصيد السؤال ولا يخشى التهلكة، بل يرمي فيها نفسه رميًا. قلت له: إلم قِشي وافقت على العمل في ميس الشركة.

أكلنا طعامًا طبخه هو ومختار علي من اللوبيا البيضاء والفرندو بالشرموط، اشترينا إنجيرا من بيت الأم، كان مختار علي دائمًا ما يحتفظ بمخزون من الدليخ في قُطيته. حضرت ألم قِشي، وصنعت لنا القهوة بالزنجبيل والهبهان، ذهبنا الثلاثة إلى مقر الشركة جوار زريبة المحاصيل، حيث وجدنا العمال مجتهدين في بناء المؤسسة، لكننا استطعنا أن نلتقي المدير، وكان رجلًا قصيرًا نحيفًا مبتسمًا قليل الكلام مرحابًا مضيافًا أنيقًا،

شكرنا مدير الشركة كثيرًا، اعتبر قدومنا بألم قِشي كي تعمل معهم في الميس، في هذا الوقت بالذات، عملًا إنسانيًا كبيرًا، بركة من الله ومساهمة في نجاح الشركة، في الحقيقة نحن نحتاج لامرأة نثق بها.اضاف:

-لولا وجودكم أنتم في الحلة، ما عارف كان نحنا نعمل شنو.

ولكني أحسست بمسحة غبشاء من الإحباط تعتري وجهه وهو يرحب بألم قِشي ويكيل لنا ولها الشكر.

قالت ألم قِشي فيما بعد:

-كانوا عايزين بت صغيرة في العمر، على الأقل أجمل وأخف مني. أضافت: ح يقتنعوا إنُهُ أنا أجمل مرا في الدنيا.

قلت لصديقي:

- ربما كان صاحبك عايز ملكة جمال في مكان في طرف الدنيا تحيط به الغابات والخيران الموسمية ومن سكانه الأصليين القرود، هذا المكان البعيد، الأرض المهمشة النشأت أصلًا من المطاريد.

تركنا ألم قِشي هناك ترتب أمر وظيفتها الجديدة وعدنا أدراجنا إلى السوق. الساعة تشير إلى منتصف النهار، عُمّال البنك يعملون بجد ونشاط، سيدرك البنك الموسم الزراعي القادم، ويُشاع أن هذا البنك سيغير خارطة الثروة والسُلطة وعلاقات الإنتاج في المنطقة لمصلحة محدودي الدخل، صغار المزارعين والفقراء، وسوف يقدم قروضًا وسلفيات إسلامية غير ربوية لكل منتج ومزارع، وقد اجتهد البعض مفسرين كلمة منتج، بأنه لن ينسى أحدًا ويشمل ذلك فيما يشمل الاندايات الكبيرة، تجار الشنطة وبائعات عرقي البلح والفحامة. وفكر ود أمونة في بَارٍ صَغِيرٍ على شاطئ النهر، كذلك الذي يوجد على الضفة الشرقية من نهر سيتيت بالحُمرة، مطلًا على قرية همدائييت، يرتاده أصحاب المزاج والملاماتية ما بعد منتصف النهار، حيث يعبرون النهر سباحة، بالرغم من أنه يوجد داخل حدود دولة أخرى وهي إثيوبيا لكن ليس لأحدهم جواز أو بطاقة ولا حتى ورقة تحمل اسمه، من جهة أخرى فإن السُلطات الإثيوبية لا تسأل عن شيء، سوف يُنشئ ود أمونة بَارًا يستقطب هؤلاء الفارين إلى الكيف العابرين الأنهار ولن يضطروا إلى المخاطرة بحياتهم غرقًا. ويبدو أن فكرة التمويل لم تكن

إشاعة، ولكن المحاضر الذي أوفده البنك يوم جمعة لا يُنسى قال كل ذلك، أو لم يقله، ولكن المؤكد أنه تحدث باستفاضة عن السَلَم، المرابحة والمشاركة، وأصّل لذلك بآيات وأحاديث وخطب وشهادات فقهاء وفتاوى، وذكر فيما ذكر اسم عالم غامض لم يسمع به أحد في القرية وهو القرضاوي ربما اشتق اسمه من قرض، من يدري؟! لم يفهم العامة الشيء القليل من خطبته العصماء، ولكنهم فهموا المهم والذي يخصهم وهو: أن هناك قروضًا للجميع دون فرز، وحق للجميع، دون ربا، على سُنة الله ورسوله. كل هذا تفوه به الخطيب، ولم يجتهد الناس كثيرًا في التأويل، وعلى بركة ذلك بادرت المحلية بتخصيص قطعة أرض مجانية للبنك كي يُنشأ عليها، وسُمح باستخدام وابور المحلية لنقل الحجارة والرملة السقّاية والطوب الأحمر بسعر رمزي يغطي تكلفة العمالة، وتحصل إداريو البنك المشرفون على إنشائه وقودا وكهرباء وإمدادا مائيا مجانًا ولوجه الله وحده ولأجل خاطر التنمية وابتغاء رفعة البلد، وللحاق بركب هذا العطاء المجاني سعى المقاول الذي يعمل بالتشييد لأن يحصل على عمالة مجانية للبناء من الجيش، طالما يجلس العساكر هنالك في ثكناتهم دون عمل، يلعبون الورق والضالة، ينتظرون حروبًا لن تقع في القريب العاجل، ولكن لسوء حظه أن قائد الحامية في ذلك الوقت كان جنديًا يمتلك رأسًا يُسمى في الخفاء: ناشفًا، لم يسعفه في تفهم التنمية والتطور ودور البنك العظيم المنتظر، او انه كان يفهمة جيدا، فرد إليه طلبه مشفوعًا بتهديد شفاهي: احذروا واحذزوا واحذروا، الجيش دا قايلنوا شركة عَلى الله؟ سِوى هذا الصد الواضح، لم يجد البنك أي صُعوبة في الحصول على أي تسهيل ومباركة، بل إن مُعظم الناس كانوا يحسون بأن لهم واجبًا ما تجاهه ولا يتأخرون في مدّ يد العون متى ما طُلب منهم ذلك. كان البنك بمثّابة مهدي المكان المنتظر. شربنا كركدي عند عزيزة الزغاوية، كان يجلس قربنا اثنان من السماسرة يتحسران

لأجل سعر السمسم المنخفض في هذا الموسم مع أن الإنتاج شحيح، يتعجبان، لأنهما يريان أن انخفاض إنتاجية السمسم يؤدي مباشرة إلى ارتفاع سعره، هذا ما تعلماه من التجربة، الشيء الذي لم يحدث هذه الأيام.

- دا آخر أسبوع لحصاد السمسم، تاني ما تبقى الحِته.

ولكن كان أحدهما متفائلًا بعض الشيء، لأن شركة السمسم حتى الآن لم تدخل السوق لشراء متطلباتها السنوية من السمسم لأجل التصدير: ح يرتفع.. ح يرتفع أكثر من السنة الفاتت. وهنا تدخل صديقي قائلًا:

- السبب إنتاج الفول.. الفول السوداني.. وبرضو عبّاد الشمس.

ودون أن يستأذنهما طرح من رأسه سيلًا من الأرقام المدهشة عن إنتاج الفول السوداني وعبّاد الشمس في هذا الموسم، ثم تحدث عن سعر رطل الزيت من الاثنين: إنه ينخفض، وسوف ينخفض أكثر. وربط ذلك بالمستخدم من السمسم في زيت الطعام والحلوى، وكيف أن الفول السوداني الرخيص حلّ محله زيت عبّاد الشمس النقي الصحي منخفض الثمن المفضل لدى المصدرين وأصبح إنتاجه ضخمًا. ثم أسهب في الحديث عما أسماه (مستقبل إنتاج السمسم في السودان)، هل سيصبح مثل مستقبل إنتاج القطن والصمغ العربي؟! نظرا إليه باستغراب، سأله أحدهما بعفوية: إنت في الأمن؟

ما جعلنا جميعًا نضحك في وقت واحد. قال له صديقي: لا، أنا من القضارف.

قال الرجل هو يحملق في وجه صديقي: نعم.. عارف.. إنت الزول العندك حكاية مع الصافية، لكن إنت شغال شنو؟

قال له صديقي وقد ظهر عليه بعض الغضب: البلد دي غير

القـوالات والإشـاعات مـا فيهـا شي.. بلـد نكـد.

قـال الآخـر محـاولًا الخـروج مـن موضـوع الصراع: كدي أحسـن نشـوف موضـوع السمسـم. وقطـع الحـوار صـوت أبـواق سـيارات ونهيـق ونبـاح بربـارات ولاندروفـرات مختلطًـا بزغاريـد نسـاء وصبايـا، غنـاء وجلبـة، ثـم عـمّ المـكان الغبـار المختلـق مـن رفـس إطـارات السـيارات عـلى الأرض. قالـت عزيـزة الزغاويـة مسـتنكرة: دا زمـن عـرس؟ لسـه الحصـاد مـا انتهى.

قال أحد السماسرة مقررًا أمرًا قد يبدو معروفًا للجميع:

- العريـس دا قايـلاه منـو؟! دا محمـد عـوض، سـوّاق باربـارة البرنـاوي، ديـل بيعرسـوا في أي وقـت.. طالمـا الخريـف انتهـى وانفتحـت الشـوراع، دي مرتـو التالتـة.

السـيرة مكونـة مـن عشريـن باربـارا، خمسـة لاندروفـرات، بـاص همدائييـت وبـاص الشُـواك، لـوري الحفـيرة، تراكتـور بمقطـورة يتبـع لأحـد التجـار مـن زهانـة، المغنـي المتفـرد ود أمونـة، يصـدح بصـوت نسـائي عليـه بحّـة خفيفـة ربمـا نتيجـة للسـهر وتعليـم العـروس وشرب القهـوة الكثـير في بيـت العـرس، حيـث لا تنطفـئ نـار القهـوة لمّـا يزيـد عـلى الأسـبوع، يتبعـه كـورس مـن الصبيـات والنسـاء في حـماس وإثـارة.

علّـق أحـد السـماسرة في ضيـق: اللـه يسـخته.. مـا بتعرفـو، مـرا ولا راجـل.

ضحكت عزيزة قائلة: دا ود أمونة وبس.. هو كدا.

قـال السمسـار الآخـر: دا زول مُخنـث مـا نافـع.. واللـه لـو ولـدي كنـت ح أكتلـو عديـل كدا.

قالـت عزيـزة: مالـك ومـال الـزول دا ربنـا الخلقُـهُ عايـزو كـدا. ثـم أضافـت: إنتـو عارفـين محمـد عـوض اتـزوج منـو؟

قلت: لا، بالتأكيد.

قالت: اتزوج زينب بت أبرهيت الفلاشاوي.

قلت مندهشاً: الفلاشاوي؟! يعني من الفلاشا.

قال أحد السماسرة: أيوا.. وقالوا الفلاشا ديل يهود، همْ ذاتهم الباعهم جعفر نميري لإسرائيل، مُش كدا؟

قال جملته الأخيرة موجهًا كلامه إلى صديقي.

قلت: ولكن هنا في فلاشا؟

قال السمسار: أسرة واحدة، هي أسرة أبرهيت ولدو إسحق.

قالت عزيزة: لكن أبرهيت دا مسلم، قاعد يمشي صلاة الجمعة، كل الناس شافوه.

قال أحد السماسرة بثقة العالم العارف: اليهود ديل فيهم المُسلم وفيهم الكافر، زيهم زي الجن، فيهم المُسلم وفيهم الكافر. ثم أضاف: وفي مسلمين يهود عديل كدا، وديل الما بيصلوا ولا بيصوموا ويأكلوا الربا ومال اليتيم، ديل شُنو، مُش يهود؟ ثم أضاف فيما يعني أنه لو وجد أي إسرائيلي أو دولة تشتري منه الفلاشا، لباع لها أبرهيت وأسرته جميعًا ليغنى للأبد، ديل بيعهم مُش حلال؟! ربنا ذاته ما حرّم بيع العبيد، سيبك من الفلاشا.. مُش كدا؟

أومأت برأسي أن نعم، وكنت أعني بيني وبين نفسي أني: امتنع.

همس صاحبي في أذني، الذي كان يتتبع النقاش بانتباه كبير:

- لازم نزور أسرة أبرهيت دي، أنا أتمنى أشوف وأحاور يهودي، فلاشا ولا أشكناز ولا سفرديم ولا أي يهودي تاني، حتى لو كانوا بَني قُريظة أو بني النَضير.

قلت له: أنا مُشْ ح أمشي معاك، كِفاية العَمْلة العملتها في الكنيسة الأسبوع الماضي مع الأم مَرَيَم كُودي راعية الكنيسة.

قال مُحتجًا وقد علا صوته فجأة:

- عملتها أنا ولا عملتها هي، أنا كنت عايز أقيم معاها حوار موضوعي عن الأديان، وقصدي شريف جدًا، ولكن الأم مريم ما فهمتني واعتبرتني مُخرِّب، هي عايزة تتحاور معاي كمسلم عربي؛ وأنا عايز أتحاور معاها كإنسان يتبنى كل التُراث الروحي للبشرية بما فيه الدين المسيحي نفسه، وكما تكلم زرادشت للفيلسوف نيتشه وكتاب الطبقات لود ضيف الله، وغيرها من السرديات الكُبرى والصغرى.

قلت له: إنت طريقتك في تناول المواضيع هي المشكلة وليست نواياك.

وخوفًا من أن يُقال إني تركته في محنة جديدة وحده ذهبت معه. الذهاب إلى بيت أبرهيت لم يكن صعبًا، فالبيت كان متاخمًا للسوق، وأبرهيت نفسه معروف ومشهور، كما أن الذهاب إلى منزل فيه مناسبة عُرس كان أسهل الأشياء هنا. ونحن نطرق الباب، طلبت منا الصبايا وبعض النساء أن ندخل مباشرة، وما في داعي لدق الباب، الشيء الذي أدهشهن، ونحن نرفض الدخول دون إعلان، فإذا بأبرهيت يأتي مبتسمًا، طويلًا يلبس بنطلونًا وقميصًا نظيفين وربما جديدين، وبلكنة أمهراوية سَلّم علينا وهو يسحبنا إلى داخل ديوانه، ونادى بصوت خفيض على ابنته التي جاءت وفي يدها الماء والحلوى والأمبابا والابتسامة الساحرة تحلق في فمها الصغير الحلو. انحنت الصبية العشرينية أمام كل واحد مِنا، وهي تصب الماء من وعاء زجاجي أزرق في أكواب عليها علم وأسد إثيوبيا الشهيرين. همس صديقي في أذني قائلًا في إثارة واضحة وانفعال باللغة الإنجليزية:

- أسد صهيون. The Lion of Zion

تجاهلت همسه حتى لا ألفت الانتباه، رحّب بنا مرة أخرى، فباركنا له زواج ابنته زينب من محمد عوض كاجوك سائق البربارا، وتمنينا لهما بيت المَال والعِيال وسترة الحال. قال:

- البُنْ جاهز، والفطور برضو جاهز.

اعتذرنا بأننا شربنا القهوة مع عزيزة الزغاوية وفطرنا في المنزل، ثم دخل صديقي إلى الموضوع مباشرة ودون مقدمات وبوضوح تام عُرف به وتهور. في الحقيقة أنا أُعْجِبتْ بالطريقة الذكية البليغة التي حسم بها أبرهيت الموضوع، في هدوء ورباطة جأش، وكأنه كان يعد الإجابة منذ أن وُلد قبل خمسة وخمسين عامًا خلت، وأنه أجرى عليها تجارب كثيرة واختبارات صحة وخطأ في شتى أصناف البشر وأحوالهم، وربما الحيوانات والجن أيضًا؛ للتأكد من مدى صلاحيتها، قبل أن يتبناها أخيرًا كإجابة نموذجية تصلح ردًا شافيًا كافيًا لكل المتطفلين والمتحشرين والمتسكعين الكسالى، الذين لا همّ لديهم سوى البحث عن الغوامض، مثيري الأسئلة، المتشككين، ضعيفي الإيمان، والمتطرفين من الناس والجن وهوام الأرض كافة. قال بصوت واضح، بينما كانت عربات السيرة تدور في الخارج، وصوت ود أمونة يصدّح بأغنيات بنات رائعات محفزّات للرقص، وابنته العشرينية تضع مزيدًا من الأمبابا على وعاء الحلوى وهي تتفحصنا بركن قصي من عينيها الكبيرتين، وتنصرف لتستقبل السيرة في الخارج:

- أنا مسلم.

تفحص وجهينا وابتسم ابتسامة بُنيّة قبل أن يواصل كلامه.

- أنا مسلم.

مسح وجهه براحة كفيه، قبل أن يضيف في حدّة:

- وأشـهد أن لا إلـه إلا اللـه، وأن محمـدًا رسـول اللـه، وأقيـم الصـلاة، وآتي الـزكاة، وأصـوم رمضـان، وأحـجُ البيـتَ إذا اسـتطعتُ إليـه سـبيلًا.

ثـم أضـاف في بـرود كالصقيـع، بينـما هـو يحـاول الاحتفـاظ بابتسـامة دائمـة لئيمـة:

- يـلا مـع السـلامة، وقولـوا لمديـر الأمـن أبرهيـت ولـدو اسـحق يَسّـلمْ عليـك.

وبذلـك قـال لي صديقـي فيـما بعـد أكـد أنه يهـودي، ويهـودي متطرف. ونحـن نخـرج مـن البـاب معتذريـن خائبـين، وناكريـن لصلتنـا بالأمـن، إذا بابنتـه العِشرينيـة الجميلـة عـلى البـاب مبـاشرة، كانـت تنتصـت للحـوار الـذي دار بـين صديقـي ووالدهـا؛ الحـوار القصـير جـدًا، حيـث إن صاحبـي سأله:

- هل أنتَ من يَهود الفِلاشا حقًا؟

كانـت جميلـة، فِي فِسـتَانِهَا الأبيـضِ العَشَـائِري، وَبِلِسَـانِهَا الـذي أَخرجتهُ إلينَـا، فِي حركـةٍ لإغاظتِنَـا، بقـعٌ صَغِـيرةٌ سـوداء، ورائحـةُ حلـوى كَرَميَلا.

قَطْعَ الرَحَطْ و الدُخْلَةَ

جلس أمامي في بنبر كبير ود أمونة، كانت عيناه تشعّان بهجة وغموضًا ويبدو أنه يود أن يقول كلامًا مهمًا ولكنه يحتاج لمفتاح ما، وأعطيته إياه عندما سألته:

- في شنو؟

قال وقد مدّ ساقيه النظيفتين وهما تلمعان في ضوء المصباح:

- إنت عَارِفْ أنا طالبك كم؟ قلت له مشجعًا إياه على الكلام: كَمْ؟

قال وهو يستخدم أصابع يديه في الحساب بطريقة طفولية ويحرك عينيه في غواية نسوانية:

- ثلاثة جنيه ونص دي حطب الدُخان والطلح، سَمِحْ؟! سبعة جنيه ونص دي حق الدلكة اشتريتا من أدّي، سَمِحْ؟!

خمستاشر جنيه بتاعة الصابون وكلونيا الحمام، خمسة جنيه دا حق شُغُل الدلكّة الأنا دلكّتها ليها، حَقْ يديني ديل. ومدّ يديه بطريقة بناتية لا تخلو من غنج، خمسة جنيه دي، حَقَت شيل الجسم؛ والله شلت ليها أي شعرة في جسمها خليتها تلمع زي القمر، وح تشوف براك، والجنيهين ديل بتاعة صُبَاع أمير، سَمِحْ؟

قلت مندهشًا:

- صُباع أمير بتاع شُنُو؟

قال وهو يضحك باستمتاع خاص:

- ح تلاقيه قدام، وح يعجبك.

قلت: إذن الحساب كُلهُ كم؟

قال مبتسمًا:

- خمسين جِنِيهْ و بس، سَمِحْ؟

أعطيته ستينَ جُنيها، أعد بسرعة البرق الشيشة، طلب مني أن يدلك جسمي بالدلكة مجانًا، أو ينظف ملاينى فاعتذرت بأدب. قام بتغيير الملاءات وأحضر لبنًا وحساءً وعصير كركدي، أعد أدوات صُنع القهوة، أحضر مسجلًا كبيرًا بسماعتين خارجيتين، فعل كل ذلك بسرعة، بهدوء، بإتقان وحرفية قبل أن يقول لي:

- الحمام جاهز، الموية دافية، أخير تلحقها قبل ما تبرد.

ناولني بشكيرًا جديدًا، فرشة أسنان وصابون لوكس ومضى أمامي يُرَقِص ردفين كبيرين. كان الحمام عبارة عن بِنَاية صغيرة من القَشْ، القنا وأعمدة أشجار السُنط، لا سقف له، بأرضيته حوض كبير من الأسمنت وبنبر من البلاستيك وجردل به ماء ساخن، بابه من الزنك يتم ربطه عند الدخول بحبل قصير على عمود من حطب السُنط، يوجد فانوس يعمل بالجاز يقبع في ركن بَعيدٍ عن مرمى الماء. بوعاء بلاستيكي صغير يسبح على سطح ماء الجردل أخذت استحم، أنا في العادة أطيل البقاء في الحمام، أغسل جسدي جيدًا، مرات عديدة وألعب بما تبقى من ماء؛ أحب الماء، وعندما يكون دافئًا أحبه أكثر، اليوم كان دافئًا ومعطرًا وساحرًا، أحسستُ بفرح عظيم يغمرني تجاه ود أمونة، ألم قِشي، بيت الأم، المكان.. المكان كله. بعد أن غسلت جسدي جيدًا، تجففت بالبشكير الأبيض الكبير الذي تفوح منه رائحة الصندل، ومضيت نحو القطية، وجدت القُطية غارقة في دخان الكَبَريتْ، تقف في منتصفها ألم قِشي التي لم أستطع تمييزها في بادئ الأمر، حيث كانت مغطاة تمامًا بثوب القرمصيص، ولولا أنني شاهدت

ود أمونة يقف أمامها مباشرة، لظننت أن الذي يلتف بالقرمصيص هو ود أمونة نفسه، وفور دخولي، ضغط ود أمونة على المُسجل الكبير ليغرد فنان بناتي على إيقاع سريع راقص:

اللول ْاللولْ لولْ لِيّا

بسْحَرُوكْ يَا لُولَة الحبشية،

لولية إنت ما صعبة،

في الخرطوم أنا مُغْتَربة،

أنا بَحِبْ كسلا وأديس أبابا.

وأخذت ألم قِشي تهتز مع النغمات والإيقاع، وكفاها في وجهها. قال ود أمونة وهو يأخذ بيدي، يقودني نحو ألم قِشي:

- تعال أقطع الرّحْط، وافتح وش عروستك.

دون أن أقول شيئًا مشيت مثل المنوم مغناطيسيًا نحو ألم قِشي وأدخلت يدي بين ملابسها وفي وسطها وجدت حبلًا رقيقًا من السعف، قمت بقطعه وألقيت به في الأرض، التقطه ود أمونة وأخذ يلوّح به في الهواء ويزغرد مسرورًا، وهو يجتهد ليجعل صوته منخفضًا بقدر الإمكان:

- أيوي.. أيوي..

وانطلقت ألم قِشي ترقص وهي تهزُّ ردفيها وصدرها ويديها ورأسها، قدميها وساقيها وكل ذرة في جسدها، ما جعل القرمصيص الناعم يسقط عن جسمها إلى الأرض، وتبدو واضحة أمامي: كانت ترتدي فستانًا قصيرًا جدًا بحمالتين عبارة عن قطعتين رقيقتين من القماش تمرّان على كتفها وظهرها، فستانها الأسود، المشغول بخيط ذهبي يشع ضوءًا وعيدًا، رائحتها تملأ المكان عبقًا جميلًا، كانت تبدو

مثل عروسٍ في خمسينيات القرن الماضي، تلبس في عُري ساحر. كنت أقف مندهشًا أنظر إليها وهي ترقص، ود أمونة يساعدها على الأداء بالتصفيق والزغاريد. قال لي ود أمونة بعد أن أكملت ألم قِشي رقصتها:

- مبروك يا عريس، الليلة يوم دُخْلتَك.

أوقف زر تشغيل المسجل، بدا لي غير راضٍ تمامًا عن أدائي، لاحظتُ ذلك من حركة شفتيه، وما قامت به عيناه من مسح كامل شامل لهيئتي، وخرج. كل شيء مرّ كالحلم تمامًا، لاحظت ألم قِشي أنني لا أبدو في كامل وعيي، لأنها أخذت تلاحقني بسؤال عن حالي بإلحاح كبير، بقلق أجلستني على السرير الكبير الذي أعده ود أمونة بإتقانه المعهود. وسألتني ما إنْ كنت أرغب في شرب القهوة، وقبل أن أجيب: لا. طوّقَتْ نصفي الأعلى بساعديها، غمرني عطر نسائي بلدي قوي مُنعش، ما جعلني أفيق فجأة، كانت تجربتي مع النساء قليلة، وكل ما عرفته عنهن في الواقع كان عن طريق ألم قِشي نفسها، في المرة السابقة، لكنني أحسستُ الآن عليّ أن أبدأ من جديد، وعاودني الخوف القديم من العجز، الحق يُقال، خفت من ألم قِشي وتمنيت أن يبقى ود أمونة، إنه شخص مرح ولو أنه عملي أكثر مما هو إنساني، إلا أنني كنت دائمًا أحس معه بالطمأنينة، على الأقل لأنني لا أتوقع منه أن يختبر مقدرتي الجنسية، إنه غريب وغامض ولكنه مؤنس وأشعر بأمان قربه.

قلت لها: اعملي لينا جبنة.

قالت: كويس.

نهضت من قربي، قالت لي: قوم.

وأخذتني من يدي. قالت بصوت هادئ وقد جعلتني أقف في مواجهتها: إنت خايف.. مُش كدا؟

قلت مكابرًا: من شنو؟

قالت وهي تطوقني بساعديها من خصري غير مبالية بسؤالي: من عروستك.

قلت وقد أحسستُ بأنني حُوصِرتْ: بس.

قالت مقاطعة: عشان نحن عملنا ليك عرس؟ قلنا عايزينك تنبسط، وإنت..

قلت لها مقاطعًا: أنا مبسُوط.

قالت وهي تضع رأسها على صدري: تعال ننوم سوا بعدين نعمل الجبنة، إنت مُش نَعسَان تعال أنومك.

أخذت البشكير من على كتفي ورمت به بعيدًا على بنبر في أقصى القُطية، أطفأت النور. سألتني سؤالًا مباغتًا وهي تتحسس جسدي: صاحبك وين؟

قلت لها: مع مختار علي.

سألتني: لسع ما عايز يسيب الصافية؟

قلت لها: زول راسه قوي.

قالت لي وأظافرها تغوص في شعري: وإنت، راسك كيف؟

ضحكنا،

قالت: أنا بحب الراجل البيتجرس، وإنت واحد منهم.. عارف نفسك؟

قلت لها وأنا أدفن أنفي تحت ضفائر شعرها ما فوق أذنها: اشرحي لي أكتر.

- عندنا هنا الرجال في الحلة دي بيتعاملوا مع النسوان زي ما بيتعاملوا مع السمسم. امسك، اقطع، اجدع.. ولكن إنت راجل جرسة، بتصرخ.

ضحكنا، قبلتها، ذابت في فمي مثل عجينة من الزبد والحلوى. استيقظنا في الصباح الباكر على صوت ود أمونة مناديًا ألم قِشي، فتحنا أعيننا في لحظة واحدة، كان يقف أمام السرير، حيث إننا تركنا الباب مفتوحًا، كان يرتدي جلبابًا أبيض نظيفاً، وجهه حليق، شاربه كث في نظام ودقة، كان فرحًا ونشطًا وطليق اللسان كعادته، بارك لنا الدُخلة التي كانت من إنجازه، بل أحد أعماله الفنية، حيث إنه كان منتعشًا ونشوانًا، عرفت فيما بعد أن ود أمونة قد يصل إلى ذروة اللذة إذا أنجز عملًا بصورة يعتبرها كاملة، مهمته الأساسية هي أن يجمع امرأةً برجل وأن يستمتعا، خاطبنا قائلًا:

- موية الحمام حتبرد، مُش عايزين تستحموا؟! أنا ما ح أجيب ليكم شاي ولا فطور إلاّ بعد أشوفكم مستحميين نظاف وظراف زيي كدا.

واستعرض ملابسه ووجهه. قالت له ألم قِشي بصوت ناعس وهي تتحرر من الغطاء برفسات متتاليات:

- خلاص، زح شوّية ألبس ملابسي.

فادعى ود أمونة الانشغال بترتيب بعض الأشياء بالقطية، فلبسنا ملابسنا وخرجت ألم قِشي خلفي نحو الحمام، تحمل بشكيرًا كبيرًا، الحمام خلف الراكوبة، ما يقل عن عشرة أمتار من القطية، دخلت خلفي وهذا ما لم أكن أتوقعه، ساعدتني في خلع جُلبابي، خلعت ملابسها بسرعة رهيبة، أشارت إليّ أن أجلس على البنبر، سألتني ما إذا كانت هناك امرأة حممتني من قبل؟ قلت لها أمي فقط، قالت إنها كانت تتوقع ذلك، عملت الليف في ظهري وأرجلي وفخذيّ وذراعيّ، شعر صدري الكثيف منعها من استخدام الليف فاستعاضت عنه بكفيها الناعمتين، كانت تغني بالأمهرا بصوت خفيض حِلو، قالت لي وهي تشير إلى مكان حساس في جسدي:

- ح أكلم ود أمونة يحلق ليك.

فزعت من الفِكرة، ولكنها أكدت لي أن ود أمونة خبير في حلاقة هذه الأمكنة وهو حلاق قائد المنطقة العسكرية وعميد الشرطة أيضًا، وذكرت غيرهما كُثر، قلت لها أنا لا أحب أحد غيري يقترب من تلك الأمكنة، ضحكت، كان الصباح رائقًا وهادئًا، المكان يخلو تمامًا من أصوات الجنقو المعتادة، حيث إنهم لم يعودوا من المشاريع، كان صوت الأم تحكي شيئًا لود أمونة يبدو واضحًا وجليًا، بعض أسراب الطيور تذهب في جماعات نحو الشرق، تمتلك ألم قِشي جسدًا أنثويًا مثيرًا وأعتبره بالرغم من خبرتي الفقيرة في النساء، جسدًا مثاليًا، حيث إن النساء اللائي أحب النظر إليهن كثيرًا ويثرن إعجابي، هن اللائي لهن أفخاذًا كبيرة، وأرداف عريضة وألم قِشي بالرغم من نحافتها كانت واحدة منهن، قالت لي وأنا أحدث نفسي عنها في صمت:

- امبَارِح كان يوم كويس ولا لأ؟

- كان أجمل يوم في حياتي، إنت رهيبة.

ابتسمت عن رضا، ولم تقل شيئًا. في الحقيقة بعد هذا اليوم أصبحت مُحْترفًا في النساء، أو ظننت أنني كذلك، ولكن لا يزال هنالك عيب فيّ، هل كل النساء يعرفن كيف يتعاملن مع الرجل الذي لا يعرف شيئًا عنهن؟! الرجل الذي دائمًا ما يحسُ أنه عاجز عن ممارسة شيء ذي فائدة معهن، إذن.. هل بإمكاني أن أعرف امرأة غير ألم قِشي؟! أم أن خوف الفشل هو الذي سيبقيني سجين هذه المرأة العجيبة؟! قالت لي وأنا أحدث نفسي عنها في صمت:

- إنت راجل ما نافع.

فَوائدُ مَا بَعد الحفل

تأقلمت ألم قِشي على الحياة الجديدة في سرعة فائقة، أحبت عملها ولو أن المبلغ الذي تتقاضاه مقابل القيام بإعداد الطعام وترتيب الميس لا يساوي نصف ما كانت تحصل عليه في العمل في بيت أدّي كفتاة مبيت، إلا أنها كانت كل مرة توجد لنفسها مصدرًا آخر للدخل، مثلًا، طلبت من الموظفين ألاّ يأخذوا ملابسهم إلى الغسال، هي ستقوم بذلك وبصورة أفضل، لأنها لن تخلط الملابس مع بعضها، ستغسل لكل فرد على حدة وذلك حتى لا يختلط عرق شخص مريض بشخص سليم، فتنتقل العدوى: وح تشوفوا الفرق. ثم ابتكرت فكرة بيع الملابس والمصنوعات القطنية الحبشية المتميزة بالتقسيط المريح لعمال وموظفي الشركة وأصدقائهم، حتى يتمكنوا من أخذها إلى أسرهم عند عودتهم الشهرية إلى مدنهم، ومواطنهم الأصلية، ثم أخذت تبيع أشرطة الكاسيت الحبشية والزائيرية والأحزمة الجلدية الأصلية والجزم الإيطالية المهربة من إثيوبيا، ثم الجِنْ، البراندي، الأنشا، الكونياك، ثم الكوندوم والفياجرا وعقاقير فتح الشهية، ثم زاد دخلها بصورة ملحوظة عندما استضافت في بيتِ أدّي، في خَميس بُنِي، كل العاملين في شركة الاتصالات وأصدقائهم من العاملين في تشييد البنك، ضباط المحلية، بعض قادة الجيش والشرطة، ثم نفرًا من أعيان البلدة، ووفرت لهم ما لذّ وطاب من شواء بالسمن والعسل، وشيشة معطون تمباكها بالاستيم، الذي يحل محل الماء كذلك، ثم فاجأتهم بالمغني العجوز آدم بلالة في صُحبة الأم كيكي ورفقة أجمل سبع بنات في الحي الشرقي: صفية إدريس، الملقبة بصفية ناسات، سنايت، وليس هناك أفضل من ساقي سنايت إذا رقصت، أميرة الدبابة وهي خِلاسية نجلاء ردفاء، مناهل سعيد، شهيرة بمناهل النوباوية، وهي فتاة تتصف

بعنـق طويـل ناعـم مصقـول، أمهـا يمانيـة وأبوهـا مـن الحمـس، أمونـة بـت خـدوم.. وهـي امـرأة قدمـت مـن مدينـة القضـارف مؤخـرًا في صحبـة أمهـا الجنقوجورايـة، ولكـن لمـا تتصـف بـه مـن جـمال وفصاحـة وثقافـة أخـذت موقعًـا متميـزًا بـين نسـاء الحلـة، ولا يمكـن أن تنـسى في مثـل هـذا الحفـل التاريخـي، أسـتيرا كيـداني بشـير، وهـي أيضًـا مـن الذيـن قدمـوا حديثًـا للحلـة مـن الحُمـرة، حيـث إنهـا كانـت تسـكن فريـق قـرش، تمامًـا جـوار شـجرة المـوت، وهـي تعمـل بارسـتيا في البـار الخارجـي عـلى شـاطئ نهـر سـيتيت المقابـل لهمدائييـت، ولكنهـا اتهمـت بقتـل إحـدى زميلاتهـا في العمـل، فهربـت إلى الحِلـة، جميلـة صريحـة وواضحـة، لا تتحـدث اللغـة العربيـة إلاّ بصعوبـة، بوشـاي شـول، أبوهـا مـن الشُـلك، أمهـا مـن الحُمـران، وهـي مغنيـة لا تقـوم لحفـل قائمـة إذا لم يصـدح فيـه صوتهـا العـذب، وقـد قـال فيهـا أحـد صعاليـك الحلـة أغنيـة:

جَنَى البَابَايْ،

إنتَ يا بُوشايْ الحِلو زي مَنْقايْ،

بَرِيدُو وَايْ.

وايْ.. وآآيْ.

وكي يكتمـل الحفـل كان لا بـد لـود أمونـة مـن أن يكـون حـاضرًا، نظيفًـا ظريفًـا رشـيقًا، تـراه في كل مـكان، لا ينجـو أحـدٌ مـن خدماتـه السريعـة المتقنـة، ولا مـن عطـره القـوي أو صوتـه الخفيـض الهـادئ. رقـص، غنـى، دوبى، مـدح، وعقـد صفقـاتٍ سِرِيـةً سَرِيعـةً مـع مـن شـاء فيـما يشـاء، بـدءًا بالخمـور المسـتوردة انتهـاءً بالبنيـات وكل لـه سـعره، الفتـاة، العزبـاء، المتزوجـة، الأرملـة، المحافظـة، الشرموطـة، الجـن، الويسـكي، الأحَجِبَـة و التَمَائِـمْ، المِحَايَـة، الأنشـا، البـيرة، الكونيـاك وحتـى عرقـي البلـح، المريسـة، والعسـلية مـع خدمـة توصيـل الطلبـات إلى الموقـع، نسـبة لمـا يتميـز بـه

الموظفـون مـن عِفّـة وتأفـف وكثـير مـن الخجـل والحـرص، يمنعهـم مـن الحصـول عـلى الخدمـات في مواقـع إنتاجهـا، ولكـن اللـه يخـلي ود أمونـة، حـلال الكِّـرب، لم يضايقـه سـوى طلـب همـس بـه أحدهـم إليـه في أذنـه، وأكـده بقرصـة مباغتـة في إليتـه، غمـزة بعينـه اليـسرى وحركـة لسـان:

- أنا عايزك إنت يا ود أمونة إنت.. في رُوحك دي يا ود أمونة.

قـال لي ود أمونـة فيـما بعـد، إنـه أحـسّ بـأن الدُنيـا أظلمـت في وجهـه، بالرغـم مـن أنـه ليـس هـذا هـو الطلـب الأول الـذي يقـدم لـه في شـأن نفسـه، وليسـت هـي القرصـة الأولى، ولا الغمـزة الأولى، ولا هـي أول حركـة لسـان داعـرة يُلـوّح بهـا إليـه، ولكـن لا يـدري لمـاذا أدهشـه هـذا أكـثر. قـال:

- قلـت ليهـو تعـال بُكـرة في بيـت أدّي هنـا، تلقـاني قاعـد. ولكنـه لم يحـضر.

فسـألت ود أمونـة، مـاذا كان سـيفعل بـه إذا حـضر، قـال لي وهـو يضحـك، بطريقتـه الملتويـة التـي تجعلـه دائمًـا في موطـن التشـكك و الظن:

- بصراحة بصراحة.. .. الزُول دا عجبني، والحمد لله انهُ ما جاء.

كان حفـلًا جميـلًا مـرّ بهـدوء، اسـتمتع بـه الجميـع، حضرنـاه مـع غيرنـا مـن مواطنـي المدينـة، حيـث إن مـن لم يـدعَ رسـميًا هنـا، فهـو مدعـو عُرفيًـا وعـن طريـق العـادة. خـسرت ألم قِـشي لإقامـة هـذا الحفـل مـالًا كثـيرًا، ولكـن فوائـد مـا بعـد الحفـل كانـت أجـدى.

قلـت لألم قِـشي ونحـن في بيـت الأم حيـث اعتدنـا أن نلتقـي: تجارتـك بقـت كبـيرة، وبقيتـي غنيـة.

قالت مدعية البراءة: ناس المدينة يحبوا الملابس الحبشية.

قلت بمكر: وتاني.

قالت في مكر: الأشرطة الحبشية والزائيرية.

قلت: وتاني؟ قالت بتحدٍ: تقصد شنو؟

قلت لها بوضوح: البنات.. ما بيحبوا البنات؟

قالت في بجاحة: أنا وسيط، ما أكثر، وإنت عارف إنو أنا ما عندي ذنب، إنت ذاتك لو عايز واحدة ح أجيبها ليك.

ولأول مرة في حياتي يصل بي الغيظ حد أن أتهور وأضربها في وجهها، إلى أن سقطت على الأرض، عندما نهضت، أخذتْ زجاجة جِنْ فارغة ورمتني بها، ولكني خفضت رأسي قليلًا، فانكسرت على الباب محدثة دويًا مرعبًا، حضرت إثره أدّي وود أمونة في لمح البصر، وحضر ما يمكن أن أسميه نِصْف سُكان الحي، أو جميع سكان الحي المستيقظين في تلك الساعة من الليل، هذا بالتأكيد كان من حسن حظي، حيث إن ود أمونة وأدّي لم يستطيعا أن يرفعا ألم قِشي عن صدري أو يطلقا حنجرتي من كفيها القويتين، وصف لي ود أمونة فيما بعد حالتي بأنني: قرّبت أطلع الروح. ولكن ألم قِشي قالت لي إنها ما كانت لتقتلني، ولكنها فقط كانت عايزة تهازر معاي شوية، ولكنني على كل وعيتُ الدرس واعتبرت الحادثة أيضًا من فوائد ما بعد الحفل، اكتفى الناس بفض المشاجرة، لم يلمني أحدٌ، ولم يلمها أحدٌ، الملام في كل هذا هو الشيطان الرجيم، العنوا الشيطان، الناس هنا يفعلون المستحيل حتى لا يخسروا بعضهم، وتعجبهم اللمّة، فالناس بالناس والكل لرب العالمين.

- يا دوب ألم قِشي ح تحبك بالجد بالجد، لأنها ضاقت إيدك، وعرفت إنك بتحبها لأنك بتغير عليها.

ثم سألني سؤالًا مباغتًا :إنت بتحبها يا ولد؟

كنت مرهقًا، نمت، تركتهما يتحدثان عن باص همدائييت الذي

نهبـه الفالـول بعـد ظهـر اليـوم عنـد غابـة زهانـة، نمـت يملـؤني العجـب، كيـف يصـل الخـبر عـن البـاص الـذي نُهِـب في غابـة زهانـة بعـد الحادثـة بمـا لا يزيـد عـلى نصـف السـاعة، والبـاص نفسـه، كأسرع دابـة في تلـك البقـاع، يحتـاج إلى سـاعة كاملـة كي يصـل إلى هنـاك مـن الحلـة؟! أليـس صحيحًـا أن الجـن وحـده هـو المسـؤول عـن نقـل الأخبـار في هـذه البـلاد؟.

الجَنَقُوجُورَايْ

(في الدَرَتْ يَحَنِنْ وَفِي الخَرِيفْ يَجَنِنْ)

يـوم الخميـس هنـا يـوم عيـد، يقضيـه الجنقوجـوراي تحـت شـعار محفـوظ ومعـروف وهـو: خميسـك ولـو تبيـع قميصـك. يهبطـون إليـه مـن المشـاريع والتايـات البعيـدة والقريبـة، عابريـن مـزارع الـذرة والسمسـم أو غابـات الكـتر والطلـح الصغـيرة المتفرقـة بـين هنـا وهنـاك، مثيريـن الرعـب في الأرانـب البريـة والفـئران والسـحليات عـن طريـق دق أرجلهـم الخشـنة عـلى الأرض الطينيـة السـوداء، عـن طريـق أصواتهـم التـي تطلـق أغنيـات حصـاد بائـدة قديمـة نشـاز، في سـماوات الفلـوات الشاسـعة، عـلى ظهورهم القوقـو متخـمًا بعـروق الشـجر ووصفـات لعـلاج مـرض الصعيـد ولدغـات الثعابـين والعقـارب وحتـى خـادم العقـرب الصغـيرة السـوداء المؤذيـة، ومـا اسـتطاعوا جمعـه مـن زينـة إلى تلـك اللحظـة، وعندمـا يصفـو لهـم الجـو أو يبلـغ بهـم التعـب أشـده يجلسـون تحـت شـجرة لالـوب أو طلحـة رؤوم ويحكـون عـن أربـاب العمـل والنسـاء وحـي قـرش، وهـم غالبًـا مـا يتجنبـون الحديـث عـن المـال، هـذا المخلـوق الغريـب اللّـزج، الـذي لا يسـتقر في جيـب ولا كـف ولا قوقـو، الـذي يـأتي بالمريسـة والعرقـي؛ يـأتي بالشـيّة والمـرس والكجيـك ومـا لا يحلمـون بـه مـن طعـام، يـأتي بالنسـاء في لمـح البـصر، الـذي ـ ذاتـه ـ يعـرف كيـف يهـين الرجـال ويمـرّغ أنوفهـم في الـتراب، وينهـي رحلـة حياتهـم بشـجرة المـوت في فريـق قـرش بالحُمـرة. ولكنـه في هـذا الشـهر، وطالمـا كان الجنقوجـوراي في كامـل صحتـه وفي تمـام مقدرتـه عـلى العمـل ومواقعـة النسـاء، فـإن المـال مهـم لإكـمال الزينـة، وهـي جزمـة أديـداس أو كمـوش، بنطلـون جديـد ويفضـل الجينـز البُوقِـي بجيـوب كبـيرة وأحزمـة، قميـص أو قمصـان جديـدة، ذات ياقـات كبـيرة

لهـا ألـوان زاهيـة أو حـارة، عطـر البخـور أو المنتخـب، بطاريـة جديـدة ماركـة رأس النمـر؛ الإنجليزيـة الأصليـة، سـويتر، منديـل كبـير مصنـوع مـن القطـن، علبـة فازلـين كبـيرة تسـتخدم كحُقـة للصعـوط فيـما بعـد، مسـجل كبـير بسـماعتين ملحقتـين، والأجمـل والأكـثر إثـارة والـذي يعطـي وضعيـة اجتماعيـة أفضـل للرجـل هـو ماركـة سـانيو بالـذات أو انترناشـيونال المكتوبـة بالفـضي بـارزة مـا فـوق علبـة التشـغيل، شـنطة هاندبـاج كبـيرة وهـي مـا يطلقـون عليهـا تدليـلًا: قُوقُـو. نظـارة شمسـية سـوداء اللـون أو عاكسـة للضـوء، كبـيرة تغطـي نصـف الوجـه العلـوي، تحـب البنـات رؤيتهـا هنـاك، سـاعة يـد كاسـيو طالما لا توجـد سـيكو أصليـة ولا سـتيزن أو جوفيـال، والبعـض، وهـم قلـة يحتفظـون بقلـم بِـك ونوتـة صغـيرة، وهـما طالمـا يـدُلان عـلى معرفـة بالكتابـة والقـراءة والثقافـة، ويحـددان موقـع الشـخص في منظومـة العمـل، حيـث إنـه غالبًـا مـا يكـون قـد حُظـي بوظيفـة وكيـل مـشروع وهـي غايـة مـا يحلـم بـه الجنقوجـوراي، وتلـك هـي فائـدة العلـم ودخـول المـدارس، ويسـتطيع أي جنقوجـوراي مـع بعض الاجتهـاد أن يكمـل زينتـه في فصـل الـدَرَتْ، في شـهر ديسـمبر هـذا، ففـي كل خميـس يحـاول العامـل جهـده أن يشـتري بعضًـا مـن هـذه الأشـياء وأن يسـتمتع فـوق ذلـك بخميـس جيّـد متميـز يرفـع مـن قـدره وهـو يحكيـه في العـودة، عنـد التايـة وكنتـوش اللقمـة عـلى النـار، والأصدقـاء التعـابى يفترشـون جـوالات الخيـش عـلى الأرض، يطلقـون عضلاتهـم وأخيلتهـم لسـحرة الراحـة يعبثـون بهـا مـا شـاءوا، لا يميـل الجنقوجـوراي كثـيرًا للنسـاء، بـل هـم زاهـدون في شـأنهن، ولا يبطئـون في إطـلاق لقـب هَـوَانْ، عـلى كل مـن فضّـل مصاحبـة النسـاء عـلى معاقـرة الخمـر، المريسـة هـي المعشـوقة النهاريـة الأمتـع الأفضـل، العرقـي يشربونـه بالليـل حيـث يـبرد الجـو وتتبخـر سـكرة المريسـة، ويحتـاج الذهـن إلى مسـكن يجعـل العضـلات المرهقـة التعبـة تسـترخي وتنـام.. إنهـم الآن في شـهور الكسـل، التـي تبـدأ منـذ الخامـس عـشر مـن ديسـمبر؛ شـهور مـا بعـد الحصـاد،

وهـي عبـارة عـن اسـتراحة محـارب إجباريـة، نزقـة بليـدة، مُـرّة، طيعـة، حلـوة، شـقية، مراوغـة، تنبهنـا لـكل ذلـك عندمـا أتى لمسـامعنا الحـوار الـذي انـسرق عـبر صريـف القصـب مـن بيـت خميسـة النوباويـة، بينهـا وأحـد الجنقـو، عرفنـا أن اسـمه عبدارامـان.

- أنا غلطان يا أمي، سامحيني.

- يا عبدارامان، إنتِ لسانِك حُلو، ولكن عملك شين زي الخرا.

ثـم دار حديـث خفيـض، فلـم أتبينـه، ولكـن عندمـا طلـب منهـا عبدارامـان غرضـه، كان الصـوت واضحًـا:

- كويـس، خـلي قميـصي الجديـد دا معـاكي، وأدينـي نُصِّيـةْ واحـدة، وبكـرة لـو مـا جبـت القـروش مـا تدينـي القميـص.

ضحكت خميسة ضحكة مجلجلة:

- نفـس حكايـة المسـجل. شربـت خمسـة شـهور: عرقـي، مريسـة، عسـلية، كاني مـورو، بقنيـة لمّـان شـبعتِ تـبْ، وبعديـن جيـت قلعـت المسـجل، لا قـرش، ولا تعريفـة، حتـى البِـتْ القُلت عايز تعرسـها، غشـيتيها، عـروسي.. عـروسي، ولكـن اليـوم البـدا الكديـب، تـاني عـين تشـوفك تنقـد، إلا الليلـة.. لمّـان الـدرت جـاء وبقيـت عاطـل مـا عنـدك شُـغل.

قال في سرعة:

- البَـتْ! البَـتْ يـا أمـي حَسِـعْ نعرسـيها، شـوفي فـكي عـلى الزغـراد ويـن، حَسِـعْ يشـيل لينـا الفاتحـة.

قالت بصوت قوي وصارم:

- منافقة ود أم تيظ.

- وحَيـاة جِـدِيْ بَرمبَجِيـلْ! واللـه يـا أمـي مـا نكضـب، جَـدْ جَـدْ، وحَيـاة رأس أبـوي جَـدْ جَـدْ. أتى صـوت رقيـق مـن مـكان قـصي في بيـت خميسـة:

- يـا أمـي أنـا مـا عايـزاو.. مـا عايـزاو.. مـا عايـزاو.. وتـاني مـا عايـزاو. الجنقوجـوراي يـا أمـي في الـدَرَتْ يَحَنِـنْ وَفِي الخَرِيـفْ يَجَنِـنْ.

قال عبدارامان ضاحكًا في انتشاء بيّن:

- هييـه كلتومـة، أمسـكي عليـك لسـانك، لمّـن نعرسـيك نوريـك أدب المدايـح.

دخـل الحـوار شـخص آخـر، تحـدث عـن بيـت الحـلال وحلـف بالطلاق والحـرام أن يـأتي المـأذون الآن ويتـم العقـد الآن، ويدخـل عبدارامـان عـلى كلتومـة: حَسِـعْ دِيْ.

يأتي صوت كلتومة من عمق قصي في بيت خميسة النوباوية:

- مـا عايـزاو.. مـا عايـزاو.. مـا عايـزاو.. يجينـي لمّـان يَفَلِـسْ، إنـت ويـن لمّـان القـروش في إيـدك زي الـتُراب في موسـم السِمسِـمْ، إنـت ويـن بعـد قطـع العيـش؟ مـا عايـزاو.. مـا عايـزاو يـا أمـي.. مـا عايـزاو.

قال بهدوء:

- واللـه السـنة دي معانـا سـنة كبيسـة، أنـا بعـت فيهـا مُسـجلي ونظـارتي الاشـتريتها مـن القضـارف ويـا دوب دا شـهر! شـهر واحـد دخـل علينـا، مـا عـارف يجـي شـهر سـتة كِيـف؟ قالـت خميسـة النوباويـة:

- البِتْ قالت ما عايزاك.

- تسـمعي كلام المـرا، في مـرا تـابى الجـواز، الشُـخل(الشيء) الحلـو دا بينـأبى؟ ثـم أضـاف: يـا أمـي خميسـة كـدي أدينـا نُصِّيـةْ عرقـي، نشربهـا عـلى بـال مـا مُـوسى ود محجـوب يجيـب الفـكي الزغـراد ويقـرأ الفاتحـة، ونَخُـشْ عـلى بِنيتـك دي ونبقـى لحـم ودم.

- ما عايزاك، ما عايزاك.. إن شاء الله نُصّك للكلاب.

أكـدت أصـوات أخـرى أهميـة أن تَنَـزّل الآن خميسـة النوباويـة نُصِّيـة

إكرامًا لـزوج ابنتها المرتقـب واحتفـاءً بالمناسـبة ومباركـة للدُخلـة العاجلـة والخَمَـرةُ ـ كـما يقولـون ـ زغاريـت السريـر، أبـشري يـا كلتومـة. أكـدت خميسـة أنهـا لـن تفعـل، إذا أراد أن يتـزوج مـن ابنتهـا عليـه إحضـار الرجـال غـدًا بعـد الظهـر، وإحضـار مالـه.

- الرجـال سـاهلين يـا أمـي بخيتـة، ولكـن المـال في دَرَتْ سُـخُنْ زي دا، اللـه يعلـم.

ثم أضاف بصوت خفيض بعض الشيء وكأنه يحدث نفسه:

- أنـا لـو عنـدي مـال كنـت اشـتريت النُصِّيـة شربتهـا ونمـت مُرتـاح البـال، عزيـز ومكـرم، لا عـرس ولا كلام فـاضي، أنـا حَسِـعْ عايـز أعـرس ليـه؟! مُـش عشـان مـا عنـدي حَـق النُصِّيـةْ؟ قـروش قُبّـال مَـا يَجِـيْ موسـم قَطْـع القصـب ولا أمْبَحَتَـيْ ولا الفحـم؟ واللـه إلا لـو عنـدي جَـان.. ولا شُـنو يـا جماعـة؟

- مـا عايـزاو.. يـا أمـي أنـا مـا عايـزاو.. وتـاني مـا عايـزاو.. جنقوجـوراي مُفلـس أنـا دايـره بيـهُ شـنو؟ وعايـز كـمان يعرسـني عشـان نُصِيَـة؟ مـا عايـزاو مـا عايـزاو.

دار حـوارٌ بعيـدٌ عـن مسـامعنا وكانـت تصلنـا منـه همسـات مشوشـة مـا يشـبه الطنـين وحـك الحناجـر، يتخللـه صـوت كلتومـة صارخـة أو شـاتمة، كانـت ألفاظهـا المـرّة السـاخنة تتسـلل عـبر صريـف القصـب لتنتـشر في المـكان كلـه، تنخلـط مـع ثغـاء السـكارى، ووسوسـة الوطاويـط، هرجلـة الـكلاب، وحوحـة القطـط وفحيـح بعـض الذيـن أووا لعناقريبهـم يتجاسـدون، وفجـأة دوت الزغاريـد شـارخة ظـلام الحـي الشرقـي الدامـس، مـن وسـط حُـوش خميسـة النوباويـة. في الثـواني الأولى، عرفـت الحِلـة كلهـا أن عبدارامـان ود أبكـر البـلالاوي، قـد تـزوج كلتومـة بـت خميسـة النوباويـة، في تلـك الثـواني ذاتهـا علّـق النـاس أن عبدارامـان يتـزوج للمـرة الرابعـة في سـنته الرابعـة في الحِلـة، وأنهـا لـن تكـون الأخـيرة، إذا كان في

العمـر بقيـة، وأن كلتومـة بـت خميسـة النوباويـة قـد تزوجـت للمـرة الرابعـة كعـذراء، حتـى لا يسـأل المـأذون، ذات المـأذون الـذي عقـد عليها في المـرات السـابقات، عـن قسـيمة الطـلاق في كـون أنهـا ثيـب. وأكـد الجميـع للجميـع، أن عبدارامـان ود أبكـر، لـن يخـرج مـن هـذه الزيجـة: بأخـوي وأخـوك، سـوف يحصـل لـه مـا حصـل لأزواج كلتومـة السـابقين، أو أسـوأ؛ واحـد منهـم في السـجن إلى الآن، ثانيهـم، مـات مقتـولًا في ذات البيـت، ثالثهـم، طَفَـشَ لا أحـد غـير اللـه يعلـم، أهـو حـي أم ميـت. والسـبب وراء ذلـك أن خميسـة لا تـرضى الحقـارة، وينتقـم لهـا كُجـور التِيرا عاجـلًا وليس آجـلًا. والجنقـو حقاريـن. وعبدارامـان يعـرف، ولكـن كـما قـال لنفسـه:

- المَعَايِشْ جَبّارَة.

النـاس هنـا لا يتنبئـون، ولكنهـم يعرفـون، يقـرءون المسـتقبل دون لبـس أو تشـويش، بـل يَروُنَـه.

وَصَتْنِي وَصِيَتَا

الصافية، أصبحت مشروع حياته الآني، والآني هنا كلمة مهمة وذات دلالات غير محايدة، وسوف يغتاظ فعليًا إذا علم أنني استخدمها في هذا السياق، فهو متقلب المزاج، طائش، تطوف برأسه أفكار كثيرة وقد تكون متناقضة في ذات لحظة تولدها، ولكن الثابت أنه يتبناها ويشرع في تنفيذها مباشرة، تمامًا كما يفعل طفل نزق في الحلم، أو فنان مجنون في لوحة، وهذا طبعه منذ أن تعرفت عليه في طفولتنا الأولى، وأعرف، طالما اختلق فكرة مشروع الصافية، فإنه سيصل إلى قاع الفكرة المظلم البارد وسيلقم من حصبائها المالحة، فما اعتبره تطفلًا يسميه هو مهام صعبة، وهذا ما يفرِّق ما بين شخصيتي وشخصيته وهو ليس اختلافًا في الدرجة كما يظن كثير من أصدقائنا المشتركين، فهو مشكل أخلاق وفهم للحياة، أنا أحب الآخرين، مع الاحتفاظ بمسافة وإن كانت متوترة بيننا، أما هو، فأول ما يفعله هو إلغاء هذه المسافة، لا يُوجد ـ حسب وجهة نظري ـ في الصافية ما يجذب رجل مدينة، شرب مفاهيم جمال عربية منتجة بدقة عبر المدرسة ومناهجها، عبر التليفزيون والراديو والجرائد، عبر الشارع والتربية الدينية وحتى مفهومات أسرية، وفي إمكانه، وبين يديه هذا الموديل، رهن إشارته، فهي خيارات متنوعة، سهلة وجاذبة في تناغم مع ذوق تنشّأ عليه، وهو أيضًا ليس مريضًا نفسيًا، ولا رجلًا شهوانيًا، وإن يكن أعرف بالنساء مني، ولكن دافعه الأكبر نحو الصافية كان دم المغامرة الساخن، الذي يغلي في عروقه فهو رجل لا يتحمل انغلاق اللغز إطلاقًا هذا ما أفهمه عنه، لذا لم أندهش عندما قال لي:

- أنا عايز أحسم موضوع الصافية دا.

قلت له:

- سوف تموت.

قال بثقة لا معنى لها:

- أنا لن أموت مقتولًا، كلمتني قارئة فنجان وكف حلبية قابلتها في بورتسودان، أنا ح أموت غرقًا وفي عمر كبير، ربما بين السبعين أو الثمانين.

- كويس، هل قالت ليك ح تغرق بكامل أعضاء جسمك وأطرافك عيونك مثلًا؟

ضحك وهو يغلق باب الشارع خلفه، ولكني تلمست في ضحكه خوفًا جيدًا ومؤثرًا، وقالت لي نفسي إنه سوف يلغي المغامرة. وهذا مؤكد: أنا العارف به.

كعادتها في الأيام الأخيرة أخذت ألم قِشي عندما ينتصف الليل، تغلبها الوحدة، حيث إن أدّي الأم خصصتها لي وحدي أو هي التي خصت نفسها بي، تأتي إليّ في منزل مختار علي، ونمضي معًا إلى بيت أدّي، طلبت مني ألم قِشي ولأول مرة أن أجعلها تحبل مني بطفلة، قالتها واضحة هكذا:

- أنا عَايزة كِدا! عَايِزة بِتْ مِنّك! بِتْ سَمَحَة تشبهك كِدَا.

راقت لي الفكرة، وشحنتني بحماس شبقي رهيب، سيطرت على لساني ومكامن اتخاذ القرار في عقلي وكأنما أنا صاحب الفكرة أو أنني كنت انتظر مبادرة ما منها في هذا الشأن بالذات، وحتى لا يُطلق على ابنتي بنت حرام، في مجتمع متخلف كمجتمع الحِلة هذا، قلت لها:

- خلاص، ح أتزوجك.

قالت في هدوء:

- طبعًا.

قلت لها:

- إمبارح اتزوج جنقوجوراي اسمه عبدارامان كلتومة بت خميسة.

قالت ضاحكة:

- عبدارامان حمّلها ثلاث مرات، كان ساكن معاهم في البيت، ياكل ويسكر ويصاحب بالدين. حيطة العوضة كلها شخوط.

- كان مصاحبها؟

- أيوا، دا راجلها عديل، وهي دونه ما بتقدر وهي تحبه زي عيونها. لكن عرسها إمبارح؟ - الجنقو ما بيعرسوا إلا لمّان يفلسوا، ويعرسوا النُسوان العندهم قروش. وكلتومة دي عندها قروش.

- عندها قروش ودهب، أمها عندها شياطين وكُجور تجيب ليها أي حاجة عايزاها، عندها سُفلي كمان.

جاء ود أمونة في هالة من العطر في صحبة الفكي الزغراد وأدّي التي تلبس زي الحماسين القومي الأبيض الجميل، تحمل مذبة جميلة، حضر صديقي، مختار علي كان أبي ووكيلي، حضر نفر من الجيران والسكارى العابرين، تم عقد الزواج، باركنا الفكي علي وتمنى لنا ذرية خيّرة تزيد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، تبرعت لنا أدّي بسكن معها إلى ما شاء الله، أو أن نبني بيتًا خاصًا أيهما أقرب، تبرع ود أمونة بتجهيز ألم قِشي لي كلما أطلب منه ذلك ولكنه لم يفصح عما إذا كان ذلك مجانًا أم نقدًا، وأقامت لي الجالية من موظفي الشركة والآخرين الذين جاءوا من المدن الأخرى، أي الجالية، احتفالًا كبيرًا، جاءوا بفنان من القضارف وكان له الفضل في إدخال أغنية:

وصتني وصيتا

قالت لي اترجل

خليك في الواقع

أصلو الفراق واقع

كان ترضى كان تزعل.

التي أخذ الناس فيما بعد يرددونها في حفلاتهم، حفظها ود أمونة عن ظهر قلب، غناها العجوز بأم كيكي، بعد أن حوّر قليلًا في لحنها لتتماشى مع وترهِ الواحد وسلالمه الموسيقية العجيبة، في الحق هو الذي جعلها متاحة للجميع، ولجميع الأغراض، كأغنية سَيرة، وأغنية دلوكة، كأغنية كَلَش ودُبُك، كأغنية كيتا ونوّبة، كأغنية تُمْ تُمْ لترقيص العروس وقطع الرحط، وحينما طلب منه كردفانيون حنوا فجأة لرمال بلدهم، غناها لهم بإيقاع المردوم، وغناها لعزابة من الشمالية يعملون في الطُلمبة بإيقاع الدليب، بالإضافة إلى أنه مكنها من أن تصبح أغنية الحمّام المفضلة للجميع، ثم ظهر فستان وقميص وطريقة للبس التوب باسم وصتني وصيتا، بل سُميت بها طريقة لركوب الحمير، الشيء الوحيد الذي صعب على القرويين في الحلة هو ابتكار رقصة معينة محددة الملامح بهذا الاسم، وتم التأريخ لزواجنا بظهور هذه الأغنية في الشرق، وهذا ما اعتبرناه فألًا حسناَ، بالرغم من القصة الحزينة التي شِيعَ أنها السبب في تأليف الأغنية، والمصير المأساوي الذي آل إليه الشاعر المسكين، حيث إنه أصيب بالجنون بعد كتابة القصيدة مباشرة، ولم ينته الأمر هنا؛ بل إن الشاعر هام في فلوات الله الفسيحة وفي قرية على أطراف الخرطوم سقط في بئر مهجورة ومات شر ميتة، وليتها كانت هذه هي النهاية للمأساة ولكن حبيبته المسيحية الجنوبية الجميلة التي رفض والدها أن يزوجها له،

عميـت مـن البـكاء، وشِـيع أن أول قصيـدة كتبهـا هـذا الشـاعر في حياتـه وآخـر قصيـدة هـي وصتنـي وصيتـا، ورغـم ذلـك، اعتبرنـا ألم قِـشي وأنـا أن ارتبـاط زواجنـا بهـذه الأغنيـة فـأل خـير، لأن بهـا، في كلماتهـا: جوامـع وكنائـس، أجـراس ومعابـد، وأهمهـا وجـود المنجـل، حيـث إنـه مـن الأشـياء المشـكورة في الحلـم، هنـا في الـشرق.

في مديح الحبشيات

في هـذه الأيـام تشـكو النسـاء بـأن: السُـوق بارد. حيث تكسـد المريسـة وتبـور وتـضرّ بهـا سُـخونة الجـو، فتصبـح حامضـة وتفسـد، يكسـد عرقـي البلـح أيضًـا، وقـد يتوقفـن عـن صُنـع العسـلية إلاّ بالطلـب، لأنهـا مكلفـة وتفسـد بسرعـة، ويَقُـل المـال المتـداول في الحلـة، تنتعـش روح المقايضـة وتصبـح مسـؤولية كل ربـة منـزل أن تحافـظ عـلى تماسـك أسرتهـا في هـذا الفصـل، الصيـف، مـا أمكـن، فالمسـألة مسـألة حيـاة أو مـوت، والاعتـماد عـلى الرجـل في هـذا الموسـم بالـذات، ليـس سِـوى عمليـة تعجيـل الطـلاق أو إفسـاد هـدوء المنـزل، وقـد يعرضهـا هـي وأبناءَهـا للضرب. كنت اسـتمع باهتـمام لألم قِـشي، لقـد أصبحنـا مـن لحـم ودم ونحـن الآن مشـغولان في إنجـاب الطفلـة، بنشـاط وهمّـة وعمـل دؤوب، وفيـما يشـبه اسـتراحة المحـارب، كنـا نحتـسي القهـوة بالزنجبيـل، كانت تحـكي لي، بلكنتهـا الخفيفة المنعشـة التـي هـي كرائحـة الـبُنِ الحبـشيِ التـي هـي كالصبـاح عـلى شـاطئ النهـر، كتنهيـدة حبشـية تعشـق، دعـوني هنـا أمتـدح الحبشـيات قليـلًا، دعـوني أصـف الهالـة السـوداء السـاحرة حـول أعينهـن، هـي ميـزة تخـص سـكان الهضـاب وحدهـم، دعـوني أصـف كتفهـا وهـو يشـبه كتفهـا وحسـب، ربمـا، صُنِفـتُ اليـومَ مـن الرجـال العِّنيَنـين، وهـم صنـف مـن الرجـال لا تفـك طلاسـم حزنـه سـوى امـرأة، ولكـن أي النسـاء؟! تحـررت مـن عنتـي في ظـل لمسـات هـذه السـاحرة، في ظـل صـبر أناملهـا المجنونـة الشـبقة، في ظـل ظليـل مـن ذات صبرهـا، ذات معرفتهـا، ذات صُوفيتهـا، ذات جَنونهـا، ذات حِنكتهـا، سِـكَتِها، ذات حبشـيتها، ودعـوني أقـول: وأنـا في هـذا الجـذب العنيـف، دعـوني أقـدر أن النسـاء في الكـون اثنتـان إمـا حبشـيات وإمـا أخريـات، أمـا الحبشـيات فحبشـيات، أمـا الأخريات فشـتى: فمنهـن العامـلات والعاطـلات وذوات الجنسـيات، اللاجئـات، المغتربـات،

الجنقوجورايات، النحيفات، ذوات الأرداف، العالمات، المعلمات، النبيات، الطالبات، العاشقات، العشيقات، الطويلات، الجَدات، السكرانات، المحاميات، القاضيات، الصحفيات، ذوات الكعب العالي، الناكحات، العطشى، اللائي يضعن نظارات طبية سميكة، الناظرات، الضاحكات، اللائي يمشين كما يمشي الوَجى الوحِلُ، الراقصات، العاريات، اللابسات، الزانيات، العفيفات، الشريفات، النظيفات، التقيات، البائسات، الجائعات، الأمهات، الصديقات، الأخوات، البنات، الشاعرات، الكاتبات، اللات، السَامَايَاتْ. كانت ألم قِشي تحكي لي، زوجتي وحبيبتي ألم قِشي، وهذا مقام ضد العِنّة، وتسألني عن خوف الرجال المميت من العِنّةْ؟ قال لي ود أمونة ذات مرة:

-أنا حلمت كم مرة امرأة، وكنت فرحان جدًا جدًا.

ولكنني أنا أحب أن أكون رجلًا، رجلًا يضاجع النساء بقدرة وفعالية ويقذف في أرحامهن ويجعلهن يحبلن ويلدن، ولا أفهم كيف يرغب ود أمونة أن يكون امرأة، لأنه ببساطة أن تكون امرأة يعني أن تتحمل الرجل وهذا أسوأ ما في الأمر، لعمري كيف يمكن تحمل مخلوق بهذه البجاحة والأنانية والعنطظة؟

قالت لي ألم قِشي إنها تزوجت من قبل، من رجل في همدائييت اسمه موسى حربة حربة، له أسرة تعمل في التهريب، إلا هو، فكان الجنقوجوراي الوحيد في الأسرة، كانا يسكنان الجِيرَةْ في بيت على شاطئ النهر مباشرة، ولأنه ليست هناك منازل للأثرياء وأخرى للفقراء، فكانا يسكنان كما يسكن الجميع، قطية كبيرة، أمامها راكوبة من القش والعدار، لها سور من أشواك الكتر وقصب الذرة، كانت تعمل في الصيف مثل كثيرٍ من النساء في صناعة الخمور البلدية، وفي كل ثلاثاء تصنع برميلًا من المريسة. هو لا يفعل شيئًا سوى لعب الكوتشينة تحت الأشجار الظليلة مع العساكر، أو أحيانًا يذهب في رحلة القنيص

لصيد الأرانب، الحَلُوفْ، القرود والأصلات في غابة زهانة، مرّة مرّة يذهب لسوق الكترة شاريًا أو بائعًا، اعترفت لي بأنها أنجبت له بنتين، هما الآن مع أسرته في همدائييت، بنتان جميلتان تدرسان بالمدرسة الابتدائية، الكبرى في الصف السابع والصغرى في الصف الخامس، طلّقها في صيف ساخن جاف مغبر قبل ثلاثة أعوام، لا لسبب واضح سوى أنها قالت له: ابقى زي الرجال، خلي الكسل واشتغل في الجيش أو التهريب. فأخذ البنتين إلى أبيه الثري بهمدائييت، عندما عاد، أقام مع امرأة مطلقة في حي

السوق، ولكنه انتظم في زيارتها، مرتين في الأسبوع على الأقل عند منتصف الليل، مدعيًا أن له حقًا فيها طالما لم تتزوج إلى الآن، ومن حقه أن يعيدها إلى عصمته وقتما شاء وأن يضاجعها وقتما أراد، طالما لم يُعطِها قسيمتها بعد، فهو شرعًا زوجها، وأكد لها:

- اليوم الألقى راجل معاك ح أكتله وأكتلك.

لم يقف أحد في صفها، كان عليها أن تقبله كما هو، لأنه ليس استثناء، هي الاستثناء والنشاز، هي نفسها. قالت ألم قِشي في حنان وهي تمدُّ لي يدًا بها فنجان قهوة يرسل بخارًا شهيًا في الهواء:

- إنت زول تاني.. ما بتشبه رجال البلد دي، عشان كِدا أنا حبيتك وقلت إنت التستاهل تكون أبو بتي، لأنها ح تاخد طبعتك، فهمت ولا ما فهمت.

ليس هناك ما أفعله في الحلة، كانت الأيام تتمطى مثل كلب كسول تحت زير ماء ندي، كل ما يجب أن يقوم به رجل قد مضى أوانه، والآن أوان الكسل، مصاحبة النساء، الاستدانة عن طريق رهن الزينة، والبعض يعمل في تنظيف الأرض وصُنع الفحم، عنّت لي فكرة أن أمتلك أرضًا زراعية على تخوم خور مغاريف، وأقوم بخدمتها وتنظيفها بنفسي حتى لا يُقضى عليّ ضجرًا، وأنا رجل لم اعتد على أن

تقـوم النسـاء برعايتـي مقابـل المصاحبـة أو إشـباع السريـر، تبقـى لي مـن التأمـين الاجتماعـي مبلـغ يوفـر لي أرضًـا رخيصـة وشاسـعة، لمَ لا أغامـر وأتـرك التِرقِـدْ والتِجِـدِعْ في البيـوت؟ اسـتشرته في الأمـر، ولكنـه فضّـل أن يقـضي هـذا الصيـف في المدينـة وربمـا سـافر إلى أديـس أبابـا أو القاهـرة، حيـث إنـه يـود حضـور معـرض الكتـاب الـدولي في شـهر فبرايـر، واقـترح عـليّ أن آخـذ أمِ قِـشي إلى المدينـة لأن الحيـاة لا تُطـاق هنـا في هـذا الفصل، سـألني سـؤالًا مباغتًـا:

- ما سألتني عن الصافية؟

قلت له ضاحكًا:

- الناس كلها تعرف تفاصيل التفاصيل.

يَعـرفُ أنـه قـد أصبـح مـن أسـطورات هـذا المـكان، الأسـطورات الأكـثر إدهاشًـا، يكفـي أن يذكـر اسـمه حتـى تلهـج الألسـن بحكايتـه مـع الصافيـة، التـي يحكيهـا كل مـن شـاء، كيفـما شـاء، أينـما شـاء، لمـن يشـاء. لكـن أقـرب الحكايـات إلى الواقـع والدقـة هـي الحكايـة التـي سـوف أحكيهـا أنـا، العـارف بـه، كـما أننـي اعتمـدت في حكايتـي، كما سـتلاحظون، عـلى كثـير مـن المصـادر وقارنـت، وثقفـت الأقاويـل، بـل إننـي أقمـت مـا يشـبه النـدوة في بيـت أداليـا دانيـال، يـوم مريسـتها، بالسـبت، وحضرهـا الفـكي عـلي وهـو رجـل مشـهور بمعرفـة المسـتور وفضـح النوايـا الحسـنة منهـا والسـيئة عـلى السـواء، بـل يسـتطيع التنبـؤ بتاريـخ مـوت الأشـخاص وميـلاد أطفالهـم، حيـث إن لديـه كتبًـا مثـل: الجلجلوتيـة، أصـول الفقـه، شـمس المعـارف الكـبرى، أبـو معـشر الفلـكي الكبـير والصغـير، واضـح البيان في اسـتخدام الجـان، وكتـاب الطاسـين المشـهور. وهـو أكـره النـاس للخرافـة وشـطط القـول، لأنـه يسـتخدم العلـم: علـم الكتـاب. كان صديقـي معنـا أيضًـا، ولكـن أحـدًا لم يعتمـد روايتـه، حتـى أنـا نفسـي لأنهـا كانـت الأبعـد عـن الواقـع، بـل رأى الجميـع فيهـا الكـذب بعينـه والخرافـة بقرونهـا، وقـد

أقسم مرارًا على أنه يقول الحق، وأنه يحكي ما حدث له بالضبط دون زيادة أو نقصان، إلاّ أن الناس فيما يُشبه الندوة في بيت أداليا دانيال يوم مريستها بحضور الفكي علي الزغراد، اتفقوا على أن يعتبروا كلامه كلام زُول سكران لا أكثر، وقد احتج على جملة الفكي علي، ولكنه لم يغادر الندوة، وأخذ يستمع في صبر إلى حكايته الصحيحة مع الصافية، يَقُصها المنتدون، يتحدثون بلسانه، يجرون حوارات يُفْتَرَضْ أنها وقعت بينه والصافية، بل إنهم يغرقون في تفاصيل ما حدث بدقة، بتأكيد وطمأنينة عظيمين، لم يحاول الاعتراض على شيء لأن لا أحد سوف ينتبه له، كل ما يعتبره حقيقة يعتبره الآخرون تخريفًا، كذبًا وتلفيقًا، وإتلافًا متعمدًا لوقائع اعتبرها الناس مِلْكًا لهم. لا يختلف اثنان على أنه طرف في الحادثة؛ ولكن الحادثة لا تخصه وحده، بل قد لا تخصه إطلاقًا، إلى أن انفض الجميع، حيث ذهب ثلاثتنا إلى منزل مختار علي، صلينا العشاء في جماعة، تعشينا، نامًا، ذهبت أنا إلى قُطيتي في بيت أدّي حيث تنتظرني ألم قِشي في صحبة ود أمونة.

هدايا ونصائح لود امونة

افْتُتِحَ البَنكُ في وقت حُسِبَ بدقةٍ ليواكب المَوَسِمْ الزراعي لهذا العام. وجاء الموظفون ونزلوا في ضيافة شركة الاتصالات، إلى أن تكتمل اللمسات الأخيرة لميس خاص بهم، تَم بناؤه من المواد الثابتة وشبه الثابتة ليوائم المُناخ وطبيعة المكان، كان يدور حوله صريف من القصب والشُوك كغيره من بيوت السُكان، ولكن بُني الجزء الأسفل من القطاطي بالطوب الأحمر والحجر، الجزء الأعلى من القَشْ النال والقنا، كما تبتنى القطاطي عادة في الحلة.. أول من تعرف عليه موظفو البنك كانت ألم قِشي.. كونها تعمل في ميس شركة الاتصالات، وعندما سألوا عن شخص يعمل معهم كمراسلة.. اقترحت عليهم ود أمونة دون تردد.. كان الشخص الوحيد الذي بدا لها مفيدًا، في هذه المِهنة، ولربما لمعرفتها التي اكتسبتها من معاشرة أولاد المُدن في ميس الشركة، ولمعرفتها لود أمونة، حيث إنه طيع وطائع وسهل التعامل، ويمكن إرساله لأي غرض مهما صغر، كإشعال سيجارة مثلًا، ومهما كَبُرَ كخطبة امرأة.. فلا يشكو أو يتبرم.. دائمًا ما يُرى نظيفًا طلق الوجه، لا يسكر إطلاقًا بالنهار مهما كان الندامى، أما عند الليل فليس قبل أن يتأكد من أن لا أحد يحتاج إلى خدماته.. شخصٌ مثله نادرًا ما يُوجَدْ، حيث السِمة العامة للرجال هنا هي الفظاظة والرعونة والرائحة النتنة: ود أمونة.. ود أمونة.. ما في غيره.. ظريف وسيم مؤدب طيع ومسكين ويترسل. حدثتهم.. بأنه يعمل الآن في بيت الأم بأجر زهيد، وشرحتْ لهم الصفات التي اعتبرها بعضهم نعمة. لم يرفض، شَكَرَهَا.

اشترى بنطلون وقميص وصتني وصيتا جديدين، وذهب للعمل. في الحقيقة الأم هي التي أعطته المال ليبدو بمظهر يليق بمراسلة، كان يعمل عندها منذ زمن طويل، ومثل أم رؤوم دعت له بالتوفيق

والنجـاح في مهنتـه المقبلـة، وطلبـت منـه أن يبتعـد عـن خِصْلـةٍ وحيـدة سـيئة، رافقتـه منـذ الصغـر: «اوعـك مـن القُوالـة والسُـواطة». وتقصـد الأم: نقـل الـكلام مـن زول لـزول.

أرسـلت لـه أمـه أمونـة مـن القضـارف، حيـث تتـزوج وتسـتقر، عندمـا عرفـت بوظيفتـه الجديـدة؛ حـذاءً جديـدًا مـن الجلـد الأصـلي، دعـت لـه بالخـير والبركـة وحذرتـه مـن خِصَلـةٍ وحيـدةٍ سـيئةٍ فِيـه، رافقتـه منـذ أن أخـذ يعمـل عنـد الأم: «اوعـك مـن فَـشْ أسرار النـاس». وتقصـد أمونـة: علاقـات النـاس العاطفيـة وعاداتهـم التـي يريـدون أن تبقـى سريـة.

أهدتـه أداليـا دانيـال سـاعة سـيكو جميلـة لهـا خلفيـة ذهبيـة كانـت قـد اشـترتها مـن أحـد الجنقـو قبـل موسـم مـضى، وحذرتـه مـن خِصْلـةً واحـدة سـيئة فيـه اتصـف بهـا منـذ أن عرفتـه: «اوعـك مـن التعرصـة»! وتقصـد أداليـا دانيـال، عـدم المقـدرة عـلى مقاومـة الرغبـة الجامحـة نحـو جعـل كل فتـاة جميلـة، تنـام مـع رجـل مـا ويكـون الفضـل لـه في ذلـك وحـده، وعندمـا يتـم مثـل هـذا اللقـاء، يشـعر ود أمونـة بـرضى في نفسـه ولـذة لا تشـبهها لـذة أبـدًا.

أرسـل إليـه فـكي عـليْ طالبًـا أن يبـارك وظيفتـه الجديـدة، أعطـاه حِجابًـا يقيـه مـن الحسـد والغـيرة وأولاد الحـرام وبنـات الحـرام، وحـذره مـن خِصْلـة واحـدة سـيئة فيـه، عرفهـا عنـه الفـكي منـذ عامـين ونيـف: «اوعـك مـن النسنسـة والدَسْدَسَـةْ والخَسْخَسَـةْ». ويقصـد الفـكي عـليْ، فِعلـة كان هـو طرفـا فيهـا، والطـرف الآخـر الشرطـة، ولُقِّـنَ فيهـا الفـكي درسًـا لـن ينسـاه.

طلبتـه بُـوشِيْ، أهدتـه شريـط أغنيـات حبشـية وقـارورة عطـر، وحذرته مـن خِصْلـةٍ وحيـدة فيـه، إذا تركهـا فانـه سـيمتلك القلـوب.. قالـت لـه: اوعـك مـن الكـذب. وتقْصِـد مـا شـهد بـه فيـما يُشْـبُه نـدوةٍ بغيضـةٍ عُقِـدَتْ ببيـت أَدّيْ الخريـف المـاضي، نُوقِشَـتْ فيهـا حقيقـة عذريتهـا.

أرسلت له العازة هدية من سجنها بالقضارف، وهي عِبارة عن شَالٍ من الصُوف، صنعته بيديها، وأوصته بأن هنالك خصلة واحدة فيه، عليه الحفاظ عليها، وهي: الوفاء. وتقصد كما هو واضح وجلي، التزامه نحوها بدفع ما عليها من دِيّة، حتى يتم إطلاقها من السجن.

وطلبه كثيرون لأجل هدايا ووصايا، إلاَّ أنه اعتذر في أدب جم، في أن الوقت لن يسعفه وعليه الذهاب إلى العمل. مضى وفي ذهنه وصيةٌ واحدةٌ همستْ بها نفسهُ إليه قائلة:

اوعك يا ود أمونة تخلي الفرصة تفوتك.. اطلع فوق.. فوق.. فوق.. فوق.

بالتأكيد، حتى تلك اللحظة لم يكن في ذهن ود أمونة ولا في مُخيلته، أو في مُخيلة أي مخلوق آخر، أن ود أمونة سوف يصعد إلى أعلى (فوق.. فوق.. فوق.. فوق) لدرجة أن يصبح وزيرًا اتحاديًا بعد عشر سنوات فقط لا غير، وهي قصة مُدْهِشة سيرويها صديقي في كتابه التوثيقي: ثَـوْرةُ الجَنْقُوجُورَايَـاتْ.

جاء إلى بيت الأم في الصباح الباكر ستة من الجنقو، في صحبتهم ثلاث جنقوجورايات أخريات ومعهم الصافية، عشرة في تمام حالهم وكمالهم، قابلتهم في الديوان، وهو حيث يُسْتَقبل الضيوف في بيت الأم، قالوا إنهم يريدون الذهاب إلى البنك طالما كان هذا البنك للفقراء والمساكين من المزارعين كما قِيل في خطبة جمعة قبل عام مضى، في الحق لم يحضرها أي من الحضور، حتى الفكي الزغراد نفسه كانت عنده حَضَرةٌ في ذلك اليوم من جن جاء على عجلٍ من بلاد الفِرنجة، كما فسر سر غيابه لاحقًا. أكدوا أنهم يريدون سلفية من المال، تمكنهم من شراء مشروع كبير ينظفونه بأنفسهم ويحرثونه بوابور يشتريه البنك لهم أيضًا، مزودًا بِمِحراث من ماركة جيدة تم تحديدها بدقة فائقة: موديلًا، ماركةً، صناعةً ولونًا. إذا صادفت السلفية خريفًا

جيـدًا كريمًـا معطـاءً، سـيعيدون أصـل الديـن في ذات العـام. «وتفضـل لينـا شُـويّة حربَشَـات نتقاسـمها». قـال أبرهيـت وفي فمـه ابتسـامة كبـيرة جعلـت شـاربه يبـدو طويـلًا وعريضًـا، ثـم أضـاف:

- ونرجِّـع للبنـك الأربـاح السـنة البعدهـا، وبعـد داك يكـون البابـور والدسـك والمـشروع ملكنـا نحنـا برانـا، ولا كيـف يـا أخوانـا؟

قلت له:

- كلامـك في مكانـه، ولكـن زي مـا عارفـين، الموضـوع دا يحتـاج لدراسـة جدوى.

سـأل جنقوجـوراي صغـير الحجـم، أنيقًـا، يحمـل قلـمًا ونوتـة في جيـب قميصـه التـرون، كان يجلـس مـا بـين أبرهيـت وإحـدى الجنقوجورايـات:

- شنو دراسة الجدوى دي؟

ثم تساءلت الصافية:

- يمكن نشتريها من سُوق القضارف، مهما كلّف؟

طلبـت منهـم أن يمهلـوني أيامًـا قلائـل وبإمـكاني إعدادهـا لهـم: تلاتـة أيـام بـس. كنـت أرى أحلامهـم بالنجـاح والـثراء بـأم عينـي تتطايـر حولنـا، تمـلأ المـكان إنشـادًا، بهجـة، ووداعًا قبـل أن يذهبـوا، انتحـى بي أبرهيـت جانبًـا واعتـذر لمـا بـدر منـه مـن رعونـة، في موضـوع صديقـي، وأنـه ظنـه مرسـلا مـن قبـل الأمـن، حدثنـي عـن بعـض المصاعـب التـي لا يـزال يُعـاني منهـا مـن جهـات كثـيرة، أمنيـة ودينيـة متطرفـة، نسـبة لـدوره المزعـوم في ترحيـل الفلاشـا لإسرائيـل عـام 1985م، وانـه مسـتهدف. وقَـدّم ليّ نِيَابـة عـن المجموعـة، هديـة مرتجلـة وهـي زجاجـة كونيـاك، قالـوا فيـما قالـوا إنهـا مفيـدة لرجـل تـزوج حديثًـا مـن حبشـية جميلـة كانـت تعمـل في بيـت أدّي، احتفلنـا أنـا وألم قـشي، احتفـالًا صباحيًـا بالهديـة، تناقشـنا في فكـرة الجنقـو الخطـيرة، سـألتني ألم قِـشي سـؤالًا مباغتًـا:

- بتظن البنك حيسلفهم؟

قلت لها:

- مـا عـارف، ولكـن نكتـب ليهـم دراسـة الجـدوى، بعـد داك اللـه كريـم.. يمكـن.. ويمكـن، مـا في شيء عنـد اللـه بعيـد.

أمـا بينـي وبـين نفـسي، فكنـت أعـرف النتيجـة مسـبقًا، واسـتطعت أن أتخيـل تمامًـا منظـر الجنقـو وهـم يُطْـرَدُون مـن البنـك شَرّ طـردة، وأنـا معهـم أعتـذر أو أتوعـد، الأمـر سـيّان، ولكـن عندمـا ردت ألم قِـشي معلنـة:

- الناس ديل وراهم الفكي علي الزغراد ذات نفسه.

وفـكي عـلى كـما هـو معلـوم لا يعمـل بالقـرآن وحـده، ولا بالكجـور وحـده ولا بالشـجر أو السـحر الأسـود، ولكنـه يعمـل بالكتـب والقـرآن، السـحر، التنجيـم وعلـم الحـرف، ولديـه خُـدام، وبإمكانـه أن يفعـل مـا ينـوي فعلـه. قالـت:

- فكي على يَدهُ لاحقة.. فكي علي يرَوِّب المُوية عديل كدا.

أنـا أحـد أصدقـاء فـكي عـلي، تعجبنـي حياتـه البسـيطة، ثقتـه العاليـة في نفسـه وعلمـه وفعـل يـده، رائحـة أثوابـه وجسـده الخليـط مـن الصمـغ والوبـر وشيء مـن الجلـد المدبـوغ، تعطيـه مسـحة غمـوض وتؤكـد فيـما تؤكـد تفـرده في كل شيء حتـى شـميم الثـوب، لديـه فهـم للديـن، ليـس متقدمًـا أو متخلفًـا، ولكنـه غريـب، وبخاصـة في مسـألة شُرب الخمـر والتكليـف، حيـث يـرى أن النـاس عنـد اللـه ليسـوا مسـلمين وغير مسـلمين، ولكـن نسـاء ورجـالًا وأطفـالًا، فالأطفـال والنسـاء غـير مكلفـين بالعبـادة لأن لا مـكان لهـم في موضـوع الثـواب بالجنـة، فالجنـة للرجـال وحدهـم لـذا عليهـم دفـع تكلفـة مـا سـيجدونه في الجنـة هنـا في الدنيـا، أمـا في الخمـر فإنهـا محرمـة عـلى السُـفهاء والصعاليـك فقـط لأنهـم يتخذونهـا لهـوًا، أمـا الخـيرة والصفـوة والمتأدبـون مـن النـاس بمـن فيهـم الحـكام

والفقهـاء والقضـاة، والفُكَيـة، فإنهـا خـير جليـس لهـم. وقـال:

- أفـكاري دي كلهـا كلمنـي بيهـا إبليـس ذاتـه، إبليـس دا كان واحـد مـن الملائكـة وأكثرهـم علـمًا وقربًـا مـن اللـه، النـاس مـا تسـتهين بيـهُ.

الكونيـاك الحبـشي ألـذّ طعـمًا وليسـت لـه آثـار اليـوم التـالي للـشُرب مـن صُـداع نصفـي مـؤلم، حرقـان أو غثيـان، كل مـا يفعلـه بـك أنـه يجعلك تتبـول كثـيرًا وتتشـهى ممارسـة الجنـس، سـواء كنـت امـرأة أو رجـلًا، الأحبـاش يسـتوردونه، ويصنعونـه أيضًـا، أمـا الإريتريـون فإنهـم يصنعونـه بإمكانـات محليـة لا بـأس بهـا في الغالـب، أنـا أفضـل الحبـشي. احتفينـا عنـد منتصـف النهـار، وعنـد المسـاء في الحلـم جـاء إلينـا الجنقـو، عـلى ظهـور حُمـر الوحـش، تتبعهـم أشـجار السِمْسِـمْ وعيـدان قصـب الـذرة وعـلى رؤوسـهم تبيـض السـمبريات والعشُوشَـايَاتْ، أخـذوا دراسـة الجـدوى وتركـوا لي حميرهـم الوحشـية، في معيـة خريـف مطـير طينـي، وشـمس حارقـة كالنـار.

الجنقو يدخلون البنك

أرجو ملاحظة أنني تجنبت تمامًا كل التفاصيل التي ذكرها صديقي لي شخصيًا عمّا وقع بينه والصافية؛ ما عدا تلك التي وافقت ما تحدث به الآخرون عنه وعن ود فور، ولكن اعتمادي الأكبر كان على المعلومات التي تدفقت في بيت أداليا دانيال يوم مريستها في سبت مضى عندما أقامت ما يشبه سيمنارًا أكاديميًا حول ما اصطُلح على تسميته في تلك النواحي بحكاية الصافية، وسيُلاحَظ تأثري بالوقائع التي اعتبرها الفكي علي حقائق ثابتة، أولها وأهمها أن الصافية تمتلك عضوين تناسليين، واحد يخص الرجال والآخر يخص النساء، والذي يخص الرجال مكتمل وكبير الحجم ويختفي تحت شعر عانة كثيف وشائك، أما الحقيقة الثانية التي لا يتسامح في شأنها فكي علي فهي أنّ الصافية فعلت بالرجلين فعل الذكر بالأنثى، وأن ذلك مؤكد، ولديه دليلان لن يُذكران هنا. هنالك أيضًا حقيقة يشك الفكي علي قليلًا في صحتها، ولكنه لا ينفيها، ورغم ذلك فقد حلف بجده لأبيه سليمان الزغراد السناري أن يزهق روحه في الحين والآن، أن للصافية بنتًا وولدًا من امرأة بازاوية تسكن الآن في مشروع دُومْ، واسمها نِعْمَة مَشَاكِل، وهو يعرفها ويعرف أمها وأباها، وقد رأى البنت والولد بعينيه الكائنتين الآن في رأسه ووجهه، أما فيما يخص تحول الصافية إلى مرفعين أو أسد أو ما شابه ذلك من حيوان فهو جائز، والمسألة عنده تتمحور حول اللبن؛ والمؤكد عنده أن تَيَراب البِنَيّة، يُورث عن طريق لبن الأم المُرضع ثم قاس على ذلك. إذا نظرنا بدقة إلى حقائق وجوائز وتشكُّكات الفكي علي، ثم قرأناها في إطارها الصحيح الذي هو مجموع قوالات وإفادات ومداخلات وما دار همسًا فيما يشبه الندوة في يوم مريسة أداليا دانيال ببيتها، وما تطابق من شهادتي

الرجلين اللذين خاضا تجربة واقعية وفعلية مع الصافية مع قوالات وحكايات وحقائق وجوائز وتشكُّكات الناس والفكي علي، وحذفنا من حكايتيهما كل ما شذّ عن ذلك مع الإهمال التام والمتعمد لمحكيات الصافية عن نفسها، لأنها لا يُتوقع منها أن تقول سوى الجانب المشرف من الحكاية، أي الجانب الذي يجعلها تبدو كضحية لقوى خارقة خارجة عن إرادتها وضحية لبني الإنسان. وأنها، كما يُقال، اعتمدت على بعض القوالات الدائرة في الحِلة واعتبرتها حقيقة، ما شوش تفكيرها وخلط عليها الواقع بالمتخيل مما صاغ الأهالي سهوًا، وأنها، كما قال الفكي علي الزغراد واصفًا حالها، «تشابه عليها البقر». قبل أن أحكي، حكاية الصافية؛ بالصورة النهائية التي اعتبرها الحقيقة الكاملة فاجأتني أداليا دانيال باعتراف خطير حدث قبل أكثر من ثلاث سنوات، يوم كان الناس في عز الخريف والعمال مشغولين بكَديب العيش، وفحواه، مع بعض التصرف من جانبي، قالت أداليا:

- جاء التاجر فلان الفلاني، صاحب أحد المشاريع الكبيرة تخوم زهانة، ولم يكن اليوم يوم مريستي، يوم أحد، طلبت مني الصافية وأن أحضر لهما عرقي وعسلية من الحِلة، مشيت لبيت أدّي، وأحضرت لهما كل شيء، وكانا قد أحضرا لحمة من السوق، إلاّ أنني اعتذرت لعدم تمكني من طبخها، لأنني ذاهبة إلى الكنيسة وقد سبقني زوجي وولدي وابنتي إلى هناك، تركتهما يشربان ويطبخان في الراكوبة الكبيرة قُرب اللالوبة، بعد أداء الصلاة، عدتُ تاركة زوجي، حيث إنه يعمل على خدمة بيت ربُنا إلى ما بعد المغرب، أما ابنتي والولد الذي يصغرها بسنتين، هي في الرابعة عشرة، فتركتهما مع الشباب الذين في عمرهما، حيث إنهم غالبًا ما يبتكرون برامج شائقةً تبقيهم مع بعضهم البعض إلى أن تغيب الشمس، كان بين بيتنا وبين الجيران باب صغير غالبًا ما نتركه مفتوحًا؛ ولأن بيت الجيران هو الأقرب للكنيسة، دخلتُ عَبْره، ثم إلى الراكوبة مباشرة، حيث وجدت الصافية تعلو

جسد الجلابي الأسمر المستلِّذ، المستكين تحتها، منكفئًا على وجهه، صرخت أداليا في دهشة: سَجَميْ. حينها فقط تنبها، فانتزعت الصافية شيئها من لحم الجلابي الذي بوغت حتى أحدث، وبدا عليهما خليط من القلق، الحزن، العرم، والخوف الشديد، وأخذا في الاعتذار وطلب السُترة. وعلى الرغم من أن أداليا، حسب إفادتها، رفضت المنحة المالية الكبيرة التي عرضها عليها الجلابي، فإنه أصر وأقسم وحلف بالطلاق وترك لها المال. قالت أداليا:

- مشوا بيت الأم، الوقت داك ما كانت الصافية عندها بيت، وأنا من اليوم داك عرفت إنو الصافية دا راجل ومرا في نفس الوقت، وعملت حسابي منها.

ولم تخبر أداليا أحدًا بهذه القصة غير الفكي علي الزغراد، وهو بكل سرية وتحفظ حدّث بها الجميع، أكدت لي أداليا أن شيئها لم يكن طويلًا؛ ولكنه قصير وسمين وأسود ومحشور وسط الصوف، أما الفكي علي فقد وصفه مستخدمًا كلمة واحدة فقط:

- كبير!

بالرغم من أنني لا أميل إلى نشر ادعاء صديقي الذي تبجح أمامي ومختار علي بالقول بأنه أجبر الصافية على حلق شعرها فوجدها امرأة كاملة بل وعذراء، وأنه أول رجل في حياتها، فإن ذكر تلك الحكاية يفتح أمام الجميع نافذة للفهم والولوج إلى عين الحقيقة، وذلك إذا أضفنا جملته القاطعة:

- أنا نَجمتّها (جعلتها ترى نجوم الظهر)، مُشْ هي النَجّمتنِي.

ربما أربك مشروع الصافية هذا مشروع دراسة الجدوى، لأن همّ الناس الآن وقضية ساعتهم هي إدراك حقيقة الصافية والبنك ملحوق، فما زلنا في شهر يناير، ولكن هناك دائمًا من يشذ عن القاعدة، وعلى

رأس هـؤلاء الصافيـة ذاتهـا، جـاءت في وفـد مـن ثلاثـة رجـال تسـأل عـن دراسـة الجـدوى. قلـت لهـم:

- معليش أنا آسف، ما قدرت أكملها، كنت مشغول شوية.

قالت الصافية في جرأة:

- في موضوع صاحبك؟

قلت مراوغًا:

-في هموم كتيرة، ولكن بكرة الصباح بكون خلصتها.

قالـت بصـورة حـادة وجـادة أخافتنـي وهـي تحمّلِـقْ في أم عينـي بمقلتـين حمراويـن شرسـتين:

-أحسـن تشـوف المواضيـع الفيهـا فايـدة، وتسـيب القُـوالات والصُواطـات للشراميـط واللوايطـة والمُعَرَصـين.

وقالتها بطريقـة تعنـي تمامًـا أننـي مـن هـذه الفئـات الثـلاث والأخـيرة بالأخص.

أبرهيـت، الصافيـة، مختـار عـلي، لام دينـق زوج أداليـا دانيـال، الفـكي عـلي ود الزغـراد وأنـا، حملنـا دراسـة الجـدوى مكتوبـة عـلى ورق فلوسـكاب نظيـف، اسـتبدلناه أكـثر مـن ثـلاث مـرات حتـى يليـق بمكانـة البنـك الراقيـة، ومضينـا. كان البنـك مبنـى فخـمًا متعاليًـا ومنتفخًـا مثـل فيـل مغـرور، عـلى كل كلنـا كنـا نـراه جميـلًا وغريبًـا، كان مطليًـا بالدهـان الأخـضر الداكـن، وهـو المبنـى الوحيـد في تلـك النواحـي الـذي بُنـيَ مـن طابقـين كاملـين، وأخـذ النـاس يتجادلـون في كيفيـة الصعـود للمديـر وماهيـة السـلام أو المصاعـد وكيـف أنهـم سـوف يسـتخدمونها، وحسـم التكهنـات ود أمونـة الـذي عمـل مراسـلة منـذ أيـام بالبنـك وانتهـز فرصـة أنـه خـالِ مـن مرسـال مـا لدقائـق وأخـذ يثرثـر مـع الجنقـو خـارج البنـك،

عـن البـلاط المزايكـو والسـلالم الإفرنجيـة ومعطـر الهـواء والمكيفـات التـي تعمـل بالكهربـاء والمـاء، وحذرهـم بأنهـم قـد ينزلقـون فتنكـسر أيديهـم أو أرجلهـم ولا يُسْـتَبَعَدْ أن يدقـوا أعناقهـم أيضًـا، كانـوا يبتسـمون إليـه في حـذِّر. ثـم دخـل إلى البنـك، ثـم خـرج ليطلـب منـا دخـول الاسـتقبال، كان كل شيء نظيفًـا ولامعًـا، مـا عـدا الجنقـو رغـم أنهـم كانـوا قـد عملـوا المسـتطاع كي يأتـوا في أبهـى مـا يُمكـن، هـم الآن الأكـثر اتسـاخًا في المـكان الـذي عمـل عـلى نظافتـه منـذ السـاعات الأولى مـن صبـاح اليـوم ود أمونـة ومعـه امرأتـان غريبتـان أتى بهـما البنـك خصيصًـا للنظافـة مـن مدينـة الخرطـوم، ولأن غريـزة موظـف البنـك تعمـل بنشـاط عندمـا يحـوم خطـر عـلى المـال، انتهرنـا الكاشـير:

- هـي.. في شـنو.. ديـل عايزيـن شـنو يـا ود أمونـة؟! أنـا مُـش قلـت ليـك مـا تدخـل النـاس سَـاي؟ قلـت لـه وقـد تقدمـت نحـوه قليـلًا:

- نحن عايزين نقابل مدير البنك.

قال بذات اللهجة الجافة:

- عايزين مِنّو شنو؟ قلت له:

- عندنا موضوع معه.

قال في بجاحة:

- عندكم مواعيد ولا لا؟

قلت:

- لا.

قال:

-هل ممكن نعرف الموضوع دا شنو؟

قلت له بصورة قاطعة:

- لا.. ما عدا مدير البنك.

قال بخبث:

- المدير عنده اجتماع، انتظروه بره في البرانـدة أو تحت الشجرة لمّا ينتهي من الاجتماع، ود أمونة ح يجي يناديكم.

ونظر إلينا محملقًا في وجوهنا منتظرًا رد فعل ما، وعندما خرجنا، أحسست به يتنفسُ الصُعداء، ولم نكن قد مضينا بعيدًا عن الباب سمعنا صوته ينتهر ود أمونة في قسوة، ولكن انتظارنا لم يدم طويلًا في البرانـدة حتى جاء ود أمونة مرة أخرى، ليقول لنا:

- موضوعكم لو مكتوب في ورقة؛ المدير قال حيقراه ويرد عليكم.

قال له الفكي علي:

- إذا عايز يقابلنا، أهلًا وسهلًا، وإذا ما عايز يقابلنا برضو أهلًا وسهلًا.. نحن عايزين نأكله؟! نحن عايزنه في شُغل، امشي قول ليهو الكلام دا يا ود أمونة.

لوى ود أمونة شفتيه في حركة تعني:

أمركم، بالإضافة إلى: وأنا مالي، ولكنا فهمنا منها: إنتو ما قدر المكان دا.

وقرأ الفكي ود الزغراد جهرًا تعاويذ وأدعية وطواطم بالإضافة إلى سورة قرآنية قصيرة ولم تقف شفتاه ولسانه من التمتمة إلى أن جاء ود أمونة وفي فمه ابتسامة كبيرة جعلت خديه الأملسين يلمعان، وقال:

- اتفضلوا، سيادة المدير عايزكم.

ومضى قدامنا يحرك ردفيه ويديه بصورة بناتية غنجة، ولأننا جميعًا اعتدنا على ذلك لم يثر انتباه أي منا. عندما دخلنا وجدنا

شرطيـين لم نرهـما في المـرة السـابقة ولا نـدري كيـف دخـلا، وهـما معروفان بالنسـبة لنـا جميعًـا، نعـرف اسـميهما واسـمي أبويهـما وأميهـما وإخوتهـما وجميـع أقربائهـما، باختصـار: الشرطيـان مـن الحِلـة، تبادلنـا التحايـا باقتضـاب، وبينـما هـما مندهشـان قليـلًا، صعدنـا نحـو الأعـلى إلى مكتـب فسـيح تفـوح منـه رائحـة النقـود، يتقدمنـا ود أمونـة مزهـوًا وهـو يدنـدن بأغنيـة بنـات شـائعة. رحـب بنـا مديـر البنـك مدعيّـا السـعادة برؤيتنـا، معتـبرًا قدومنـا إليـه طبيعيًـا، ولكنـا كنـا نقـرأ مـا خلـف ذلـك بوضـوح، كان يريـد أن يعـرف بسرعـة مـاذا نريـد: اتفضلـوا، مرحبًـا. قدمـت إليـه المجموعـة فـردًا فـردًا، بتمهـل، وقفـت بعـض الـشيء عنـد الفـكي عـلي، مشـهود للفـكي عـلي عمايـل خـير كثـيرة، وألمحـت إليـه تلميحًـا أن الفـكي عـلي ود الزغـراد بإمكانـه أن يـضرّ ضررًا بالغًـا بمـن شـاء وقتـما شـاء وكيفـما شـاء، تحدثـت عـن دور البنـك كـما يفهمـه عامـة النـاس هنـا في الحِلـة، ثـم شرحـت لـه الهـدف مـن الزيـارة وأشرت إلى دراسـة الجـدوى التـي أعددتها. ابتسـم وهـو يـسرق النظـرات إلى الصافيـة وهـي في ثوبهـا الجديـد ماركـة وصتنـي وصيتـا، ربمـا كانـت رئتـاه تمتلئـان الآن بعطرهـا الرخيـص ماركـة بـت السـودان. قـال وهـو يحـاول أن يكـون حـاضرًا ومركـزًا:

- ادوني دراسـة الجـدوى، أقراهـا، وأعرضهـا عـلى مُديـر الاسـتثمار بعـد داك أديكـم الـرأي، وأنـا سـعيد بزيارتكـم للبنـك وأتمنـى أنكـم تبقـوا عمـلاء لنـا دايمـين.

قالهـا بطريقـة تعنـي بوضـوح «والآن اتفضلـوا بـره»! قالـت لـه الصافية التـي يبـدو أنهـا لم تفهـم شـيئًا مـما قـال أو أنهـا الوحيـدة التـي فهمت:

- يعني حتدونا سَلفية تراكتور ودسك ولا لا؟

قال مبتسمًا:

-الموضوع يحتاج لدراسة وتحليل مخاطر.

تطـوَّع الفـكي الزغـراد بـشرح مـا يرمـي إليـه مديـر البنـك للصافيـة، قائـلًا:

- يقصد نمشي ونجيهم مرة تانية عشان يدونا رأيهم.

أضـاف أبرهيـت بعـد أن أعلـن عـن نفسـه بتنظيـف حنجرتـه متنحنحًا مرتين:

-من الأحسن نمشي، الفي القسمة نلقاه.

لم يقُـل المديـر شـيئًا، فقـط ابتسـم وهـو يتسـلم منـي دراسـة الجـدوى يقلبهـا قليـلًا بصـورة آليـة ثـم يضعهـا عـلى صينيـة الأوراق. ونحـن نخـرج، همـس الفـكي عـلي في أذني:

- أنـا لـو عرفـت اسـم أمـه، ح أعمـل فيهـو عمايـل. ثـم أضـاف بصـوت أكـثر وضوحًـا: ود الحايـل، يتنهـد زي الـزول المـا كويـس.. مـرة يقـول اعملوا دراسـة جـدوى، لمّـان نعملهـا يقـول امشـوا وتعالـوا.

كل مهـارات النـاس في اصطيـاد الإشـاعات وصنـع الأخبـار وتقـصي الحقائـق فشـلت في الحصـول عـلى معلومـات عـن مديـر البنـك، حتـى ود أمونـة لم يسـتطع معرفـة اسـم أمـه أو برجـه، لـولا فكـرة أبرهيـت ليئسـوا:

- ألم قِشي.

- أيوا.. ألم قِشي.

الموظفـون الأغـراب يتقوقعـون في كبسـولة واحـدة، يتحصنـون بأسـلوب وطرائـق وأفـكار وسـبل معيشـة رتيبـة ومكـرورة ولكنهـا تصبـح جيبًـا مجتمعيًـا معـزولًا عـن المواطنـين والأهـالي، فهـذا حصـن لا بـأس بـه ضـد الإشـاعات والقـوالات، ولكنـه أيضًـا سـيظل هشًـا في مقابـل حكمـة ومكـر وجـمال ورقـة وإنسـانية وألعـاب أي فتـاة تثـق في نفسـها، المُغربُّـون أضعـف البـشر، دائمًـا مـا يتملكهـم حنـين إلى البيـت والأسرة، والمـرأة أو البنـت عندهـم هـي رمـز لاسـتمرار الحيـاة ودفء المـكان، القرويـات

بالحلة لا يعرفن ذلك، ولكنهن يتصرفن وفقًا لذات الرؤية، فإنهن حين يهبن وحين يأخذن وحين يدعين وحين يتواضعن، يفعلن ذلك بشرف وكرامة وقدر من الخصوصية لا يُستهان به، إنهن يقدمن أنموذج الأخت والصديقة والزوجة والحبيبة، وليست الداعرة السوقية المستهلكة أو الانتهازية، إنهن بنات بيوت ومشروعات صغيرة وحالمة لربات بيوت، يجدن فن الحب والعلاقات، أميتهن هي ثروتهن الكبرى، التي لا تقيم بثمن، ذات الأمية هي مشعل وعيهن الاجتماعي الكبير. ألم قِشي، تعرف هؤلاء البُنيات حسنًا، تمطى الفكي علي، أصبحت الكرة الآن في ملعبه هو بالذات: اسمه بلال حسن التركي، أمه نفيسة بت عبد الله. جَمّعْ أولًا الأرقام المقابلة لكل حرف مِنْ حروفِ الأسمين الأولين للابن والأم فقط، ثُمّ حدد برج المدير، وباستحضاره الصفات الجسمانية من لون وطول ونوع الشعر، استطاع أن يتتبع نقاط ضعفه بين أبواب وأسطر كتاب شمس المعارف الكبرى، ثم زاوج ما بين علم الحرف والفلك والشجر وما يُعرف بالسحر الأسود، ثم غمس قصبته في الدواية وكتب، لم يبدأ ببسم الله الرحن الرحيم، ولكنه بدأ هكذا: (براءة من الله ورسوله). كتبها سبعا وسبعين مرة، لفها حول عرق يُسمى عرق الهدهد ثم أدخلها في قطاع من ساق الخروع المنظف جيدًا، وجاوز الجميع بظفر طائر السِمبِر الذكر، ثم طلب أن يأخذها رجل نَجِسٌ يقوم بحرقها وذر رمادها في الهواء يوم الجمعة قبل أذان الفجر، ومن ثم يقوم الرجل النجس برسم خاتم سليمان مرة واحدة على الأرض.

عندما مرّ أسبوعان على موعد الطمث الشهري لألم قِشي، تأكد لها بما لا يدع مجالًا للشك أنها حَبِلتْ، سررنا لذلك وأخذنا نعد العدة لاستقبال الطفل، ولم يكن همي أنا بالذات نوعه ذكرًا أو أنثى، ولكني أريد مخلوقًا صغيرًا جميلًا يبقى معنا في البيت ويؤصل لعلاقتي وألم قِشي، ولكن هذا لم يمنع من أن نختار اسمًا مسبقًا، فقد اتفقنا على

أنـه محمـد، إذا كان ولـدًا وأنهـا القنيـش إذا كانـت بنتًـا، ولم نتفـق عـلى اسـمي التـوءم بعـد، لأنهـا كانـت تـود أن تطلـق عليهـما اسـمين أكسـوميين معقديـن، وكنـت أريـد أن أطلـق عليهـما اسـمين عربيـين، اختلفنـا فأحلنـا النقـاش إلى حـين، عـلى كلٍ ألم قِـشي تفضـل المولـود بنتًـا وهـي ذات الرغبـة التـي تزوجنـا مـن أجلهـا، وهـي ذاتهـا التـي تجعـل لتواصلنـا الجسـدي معنـى ومتعـة كبـيرة، وكنـت لا أسـتطيع مقاومـة قولهـا. «عليـك اللـه حَمِّلنـي، عايـزة أحمـل». هـذه الجملـة تشـحنِّي بدَفـق مـن الحـب والجِديـة، وتجعلنـي ضحيـة بليـدة لسـلطة البقـاء، فأحبهـا أكـثر. لقـد اكتشـفت أن الجنـس عنـدي مرتبـط بالإنجـاب، لا شيء آخـر، المتعـة تجـيء مصحوبـة بالفكـرة، دائمًـا مـا يكـون في مخيلتـي طفـل وأنـا عـلى صـدر ألم قِـشي، كان صديقـي يعتـبر الجنـس واجبًـا إنسـانيًا، وهـو ضروري كي يكـون هنـاك إنسـان كامـل، وهـو في حالـة الصافيـة مسـألة نفسـية بحتـة، بـل مسـألة إثبـات ذات في المقـام الأول. كنـت أقـول لـه دائمًـا:

-إذا لم تكـن هنـاك فكـرة خلـق، تصبـح المسـألة نوعًـا مـن اللـذة الميكانيكيـة.

يقول ساخرا:

- إذن أنت من أنصار قصة حب وراء كل ممارسة جنس؟

- طفل.. طفل أيضًا، ما فائدة الحب بلا أطفال في الخاطر.

قال ضاحكًا محاكيًا لغة الأفلام المصرية:

- دا إنت رومانسي أوي.

نشـأت بينـي وألم قِـشي علاقـة حـب قويـة، عرفـتُ ذلـك مـن القـوالات والاشـاعات ومـا يشـبه النـدوات في بيـوت الفدّاديـات، وأظـن أن ألم قِـشي هـي الأخـرى تلمسـت ذلـك، ولقـد قيـل لي علانيـة في بيـت خـدوم يـوم الاثنـين المـاضي:

- الزولة دي بتحبك، وإنت عارف حُب الحَبش، تموت وتحيا معاك، مبروك ليك.

ولقد قالوا لها هي أيضًا، وحدثتني قائلة:

- قالوا لي إنت سويتي للراجل دا شنو؟

بذلك أكون قد وقعت في الحُبْ لأول مرة في حياتي إذا صدق الناس فيما يقولون، أما إذا لم يصدقوا، فتظل العلاقة بيني وبينها تحتاج لتعريف، ولو أنها تمتلك آلية استمرارها، لا يهم المسمى أو التعريف، ما دامت الطفلة أو الطفل يلوح بأناملة من داخل جسدينا ورغبتنا ولمساتنا من عمق قلبينا، في ذاتنا يقهقه. لقد تنبأ لنا الفكي علي بحياة زوجية طويلة وأطفال كُثر، والفكي علي رجل صالح، من أحفاد رجل من رجال الله اسمه سليمان الزغراد، ظهر لأول مرة ولآخر مرة في كتاب الطبقات لود ضيف الله. أما الفكي علي الزغراد فيعتبر الزغراد الذي ذكر في كتاب ود ضيف الله زغراد مشوه، لأن جده سليمان الطوالي ما كان يعمل بَابَكُولًا للمَرَاسَةِ، ولكنه كان أحد تلامذة الشيخ محمد الهميم جاء إليه من دار قِمر بأقصى غرب السودان، وكان جده فكي قاطع، باستطاعته أن يَرَوِّب الماء، أما إذا زغرت، فما من مُغلق إلاّ انفتح، ولا مشبوك إلاّ انحل ولا غائب إلاّ عاد، ولا بعيد إلاّ قرب، ولا عصية إلاّ طاعت، ولا كُربة إلاّ فُرجت. في هذه البلاد يؤمن الناس بالله ورسله، بملائكته وشياطينه، جنبًا إلى جنب مع الفكي الزغراد، لذا كانت تنبؤاته حقائق مستقبلية وكشوفات ربانية، وربما هذا ما أعطى لحياتنا قدرًا كبيرًا من الاستقرار، خاصة من جانب ألم قِشي لأن إيمانها بالفكي الزغراد غير مشروط. أما أنا، فكنت أفكر في الفكي علي الزغراد كشخص يمتلك مهارات لا تخفى في الإقناع، يعمل في منطقة مكشوفة من وعي مجتمع الحِلة، وله القدرة على التأثير في الآخرين؛ وأُرجع ذلك لإمكانات دنيوية مادية بحتة، وهنا تكمن

عظمة هذا الرجل النظيف النحيف الذكي الذي تفوح منه دائمًا رائحة الصمغ العربي، وهو يفهم رأيي فيه ويحترمه وإن كان يرى في نفسه أنه يمتلك قوة روحية، وأن له خدمًا من الجن ويحتفي بعلمه ومعرفته بأسرار النبات وعلم الحرف والكف والوجه وفتح الكتاب، ويقول فوق ذلك كله أو لذلك كله إنه من بيت النُبوة، وأنه من الأشراف. سألته ذات مرة: من هم الأشراف؟

قال لي:

- هم القرشيون عشيرة النبي.

قلت له:

ولكن القبائل العربية الهاجرت للسودان كانت من جُهينة؟

قال مبتسمًا:

- نحن أولاد الحسن والحُسين ولدي فاطمة وعلي رضي الله عنهم.

قلت له:

- نعم.. نعم.

وكان يدور في رأسي استشهاد الشابين أحدهما بيد يزيد بن معاوية والآخر بيد معاوية بن أبي سفيان نفسه، في أزمنة غابرة بالجزيرة العربية والشام.

أَحوَالُ: ثَوَرَةُ الخُرَاءْ

نَحْنُ الآن في شهر مايو، نِهاية مايو، أقمتُ منذ أكثر من شهر في التَّاية، استعدادًا للموسم الزراعي الجديد، حيث إنني اشتريت أرضًا جديدة مقدارها عشرة أفدنة وتحتاج إلى تنظيف، تكثر بها أشجار الكتر، وقليل من أشجار اللعوت، وبعض الطلحات، كان معي عاملان، يساعداننني في أُم بَحَتي، حيثُ إنه ليست لي خبرة في شأن الأرض، أحدهما مُخْتَار عَلِيْ نفسه والآخر هو إبراهيم عثمان الذي يُلقب بالشايقي، ولكنه في الأصل جعلي وقام والداه بتشليخه شلوخ الشايقية عملًا بنصيحة بعض الأقارب، حتى يتجنب الموت، لأن كل إخوته الذين سبقوه كانوا يموتون وهم في عمر دون الخامسة، وقد نجحت الحيلة وعاش، وهو الآن على مشارف الخمسين، الاثنان جنقوجورايان نشيطان، عركا الأرض طويلًا، يفهمان في النظافة، الزراعة في الكديب والحصاد، إضافة إلى خبرتهما في الحيل المحلية على مقاومة الآفات بأنواعها، ولا يفوقهما في ذلك سوى الدَنَبَارِيْ المتحكم البارع في مصائر الجراد، كلاهما دون أسرة. كان مختار علي هو الأكبر سنًا، حيث إنه في أواخر خمسيناته، أما الشايقي فعمره فوق الأربعين بقليل، وهو شاب قوي البنية طويل، له بشرة حمراء وشارب كث، كلا الرجلين أمي لا يفك الحرف، عملنا في الأرض منذ مارس، وكنا نقيم بصورة شبه دائمة في قُطية وراكوبة، القُطية نخزن فيها طعامنا ومتاعنا ونأوي إليها إذا برد الجَو، الراكوبة للمقيل والونسة، أما مطبخنا فهو الفضاء الرحب، حيث نستخدم بعض الحجارة كموقد، وكل مكان لا يراك فيه الآخرون هو مرحاض. كنا نحصل على الماء عن طريق الحمير من نهر سيتيت، عبر مُشْرع زهانة، لأنها الأقرب، ونحتفظ به في براميل كبيرة من الحديد، وظل مشوار الماء هو ما يربطنا

أسبوعيًا بالقرية، حيث إن الطعام متوافر لدينا: الكجيك، والشرموط، أم تكشو، الكمبو، الفرندو الويكة، والملح والشطة، ولدينا كمية من دقيق الفيتاريتا، يكفي لشهور كثيرة، وإذا أضفنا إلى ذلك ما تجود به الغابة من لحوم طازجة شهية في شكل فئران، أرانب، طيور، أبوات قدح، حلاليف، أصلات، وغيرها، نجد أنفسنا في جنة صغيرة، بها كل ما يشتهي الجنقوجوراي. على كلٍ مسألة الطعام عند الجنقوجوراي سهلة، بسيطة لأن الجنقوجوراي يأكل كل ما طار وكل ما سَبَح، وكل ما مشي على وجه الأرض ما عدا بني الإنسان. ومنذ أن قَرَرتُ أن أكون واحدًا من هذا المكان؛ أي جنقوجوراي؛ قَررتُ أن أحيا كشخصٍ حقيقي ينتمي إلى كل شيء فيه، فكرًا وممارسة، ولو أنني اتخذت أقرب الطُرق التي تربطني بالمكان والناس، وهي المرأة، ولكن هناك مرارات اجتماعية عليّ أن أتعود عليها، وأهمها نظام العمل الشاق، استعنت أيضًا بالضمان الاجتماعي الذي تحصلت عليه في الشهر السابق، دفعت منه ثمن الأرض، وتركت ما تبقى من مال لأمٍ قِشي لتدبر به حالها، بعد أن قللت من عملها بميس شركة الاتصالات، حيث إنها استخدمت امرأة أخرى معها للمساعدة على أن تقاسمها الراتب الشهري، في الحق كنا نحافظ على طفلنا لا أكثر. الشايقي ومختار علي لا يكلفان كثيرًا، بالإضافة إلى الطعام اليومي الذي نشترك فيه جميعًا، يحتاجان للسجائر والتُمباك والمريسة، والأخيرة يصنعها الشايقي بنفسه من بقية اللقمة والكِسرة مضافًا إليها بعض الدقيق من مخزون الميس، وهي نوع من المريسة الخفيفة التي تسمى بَقَنية، وهي أقرب للعسلية، وهما لا يتناولانها في الحِلة، حيث تسمى بمريسة الفقرا، أنا لا أفضلها كثيرًا، يعرفني الناسُ بحبي لعرقي البلح والمستورد، وذلك عندما يكون لديّ فائض مال، أما عندما أكون مفلسًا فأنا من التائبين عن الخمر ولا أشربها بالدين مطلقًا. تخلصنا من الأشجار الكبيرة جميعًا، وقمنا بصنع عشرين من كمائن الفحم الضخمة، كان عملًا متعبًا ولكنه لا

يخلو من متعة هي لذّة الإنجاز، الإحساس بخلق قيمة من العدم، كنت قد أعلنت مسبقًا أنني سأتقاسم المردود المالي للفحم بالتساوي، بيني ومختار علي والشايقي، ما سَرّع من العمل وجوّده، فبعنا ثلاث شحنات من الفحم إلى سماسرة الفحم بالقضارف وخشم القربة والشواك، بعناه تسليم مشروع، أرخص سعرًا ولكنه يجنبنا إشكاليات الشحن والترحيل والجبايات الكثيرة والرشاوى والرسوم الطارئة التي يبتكرها الشرطيون فور أن يروا عربة الفحم. بدأت وفادة الجنقو للحلة تتكثف، حين أخذ هطول المطر في الحبشة يتزايد، وبدأ موسم الزراعة في الشرق عامة، ونتيجة للنقص في المال والرغبة في الزراعة واللحاق بالموسم برزت حكاية البنك مرة أخرى إلى السطح، ويعرف الجنقو جميعهم أن البنك قام بتسليف كبار المزارعين من مدينة القضارف ومَحَليّة الفَشقة وحتى خشم القربة وكسلا، وقام بمدّهم بتراكتورات ودساكي وأعطاهم نقدًا قروضًا اسمها السَلمْ. كان الجنقو يتساءلون: لماذا لم يبتِ البنك في طلبهم، لماذا التمييز ضدهم، وهم أعرف الناس بالأرض؛ هم الذين ينظفونها، يزرعونها ويحصدونها ويحاربون آفاتها، هم الذين ينتجون العيشَ والسِمسِمْ، لماذا لا يثق البنكُ فيهم؟ وأخذ الجنقو يتداولون الأمر في تجمعاتهم، كانوا في هذا الشهر البائس؛ مايو؛ يعانون من الفقر المدقع، حيث لا عمل ومن ثم لا نقود، لا مهرجانات لشرب المريسة، التي ارتفع سعرها نسبة لارتفاع سعر العيش، لكن كرم الفدّاديات يسع الجميع، فيمكن الشرب عن طريق الشخط في الحائط، أو عن طريق الأمنيات ورهن الزينة؛ من مسجلات أو نظارات شمسية أو قمصان أو راديوهات أو أي أشياء أخرى لها قيمة، او ليست لها قيمة ايضا. لذا لا يزال الجنقو يتجمعون في بيوت الخالات، أدرنا معهم حوارات عميقة وطويلة عن البنك ودوره، وقد تحمس كثير منهم للفكرة، أن نذهب إلى البنك مرة أخرى، ونطلب منه أن يقدم لنا قرضًا محدودًا وتراكتورًا

بدسك، وأن نقدم له ما نستطيع من ضمانات، وتبرع عشرون شخصًا يمتلكون بيوتًا مسجلة بأسمائهم أن يقدموها للبنك رهنًا، وتبرعت أنا بمشروعي الزراعي الصغير. ربما الذين تفاجئوا بتجمع الجنقو أمام البنك هم إداريو البنك ورجال الأمن فقط، ولكن جميع سكان الحِلة رجالًا ونساءً وأطفالًا، كانوا يعرفون أن الجنقو ذاهبون إلى البنك يوم السبت.. وأن لهم طلبًا واحدًا. «جربونا في مشروع واحد وتراكتور واحد وسلفية لا تتعدى خمسمية ألف جنيه». قدرنا عددنا بمئة من الجنقو والجنقوجورايات وكثير من الأطفال، انضم إلينا صغار التجار الذين حرمهم البنك من التمويل؛ فهم أيضًا كانوا غاضبين، وقد أفشوا لنا كثيرًا من أسرار علاقة البنك بكبار التجار وأصحاب المشاريع الكبيرة، وقالوا لنا بالحرف الواحد، «إن البنك يريدهم أن يبقوا عمالًا وشغيلة تحت إمرة المزارعين الكبار حتى يضمن عودة سلفياته التي قدمها لهم». بالتأكيد لم يحاول مدير البنك الاستعانة بالشرطة ورجال الأمن لأنه لم تكن هنالك مظاهرة ولا تهديد باستخدام العُنف، إنما كانت مفاوضة قُدتُها أنا ومعي الصافية والبقية يسمعون وينظرون، ويشاركون بالصمت والتنظيم وعدم إثارة أعمال الشغب. كان لمدير البنك تحفظان: الأول هو أنه لا يستطيع أن يقدم سلفية لجماعة غير رسمية فلا هم اتحاد ولا هم شركة مسجلة، مجرد جماعة؛ حسب تعبيره: لا رأس لها ولا قعر. أما التحفظ الآخر فقد كان أيضًا واضحًا: أنا عايز ضمان.. ضمان أرض لها قيمة ومسجلة بأوراقها ومستنداتها، أو ضمانة مالية أو عقار؟! دي سياسة البنك. قلنا له: لدينا عشرون قطعة سكنية بالحلة، ومشروع صغير من عشرة أفدنة، وليس لدينا عقارات في مدن ولا منقولات ذات قيمة مالية كبيرة، ولا أراضٍ أخرى، وإلاّ لمّا كان هذا حالنا، فقراء وصغار مزارعين، و.. و.. وأكد أن البنك يدعم وسوف يدعم الفقراء وصغار المزارعين، ولكن بشروط أمان تضمن له حقه، وأنه لا يستطيع أن يتخطى سياسة البنك. ثم أضاف مراوغًا:

- أنـا ح أنقـل كل الحـوار الـدار بيننـا إلى رئاسـة البنـك في الخرطـوم، ونشـوف الـرد شـنو بـإذن اللـه.

قالـت لـه الصافيـة التـي كانـت تَزْفُـل في صمـت عميـق منـذ أن دخلـت معـي إلى مكتـب المديـر الفـاره:

- يعني ح تدونا السلفية ولا لا؟!

قال لها المدير بريق ناشف:

- حتى الآن لا.

التفتت إليّ الصافية قائلة: قومّاك نمشي، القاعدين ليها شنو؟

شـكرته عـلى حسـن ضيافتـه لنـا، حيث إنـه أكرمنا بمـاء بـارد، وزجاجتي بيبـسي كـولا، أتى بهـما ود أمونـة، وانصرفنـا. كان الجنقو ينتظـرون في الخارج في جماعـات، وعنـد بـاب البنـك أحاطـوا بنـا يسـألون، ولكـن أبرهيـت وهـو الشـخص المسـؤول عـن تنظيمهـم، قـال لهـم، ودون أن يستشـيرني:

- المساء في بيت أدّي، الحوش الخلفي، عايزنكم جميعًا.

عنـد طلـوع القمـر كان بحـوش الأم الخلفـي؛ حـوش الحفـلات، ثلاثمئـة مـن المواطنـين أطفـالًا نسـاءً ورجـالًا، بـادر الحضـور الفـكي عـلي بتـلاوة مـن الذكـر الحكيـم، وتوتـر صوتـه عندمـا بلـغ الآيـة الكريمـة:

(وَنُرِيـدُ أَن نَّمُـنَّ عَـلَى الَّذِيـنَ اسْـتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُـمْ أَئِمَّـةً وَنَجْعَلَهُـمُ الْوَارِثِـينَ).

ثـم أعقبـه أبونـا بيـتر راعـي الكنيسـة في صـلاة قصـيرة مـن الإنجيـل قـرأ فيهـا:

(يـا هـؤلاء جميعكـم القادحـين نـارًا، المتنطقـين بـشرار، اسـلكوا بنـور ناركـم وبالـشرار الـذي أوقدتمـوه مـن يـديّ صـار لكـم كل هـذا، في الوجـع تضطجعـون). وكررهـا بالعاميـة كـما يـلي:

(يا أنتم المولعين نار، المتحزمين بالشرار، امشوا بنور النار والشرار، بتاع إنتم، كلو دا من يديّ أنا ربكم، والطريق كُله اوجاع).

ثم ما لبث الناس يتداولون في أمر واحد: نعمل شنو؟ إذا قاطعنا الزراعة، نحن الذين نموت جوعًا أولًا، إذا بقينا كعمال لن نكسب شيئًا؛ يأتي الموسم خلف الموسم خلف الموسم، ونحن من اليد إلى الفم والمستفيد هو الجلابي صاحب المشروع. قال أحدهم:

- نكسر البنك.

ردوا عليه أنهم لا يريدون دخول السجن ولا المواجهة مع الشرطة التي قد تؤدي إلى فقد البعض وإصابة البعض بأذي جسيم، وقالت سُعاد يوهنس وهي والدة أحد الشرطيين:

- يعني نقتل أولادنا البوليس أو يقتلونا.. الخسران منو؟!

وفجأة تحدث صديقي، قائلًا:

نحاربهم بالخَرَا.

سكت الجميع لأن الكلمة بدت لهم غريبة وغير مقصودة تمامًا.. أو أنها ربما كانت كلمة أخرى سمعوها على هذا النحو. قال مؤكدًا وبعينيه إصرار غريب:

- بالخَرَا.. ما بتعرفوا الخَرَا؟!

ضحكوا وظنوا أنه يعبث أو هي إحدى مغامراته العجيبة. قال لهم:

- سمعتوا كلكم بالهنود.. الهنود ديل طردوا الإنجليز الأقوياء بالخَرَا بس. والناس الكبار في السن منكم مثل مختار علي والفكي الزغراد، والسيد أبرهيت والشايقي، وأدِّي.. غيرهم وغيرهم عاصروا وهم أطفال المَهَاتِمَا غَانِدِي، أها دا الزُول القاد ثورة الخَرَا.

قليـلًا قليـلًا، تفهـم النـاس الأمـر، قليـلًا قليـلًا قبلـوا بـه، قليـلًا قليـلًا حـددوا المئـة الأوائـل الذيـن سـوف يفعلـون والآن.. قليـلًا قليـلًا.. حـددوا الخمسـين.. قليـلًا قليـلًا.. حـددوا الثلاثـين، وتـم ترتيـب كل شيء. في الصبـاح الباكـر، عندمـا اسـتيقظ الموظفـون في الميـس، لم يسـتطع أي منهـم الخـروج للعمـل، حيـث كان البـراز هنالـك يقـف عنـد البـاب محتجًـا، عفنًـا، قبيحًـا؛ بائسًـا لكـن بصمـود عجيـب. وعندمـا كـسروا الصريـف كان عليهـم أن يصنعـوا مـن قصبـه جِـسْرًا يعـبرون بـه إلى الشـارع.. ولمّـا وصلـوا إلى مبنـى البنـك وجـدوه غارقًـا هـو الآخـر في بركـة مـن الخُـرَاءِ، ولا يمكـن لكائـن مـن كان أن يقـترب منـه، جيـش الذبـاب الاخـضر الضخـم ذو الطنـين الرهيـب صـار سـيد المـكان ومالكـه الأوحـد؛ ومديـره العـام. اسـتعانت إدارة البنـك بعـمال الصحـة، الذيـن أكـدوا أنـه لم يكـن ضمـن شروط خدمتهـم خـمّ الخـراء، إنهـم عـمال نظافـة مـواد جافـة. طلـب مديـر البنـك مـن الشرطـة أن تقبـض عـلى الفاعلـين وتجبرهـم عـلى إزالـة الـبراز ولكـن النيابـة ردّت بأنـه: (لا توجـد عقوبـة بغـير نـص(، فالتـبرز في العـراء لم يُعتـبر في يـوم مـا جريمـة يعاقـب عليهـا القانـون، ولم يُوجـد أمـر محـلي يمنـع ذلـك.. وكيـف نعـرف الذيـن تـبرزوا.. مـن شـكل برازهـم ام مـن لونـه؟! وكانـوا في قـرارة أنفسـهم يقفـون إلى جانـب الجنقـو، لأن البنـك كان محسـوبًا عـلى مجموعـة سياسـية بعينهـا، ليسـوا هـم بعضهـا. ركـب مديـر البنـك ومعـه فريـق عمـل مكـون مـن خمسـة أشـخاص عربتهـم اللانـد كـروزر دبـل كبينـة، وانطلقـوا لا يلـوون عـلى شيء إلى القضـارف.. في اليـوم التـالي تـبرز مئـة مـن الجنقـو داخـل الميـس المهجـور، بـل داخـل الغُـرف وعـلى السرايـر وحاويـات المـاء النقـي المكـرور، وضعـوا كميـة لا بـأس بهـا مـن البُـراز في الثلاجـة والأدوات الكهربائيـة والأواني.. وتركـوا مخزونًـا آخـر في أكيـاس التسـوق البلاسـتيكية وزن كيلـو مبعـثرة تحـت الأسرة وفي المطبـخ ومعلقـة عـلى الأسـقف. في اليـوم الثالـث ذهـب الجنقـو جميعًـا للعمـل في نظافـة مشـاريع التجـار بأسـعار عمالـة لم يفكـروا فيهـا كثـيرًا، كانـوا يريـدون

الخروج من الحلة، بأي صورة كانت! بعد أُسبوع من الحادثة رجع رجال البنك في معيةِ شاحنةٍ من الاحتياطي المركزي مسلحين برشاشات وقذائف مسيلة للدموع، عصي مطاطية، درق، سياط وعربة مطافئ. حاولوا غسل المكان بخراطيم الماء المندفع بقوة من عربة المطافئ ولكن هيهات، فقد كان الشيء من الكثافة والتماسك بحيث لا يزيده الماء إلا انديا‌حًا إلى أمكنة وساحات أخرى. ثم أقام الاحتياطي المركزي في مُخيم صغير مرعب قرب البنك لشهرٍ كاملٍ، أما المَيس؛ فقد تم هجرانه بصورة قاطعة ونهائية، ولكن بعض الجيران ظلوا، كلما وجدوا الفرصة سانحة، يرسلون أكياس التسوق مملوءة بالشيء اللزج العفن من فوق الحوائط إلى الميس الجديد. رجع الشايقي ومختار علي إلى التاية؛ رجع صديقي إلى القضارف، ثمّ من هنالك إلى الخرطوم، بقيت أنا في الحلة لبعض الوقت لمؤانسة ألم قشي، لم أر ود أمونة، سألت عنه ألم قشي، قالت إنه كان في القضارف، ولكنه عاد اليوم لعمله بالصباح في البنك، وعند المساء سوف يأتي للعمل في بيت أدّي، كان لا يضيع وقتًا بلا عمل، فسألتها لماذا يُرهق نفسه بهذه الطريقة، ولا مسؤوليات لديه وليس له من يصرف عليهم، بل حتى صلته بأمه مقطوعة.

- قالت لي إن ود أمونة يعمل بجد ويكدح من أجل العازة.

قلتُ مُنْدَهِشًا:

- العازة! العازة دي منو؟

فحكت لي ألم قِشي، ما يحكيه ود أمونة أو هي الحكاية الشائعة، وود أمونة، نادرًا ما يتحدث في هذا الموضوع: عندما خرجت العازة من السجن؛ أخذت معها ود أمونة، وكانت قد وعدته ووعدت أمه أمونة التي تركتها في السجن وراءها، بأنها ستعتني به كما لو كان ولدها، وإنها ستدخله المدرسة، إلاّ أن العازة بعد خروجها من السجن

واجهتها مشاكلُ كثيرة جدًا من أسرتها، حيث إن إخوانها ووالدها كانوا يصرون على أن تلتزم بواحد من الاثنين، إما أن تتزوج أيًا كان وبسرعة، وأما أن تترك العمل الذي أخذت تمارسه بعد خروجها من السجن مباشرة وهو بيع الشاي والقهوة في سوق القُونِي، وأن تبقى في المنزل ولا تبرحه، لأن أسرتها كبيرة وإخوانها معروفون، لذا تهمهم سمعتها. لكن العازة رفضت كل العروض، وواصلت عملها في سوق القُوني، حيث كسبت مجموعة من الزبائن، وطورت عملها عندما ألحقت بمقهاها مطعمًا تبيع فيه الأغذية البلدية، وأدخلت ود أمونة مدرسة خاصة في حي كَرْفِّس، واستأجرت لها بيتًا في حي الأسرى، كي يكون قريبًا من **موقع عملها، والحق** يُقال كانت ملتزمة أخلاقيًا، ومحترمة لنفسها ولعملها، ولم يُعْرَفْ لها أي نشاطٍ مخالف للقانون ولم يتشكَ منها الجيران، مع ذلك فإن إخوانها لم يرضهم كل ذلك، وخططوا لتخويفها وطردها من مدينة القضارف، لأي بلدة كانت، وكانت تعلم بمخططهم وتستعد لمقاومته، وفعلًا هاجمها اثنان من إخوانها في بيتها عدة مرات، واعتدوا عليها بالضرب، وهاجمها في مكان عملها بعض البلطجية المأجورين، وكانت ترد في شراسة، ولكنهم فكروا أخيرًا في استهداف ود أمونة، استأجروا بعض الصبية المشردين ومدمني البنزين ليعتدوا عليه بالضرب في طريقه إلى المدرسة وأينما وجدوه، ولكن بعض الشواذ منهم عندما رأوه فكروا في الاعتداء عليه جنسيًا، وقد تخلص ود أمونة منهم بما تعلمه من أمه من مهارات قتالية، ثم أخبر العازة، التي قامت بعمل كمين لهم وضربهم ضربا عنيفًا؛ بل إنها طعنت اثنين منهم بسكين اعتادت أن تحملها معها منذ أن خرجت من السجن، أصيب أحدهم بعجز مستديم، ومات الآخر، ودخلت السجن هذه المرة مدانة بالقتل العمد مع سبق الإصرار، ومع أن أهل المتشردين الذين ظهروا فجأة قبلوا بالدِيّة، فإنها تعسرت في دفعها فظلت منذ ذلك الوقت مواجهة إما بالديّة أو المؤبد، حتى بعد أن

قبلت أسرة القتيل بخمسمئة ألف جنيه فقط بعد مساومات من رجال ونساء خير كُثر، فإن المبلغ يعتبر كبيرًا جدًا بالنسبة لامرأة وحيدة، وبالنسبة لأصدقاء فقراء؛ لم يتمكنوا من جمع سوى القليل، ثم أحبطوا فتكاسلوا، وهكذا بقي ود أمونة وحده يعمل منذ ذلك الحين مع أدّي وغيرها، كي يتمكن من تسديد الديّة حتى تنال العازة حُريتها. قال لي قبل شهرٍ تقريبًا إنه لم يتبق عليه سوى مئة جنيه فقط، لذا ربما كان ذهابه للقضارف بشأن أمر العازة، فهو دائمًا ما يزورها في السجن. عندما التقيت هذه المرة ود أمونة، تغيرت صورته في نظري إلى بطل إنساني عظيم، وفور أن سألته عن صحة العازة، أخذ يحكي لي عنها؛ عن شهامتها، وكرمها، وإنسانيتها وكيف أنها ظلت تعاني عمرها كله من أقرب الأقربين إليها، وهم أفراد أسرتها، ثم تناقشنا فيما تبقى لها من ديّة، وسألته ما إذا كان قد ذهب إلى مكتب الزكاة، ضحك في ألم وهو يحكي لي رحلة مُرّة مع البيروقراطية. قال إنهم أولًا طالبوه بشهادة فقر من المحلية، ثم بصورة من الحكم، ثم بالتاريخ الشخصي للعازة، وأخيرًا قالوا له: إن المال المرصود لمصرف الغارمين لهذه السنة، قد تم صرفه وأن عليه أن يعود إليهم في العام القادم، وفي العام القادم بدأت الرحلة من جديد، وانتهت بأن لم يرصد مال للغارمين في هذه السنة، نسبة لحاجة الناس للمال في مصرف آخر وهو مصرف المؤلفة قلوبهم، سوف يحاولون في العام الذي يليه. وقال لي ود أمونة إنه يعلم أن مكتب الزكاة قد قام بدفع الملايين لكبار التجار من مدينة خشم القربة تسديدًا لديونهم في البِنُوك، بعد أن أقسموا أنهم معسرون، والناس تتحدث عن ممتلكات هؤلاء المُعسرين من وابورات، وشاحنات، وسيارات نقل ركاب، وعقارات، ومغالق وتوكيلات تجارية.

حدث ذلك في نفس الأيام التي كان هو يستجدي فيها المكتب لدفع ولو خُمس الدِيّة. سألته عن أمه، قال لي إنها خرجت من السجن قبل سنوات طوال، وتزوجت من شرطي سجون، كان يعمل

بالقضارف وتَمّ نقله إلى سجن شَالا بالفاشر، وسافرت معه إلى هنالك، ونسبة لأن ود أمونة رفض السفر معها، ولأن زوجها نفسه لم ترق له فكرة اصطحابه معه، فقد قامت أمونة أمه بتسليمه إلى أدّي، وهي صديقتها، وقد عاشتا ردحًا من الزمن معًا في أُمْ حَجَر بعد أن اعتزلت أدّي العمل العسكري بعد التحرير، حيث كانت تعمل مقاتلة في الجبهة الشعبية لتحرير إريتريا. لم يجد ود أمونة صُعوبةً في التأقلم والعَيش مع أدّي، فهو قد ولد بالحلة، وقضى جانبًا كبيرًا من طفولته بها.

وجد ألم قشي ببيت أدّي، ولها صلة بصديقته العازة، ومع أنه لا يدري مدى عمق الصلة؛ فإن ألم قشي رحبت به واحتضنته، ولقد سألتُ ألم قشي فيما بعد عن صلتها بالعازة، فقالت: تجارة. على الرغم من الظروف الصعبة التي أمر بها أنا نفسي، ظرف العطالة والاستعداد للموسم الزراعي الجديد، والتجهيز لمولودي القادم، وبقاء ألم قشي بالبيت عاطلة عن العمل، فإنني، تبرعت لود أمونة، بنصف المبلغ المتبقي مِنْ الدِيّةِ. اعتذر ود أمونة عن عدم تسلم المبلغ، لأسباب يراها موضوعية، وهي:

- أولًا، هذه الأيام هي أيام الزراعة، وأنا أحتاج لكل مليم من أجل أرضي ولربما أنا لا أعرف مدى حاجتي للمال في هذه الأيام نسبة لعدم خبرتي في الحرث والزرع، والأولوية للأرض، والشيء الآخر- هو أنه لا يمتلك النِصف الآخر من المبلغ، إلاّ بانتهاء شهر أكتوبر، لأنه دفع مبلغًا كبيرًا من المال في الأسبوع الماضي، تحصل عليه من (صرفة صندوق)، ولا يمكنه التحرر من هذا الدين، إلاّ مع نهاية شهر يونيو؛ لذا في كل الأحوال ستبقى العازة بالسجن إلى ما بعد أكتوبر، وقد اقترح عليّ أن أستخدم المال في الزراعة وبعد ذلك الموسم أعطيه إليه، إذا توافر لي مرة أخرى، على كلٍ شكرني ود أمونة شكرًا أخجلني، ولم يأخذ مني شيئًا. قبل أن أغادر إلى المشروع للعمل، جاء لقطيتنا في المساء، وحدثني بما اعتبره أحد الأسرار:

- اعمل حسابك من السِكة وما تشيل معاك قُروش كتيرة! ما تثق في زول، الدنيا ما معروفة.

ولم أستطع أن أعرف منه أكثر من ذلك، ووعدني بأنه سيبقى مع ألم قشي، في ذات القُطية، قد تحتاج إليه؛ فتجده. وذلك إلى أن أعود، وكي يطمئنني أكثر أضاف:

- ألم قشي دي أختي.

انتظم المطر تقريبًا بعد عاصفة منتصف يونيو، كان مطرًا غزيرًا؛ ولكنه، كما قال لي الجنقو العارفون بالمطر، لم يكن خريفًا استثنائيًا وقالوا:

- بداية عادية ولكنها مُبشرّة.. إذا نجحت العِينَّة الأولى سوف ينجح الخريف كله.

وَنُصِحْتُ بالبِدَايَة المُبكرة، اشتعلت المشاريعُ جنقوجورا يحرثون وينثرون السمسم وينشدون في صبرٍ وألمٍ، يصنعون الحياة الحَقّة للملايين بعرق مُرٍ، ويحرمون أنفسهم من لحظة الحلم التي لا يعونها هم أنفسهم، لا يفكرون كثيرًا ولا عميقًا في الأشياء، كما أن الثورة الخُرائية التي قاموا بها، لم تلهمهم أفكارًا أخرى أو مشروعات أو أي عملية إيجابية لاحقة، عَبَرتْ مِثل نُكتة سَخِيفَة، حُكِيتْ أضَحَكتْ ثُمّ تَلاشَتْ.. وانشغلوا بعدها جميعًا بخلق القيمة بالعمل، ونسوا كل شيء خلافه، يريد الجنقوجورا المال، والطريق الوحيد للمال هو العمل المتواصل، الذي ينتهي غالبًا عند شجرة المَوتْ في فَرِيقْ قِرِشْ بالحُمَرةْ، أو أي شجرة موت أخرى، إلى أن استيقظنا ذات صباح بخبر غريب، عن قُطاع الطُرق الفَالوُل أو الشِفتة في خور عناتر المُعْشَوشِبْ الواقع وسط المشاريع الغربية، بين الشَقَرَاب والحِلة. ظَلّ هذا المكان آمنًا، حتى في سنوات الحرب الإريترية- الإثيوبية، وانفلات الأمن عند الحرب ما بين جيش الحكومة والمعارضة المسلحة في ثمانينيات

وتسعينيات القرن المنصرم، لذا كانت دهشة الناس عظيمة عندما عَرفوا أن الشِفتة لم يكونوا من الفالول الأحباش أو الإريتريين، ولكنهم سودانيون، بل ومن الجنقو، وعُرِفَ البعض بأسمائهم، كانوا يحملون الأسلحة البلدية: فؤوسًا وحرابًا وخناجرَ وسيوفًا أيضًا، كانوا لا يقلون عن عشرة من الرجال السُود الأقوياء، قاموا بنهب عربة بُوكس تعمل في نقل الركاب إلى معسكر الشقراب، أخذوا كل ما لدى الركاب من أشياء قيمة مثل الساعات والنقود وحتى الأحذية، الجديدة. وتحصلوا على مسدس كان يخص سائق العربة ويخفيه تحت المقعد مع كارتونة من الخمر المستورد، وفي نفس اليوم هاجموا نقطة التفتيش الواقعة في مفترق الطرق بين الشواك والشقراب واستولوا على رشاشة كلاشينكوف وبندقية جيم 3 وهربوا في اتجاه غابة زهانة، مستخدمين عربة نقطة التفتيش التي وجُدِتْ معطوبة قرب قرية الجيرة. حَدَثٌ بهذه الضخامة، عندما يدخل الحِلة فإنه يخرج منها أحداثًا كثيرة بشعة، وهذا ما وقع بالفعل، حيث أشِيع أن الجنقو تمردوا جميعًا، والآن يهاجمون جيش الحكومة في حاميتي زهانة وهمدائييت بأسلحة تحصلوا عليها من إريتريا، وصدقتْ الإدارة العسكرية والأمنية الرواية الشعبية للحدث، واتصلت بحامية خشم القربة وحامية القضارف طالبة العون العاجل لإخماد ثورة الجنقو، لكن نسبة لخبرة الحكومة الكبيرة في الصراعات المحلية والثورات المسلحة لم ترسل جيشًا، ولكنها أرسلت لجنة تقصي الحقائق برئاسة مسؤول أمني في رتبة كبيرة، وقامت اللجنة المطوقة بحراسة مشددة على عربة مصفحة بزيارة مواقع العمليات، والتقت الأشخاص الذين هوجموا وحققت مع الجميع، ثم كُونت لجنة مدنية حققت مع السكان.. ثم كتبت تقريرًا أهم ما فيه: (خمسة رجال من عمال المشاريع الموسميين يقومون بأعمال تخريبية لأهداف غير معلومة، ويُرجّح أنها للحصول على المال، يتسلحون بمسدس وبندقية جيم3 ورشاشة كلاشينكوف وأسلحة

بيضاء أخرى.. بعضهم جُنُود مسرحون من الجيش، لا يميلون للقتل أو سفك الدماء.. معروفون لدى كل السكان بالاسم وهم: طه كوكو نمر (عسكري معاش)، عبد الله خير السيد الطيب، برهاني تخلي ولدو، دنق مايوم أجانق (عسكري معاش)، إبراهيم عثمان الشايقي. وهم الآن إما في مكان ما بغابة زهانة، أو أنهم عبروا نهر سيتيت إلى مدينة الحُمَرةْ، أو أنهم يتحركون في هذا المجال من وإلى إثيوبيا). ثم أوصى التقرير بحماية طُرق السيارات العامة التي تربط الحِلة بالشَقَراب وطريق همدائييت والجيرة، الحفيرة زهانة. وأن ينشأ طوق عسكري آمن يتحرك في غابة زهانة للبحث عن المجموعة، ونصح التقرير بصورة واضحة بعدم اعتقال المواطنين أو الإضرار بهم، وتجنب الدُخول في صراع مسلح مع أي كان، ما لم يبادر الخصم بإطلاق النار أو نصب الكمايين. تركوا كتيبة كاملة من الإحتياطي المركزي جيدة التدريب، شباب غُبش، لهم عضلات مفتولة وأجسام رياضية، ورؤوس حَليقة بطريقة الكوماندوز، يَمشون في الطُرقات باختيال أقرب إلى الغنج، لولا قِلة النساء في شوارع الحلة وسوقها، لحدث افتتان لا تُحمد عقباه. أطلق عليهم السكان اسمًا سريعًا يحمل وجهة نظر حادة تجاههم.. سموهم: البُوم. كان أجدر بي أن أكون أول العارفين بخروج الشايقي في جماعة الشفتة، لقد ذهب دون أن يلمح إليّ بذلك مجرد تلميح، وكنت معه إلى آخر لحظة بالتّاية، أذكر أنه كان يحس بالغبن الشديد تجاه البنك، ويعتبر البنك والحكومة نفسها يعملان على زيادة غنى التجار، وأنهم ضد الجنقو.. كلنا نفتكر ذلك ونعتقد في ذلك ولكن هل هذا يبرر الاعتداء على المواطنين وأخذ أموالهم وممتلكاتهم وتخويفهم، وما علاقة ذلك بالغبن تجاه البنك أو الحكومة؟ ومن يدري قد يقود بعض هذه الحوادث إلى إزهاق الأرواح؟! إذًا ربما كانت هنالك حلقة مفقودة، تناقشتُ مع مختار علي حولها كثيرًا، وأخيرًا أحلنا الأمر إلى أن الشايقي ورفاقه أرادوا حياة رخية ومالًا سهلًا، فالعمل بالمشاريع

عمـل صعـب ومـردوده المـالي لا يغطـي إلاّ الاحتياجـات الصغـيرة التافهـة، ولوقـت محـدود، وليـس هنالـك ضـمان اجتماعـي أو تأمـين صحـي ولا فوائـد مـا بعـد الخدمـة ولا معـاش، إنـه كـما يقـول مُخْتَـار عـلي: عَـدَم في عَـدَم. ولكنهـم الآن يخاطـرون بحياتهـم، المـال السـهل يقـود إلى المـوت السـهل. وقررنـا أن نلتقيهـم لنعـرف، عـلى الأقـل حقيقـة أمرهـم.

أَحْوَالُ وثَوَرَةُ ألمْ قِشِي

أرسل ليّ ود أمونة مع أحد الجنقو رسالة شفاهية، فهمت منها، أن ألم قشي مريضة، وعليّ أن أحضر بأسرع ما يمكن، فرتبت أمر التّاية مع مختار علي، وركبت لواري همدائيت الصباحية، إلى الحِلة. وجدتها وود أمونة في المنزل، كانا يتناولان القهوة، بدت ليّ شاحبة بعض الشيء، سوى أنها كعادتها دائمًا جميلة ومبتسمة، ولكنني لاحظت أيضًا خيبة أمل ما في وجهها، وكأنها ما كانت تتوقع حضوري، ذهب ود أمونة لغرض ما أو ليتركنا منفردين، أخبرتني بأنها ما كانت ترغب في أن تخبرني بأنها مريضة، وأن ود أمونة قد تصرف دون استشارتها، ثم أخذت تتحدث بصورة عدوانية لم أعهدها فيها، ثم فاجأتني قائلة: أنا أجهضت، قبل يومين.. عمر خمسة شهور. في الحقيقة صُدِمتُ تمامًا، وهذا هو الشيء الوحيد الذي لم يطرق على بالي إطلاقًا، وأحسست بألم بالغ في معدتي، وشعرت بالفشل، بفشلٍ مرٍ وبليد، لم أستطع سوى أن أبحلق في بَطِنها، وكأنها ليست سوى خدعة حبشية خشنة، وكأنما الطفل لا يزال هنالك، كلما مرت الثواني ولم تتراجع ألم قشي من خدعتها، كان العالم يموت تدريجيًا في ناظري. أضافت في حِدةٍ:

- لقد انتهى كل شيء بيناتنا.

تمنيت لو أن ما يجري الآن ليس سوى كابوس لئيم، ألم قشي التي أمامي هي ليست ألم قشي زوجتي وحبيبتي. قالت لي مرة أخرى، بذات اللغة:

- كل واحد منا حيمشي في سكته.

سألتها ماذا تعني بذلك؟ أخذت تكرر أنها لا ترغب فيّ بعد اليوم، فبدا لي للحظات أنها قد أُصيبتْ بمسٍ من الجنون. قلت لها إنني

أحبها ولن أتركها، أبدًا، وإنني حبيبها وزوجها الشرعي، وإنها سوف تنجب مني طفلًا آخر، وإذا كان يؤلمها الإجهاض فإنه يؤلمني أكثر، احتضنتها، لكنها كانت باردة كالجليد، جامدة كصخر، تكرر، في آلية مؤلمة:

- انتهى.. انتهى كل شيء.

قلت لنفسي: لأتركنها الآن، تتخطى الصدمة، يوما أو يومين وتعود المياه إلى مجاريها كما يقولون، ولكنني كنت قلقًا ومترددًا وتائهًا، فلم أستطع أن أصبر على رأي، فبحثت عن ود أمونة، ووجدته سريعًا كما هي العادة؛ حيث إن ود أمونة يُوجد، حيث تريد، تناقشنا في شأن ألم قشي. وقال لي إنها على هذه الحال مُنذ أن أجهضت، وإن الشخص الوحيد الذي يمكنه أن يجعلها تتراجع هو أدّي، فعليّ بها، وحكينا أنا وود أمونة كل شيء لأدّي، تعاطفت أدّي معي أو معنا، وكانت قد ساعدتها وهي تعاني آلام الإجهاض من قبل، وهي أيضًا تعرف الكثير عن ألم قشي، شعابها وتقلباتها، وطلبت منا أنا وود أمونة أن نذهب نتمشى أينما شئنا وأن نأتي بعد ساعة من الزمان، تريد أن تتحدث مع ألم قشي على انفراد. تغيرت ألم قشي للأحسن قليلًا، وتراجعت أيضًا قليلًا، وقبلت بي كذلك قليلًا، بعد أن انفردت بها أدّي، ولكن ظلت العلاقة بيننا في توتر متزايد، لم يكن لأحدنا يد في أن يُجْهَض الطفل.. كنا نولي حملها الأولوية في التفكير.. لم تحملني مسؤولية الإجهاض ولم أفعل أنا، لم ألمها.. ولكنها كانت تتصرف تجاهي بعدوانية غريبة.. أنا لا أتحدث عن العض والرفس وتعمد تلويث ملابسي بالأوساخ، ولكنها راحت تشين سمعتي بين الناس، متهمة إياي باستغلالها وسرقة ذهبها ومالها.. قال لي الفكي على الزغراد:

- دا مس من الجنون.

لكن أدّي كانت دائمًا ما تطلب مني أن أصبر، ولم تخف قلقها بأنه

ربما قام بعض الحاسدين بكتابتها، والناس هنا قد يفعلون ما هو أسوأ. قلت لنفسي ربما أن ألم قشي تعاني من إحباط حاد، أصابها نتيجة للإجهاض، من يدري؟ قررت أن آخذها إلى الخرطوم؛ إلى مستشفى تجاني الماحي بأمدرمان. هكذا تشعبت بي طُرق التفكير والأحزان، وافتقدت صديقي، فلربما أسعفني بحل دونكيشوطي مجنون. من جانبي فعلت كل ما أستطيع دون فائدة، وكان خط دفاعي الأخير هو أن تحبل الم قشي مرة أخرى حِبلًا ناجحًا وأن تنجب أطفالًا، فكنت أحبها حقًا وليست لدي الرغبة في أن أتركها تشق دروبًا أخرى في هذه البلدة الصعبة، هنا النساء إما أن يعملن كجنقوجوريات، وإما كصانعات خمور بلدية، وإما كعاهرات أو أن يمارسن أكثر من مهنة في وقت واحد، وكلها لا تجدي مع ألم قشي، قبل أن تتزوج كنت أراها تنفع لذلك كله، حتى العهر، ولقد مارست معها ذلك، وكانت تعجبني كَبغي تعرف كيف تقدم متعة الشيء للرفيق. وكنت أعرف أنها في وقت ما عملت كصانعة للعرقي كما عملت كجنقوجورايا في أكثر من موسم، ولكنني الآن أراها بريئة هشة؛ بل خجولًا لا تعرف ماذا تريد أن تفعل، أراها طفلة لا تنفع في عمل شيء، أمًا مسكينة تتقطع بها سُبل الحياة، إذا تركتها يعني ذلك نهايتها تمامًا. أقمت معها خمسين يومًا في البيت بالحلة لا أغادرها، كنا بين بين، تبدو طبيعية أحيانًا، تجن في كثير من الأحايين، تتملكها مرات كثيرة رغبة وحَشية في أن تحبل، ولكنها ما تلبث أن تفقد هذه الرغبة في مرات أخرى، قضيت شهرًا مجنونًا متناقضًا، مؤلمًا، ولو أنه لا يخلو تمامًا من الإمتاع، ثم استأذنتها في العودة إلى المشروع، وبقيت هي مع ود أمونة وأدّي. ما كاد ينقضي شهرٌ واحدٌ فقط حتى أرسل ليّ ود أمونة رسالة شفهية مع أحد الجنقو فهمت منها أنّ ألم قِشي حُبلى مرة أخرى، لأنها لم تحض هذا الشهر، والشيء الآخر إذا لم أحضر بسرعة فإنها سوف تسافر إلى همدائييت لزوجها السابق، فهي ترغب في العودة إليه. طبعًا أول

مـا خطـر في بـالي أن ألم قـشي قـد جُنـت بالفعـل في هـذه المـرة، والحـل الوحيـد هـو آخذهـا إلى الخرطـوم بـأسرع مـا يمكـن، ورتبـت أمـري مـع مُخْتَـار عَـلِيْ، بحيـث يسـتعد لخـوض معركـة بقيـة الموسـم وحـده، وتركـت لـه مـا يكفيـه والرجـال مـن طعـام ومـال، وركبـت بـاص همدائييـت مـرة أخـرى إلى الحِلـة.. حـكي لي ود أمونـة الـذي قابلنـي في موقـف السـيارات بسـوق الحِلـة، فـور وصـولي، بـكل شيء بالتفصيـل الممـل، وقـال لـولا أدّي وهـو، لذهبـت ألم قـشي إلى همدائييـت، وأكـد لي أنهـا ليسـت بمجنونـة، بـل هـي بكامـل وعيهـا، وعـليّ أن أتعامـل مـع الموضـوع بحكمـة. كانـت قـد اسـتقرت عـلى رأي واحـد، هـو أنهـا سـوف تذهـب إلى همدائييـت، وأنّ عـليّ أن أطلّقهـا، لأنهـا تريـد أن تعـود إلى والـد بنتيهـا. وقالـت إنهـا أرسـلت لـه بهـذا الشـأن، وقَبِـل الفكـرة، وهـو الآن في انتظارهـا، وقالـت مؤكـدة: إذا رفضـت برضـو حمـشي ليهـو في همدائييـت. قلـت لهـا:

- ولكنك حامل !

قالت بكل برود:

- لمّان أِلدْ حَ أرسل ليك جناك هنا.

طبعـا اقتنـع الجميـع بـأن في الأمـر يـدًا شـيطانية، وأن الحاسـدين فعلوا فعلهـم مـع الفُكَيَـاِ، واتهـم البعـض الفـكي عـلي الزغـرات نفسـه، ولكـن عـلي الزغـرات حلـف بالنبـي وبالشـيخ محمـد الهميـم وبالطـلاق وبجـده الشـيخ سـليمان الزغـراد، أن لا يـد لـه في الأمـر، وأكـد أن الأمـر جنـون وإذا قبلـت فانـه سـيقوم بعلاجهـا، ولكنهـا رفضـت مدعيـة بأنهـا متعافيـة وأن الآخريـن هـم المجانـين. طلبـت منهـا أن تخـبرني بالسـبب الـذي جعلهـا تتخـذ هـذا القـرار. قالـت السـبب هـو أنهـا تريـد أب طفلاتهـا، وتريـد أن تعيـش مـع بناتهـا، ولا شيء غـير ذلـك. قلـت لهـا:

- وأنا؟

قالت:

- بطريقتك؟ النسوان كتيرات، اختار التعجبك.

تكـون سريعًـا فريـقٌ (للجوديـة) من نـاس الحـل والربط، رجالًا ونسـاءً، لَهُـم كلمتهـم في المـكان.. تحدثـوا عـن العلائـق الزوجيـة والاجتماعيـة، وتحدثـوا عـن الشـيطان وأولاد الحـرام وبنـات الحـرام، والحسـد، وأيضًـا تكلمـوا عـن القِسـمة، التـي مـن صفاتهـا أن تنتهـي. قالـت:

- أنا عايزة أرجع لأبو بناتي.

- لكنك متزوجة؟

- عايزاه يطلقني.

- أنا مش حاطلقك.. أنت حامل.. ألدي أولًا.

قالت:

- أنا حامل لمّان ألد ح ارسل ليهو الجنا.. لو ما وقع زي أخوه !

وتجادلنـا في حـوار يبعـد أو يقـرب مـن هـذا النسـق.. أقلقتنـي عبارتهـا الأخـيرة، كنـت لا أرى فيهـا غـير شـخصٍ مجنـونٍ لا يعـرف مـاذا يُريـد بالضبـط، لا منطـق لـه، ويمكـن أن يفعـل أي شيء، بإمـكاني أن أطلقهـا إذا كنـت قـد اقتنعـت بـأن تلـك هـي رغبتهـا الحقيقيـة وليسـت نتـاج مـرض نفـسي أو جنـون.. ولـو أن فريـق الجوديـة اندهـش لرأيـي الأخـير إلا أننـي أرجعـت ذلـك لعـدم مقدرتهـم عـلى فهـم وُجهـة نظـري، فجـأة خَطـرت لي خاطـرةٌ، قلـتُ لهـم:

-أنا حاخليها تمشي همدائييت وتبقى مع بناتها.

بُوغِتتْ الجودية بوجهة نظري، ولم يستطيعوا فهمها.

قالوا:

- أبو بناتها هناك.

قلت:

-هو عارف إنها غير مطلقة والأمر متروك للاثنين هو وهي

- لكنها في عصمتك؟

- دا موضوع تاني.. يحسمه القانون..

واختلف الناس اختلافًا كبيرًا، فظهر في السطح ما سُمي بـ (حكاية ألم قشي).. وتدخل في الأمر مدير شركة الاتصالات والقاضي المقيم ومدير المحلية ونفر من رجال الخير والبركة وأجبروا ألم قشي على عدم الذهاب إلى همدائييت، وأُلزمتُ أنا بعدم العيش معها في المنزل، أن أسكن كما كنت عازبًا مع مختار علي إلى أن تُحل المُشكلة، وكان هذا شرطها هي.. أنا وافقت.. هي أيضًا وافقت على مضض.. تركتها في المنزل الذي أعطتنا إياه أدّي، على أمل أن استفيد من هذه الهُدنة في عِلاجها وقررت أن أبدأ مشوار العلاج من همدائييت.. أن أذهب لزوجها وأستشيره في الأمر.. وكنت حقيقة آمل في أن يساعد في الحل. صحبتُ ود أمونة، لأنه أبدى رغبة كبيرة في أن يذهب معي، وكنت حقيقة أحتاج إليه، صحيح أنه شخص أصغر مني عُمرًا، ولكنني أعترف بأنه أنضج مني اجتماعيًا، وركبنا باص همدائييت، وهو عبارة عن لوري تمت إعادة تصنيعه ليصبح ناقلًا للبشر.. له مقاعد ضيقة من الحديد الصلب، ونوافذ حديد، مشرعة صيفًا، خريفًا وشتاءً.. يحمل الناس في بطنه وظهره وعلى يمين وشمال السائق، منطلقًا على الأرض السوداء، قافزًا فوق الحفر والخيران مثل ثعلب عجوز يهرب من مُطَارِديهِ، كان زئيره يُسمع من مسافات شاسعة عبر أشجار السافانا الفقيرة، تنتصت له الأرانب والفئران والقردة معًا والجنقوجورا المرابطون في التّايات البعيدة المنتشرة في عمق المشاريع الزراعية يكدحون. وما ينفك سائقه ينبه من يريد السفر إلى الجيرة،

الحفيرة، همدائييت أو الحلال الأخرى؛ أن ينتظره في طريقه الوحيد، الذي يتلوى كثعبان عبر غَابة زهانة، بين أشجار الطلح والكِتِرْ، ويعلو دخانه كثيفًا خاصة في هذه الأيام، حيث الأرض لينة وتنتشر البرك الطينية ويكثر الوحل. كان الجميع يتحدثون عن الخريف والمطر والزراعة المبكرة وغيرها من المواضيع الحيوية ولا أدري لماذا كنت أنا أفكر في الصافية ولماذا في الحقيقة كنت دائمًا ما أعقد مقارنة في وعيي ما بين ألم قِشي والصافية والفرق بين المرأتين ليس كبيرًا. ألم قشي تجد نفسها تقوم بأفعال وأقوال لا تعبر عنها في واقع الأمر.. قد تكون حالة مرضية وقد تعني هي ذلك. الصافية وذلك حسب النتائج التي خرج بها ما يشبه المؤتمر في بيت أداليا دانيال الصيف الماضي.. لها شخصيتان، شخصية ظاهرة وهي الشخصية التي نعايشها يوميًا، وهي الغالبة وشخصية أخرى لا تظهر للأعين فيما يبدو إلاّ إذا أثيرت عاطفيًا فقط، لأنها حتى في لحظات الغضب لا تبدو عليها أي تحولات شاذة أو غريبة. لكل من المرأتين شخصيتان، إذا صَحّ أن نُطلق على الصافية لقب امرأة.. إلاّ إذا أخذنا بإفادة الرجلين وإفادة الصافية نفسها، حدثني ود أمونة، وهو في الحقيقة نادرًا ما يصمت، عن شيء لم يخبر به أحد من قبل، وهو مشكلته مع صديقي. قال: إن صديقي انفرد به ذات يوم، بعد ما حدث بينه والصافية، وقال له إنه يريد أن يتحدث معه في موضوع، ولكن بصراحة ووضوح، ويريد أن يسأله بعض الأسئلة، وعندما أبدى له الموافقة، بادره سائلًا:

- هل إنت شاذ جنسيًا؟

قال ود أمونة، قلت له:

- لا أ.

قال لي محتجًا:

- كويـس؛ حـدد موقفـك، لأنـك غـير معـروف بالنسـبة للنـاس كلهـم: إنـت مـرا و لا راجـل.

قال، قلت له محاولًا إغاظته:

- أنـا لا مـرا ولا راجـل، بعمـل عمـل النُسـوان وبعمـل عمـل الرُجـال! يعنـي أنـا مـرا وراجـل!

ثـمّ قلـتُ لـه مـا كان يقولـه لي أحـد أصحـابي في القضـارف: **أنـا وكـسي مـا بـين وَلَـدْ وجكـسي**.

قال محتارًا:

- وضـح أكـثر، شُـنُو عمـل النُسـوان وشُـنُو عمـل الرجـال، شُـنُو وكـسي وشُـنُو جكـسي؟

قال ود أمونة، قلت له:

- إنـت جاهـز لعمـل النسـوان أم لعمـل الرجـال؟ عشـان أشرح ليـك عمليًـا.

وفجـأة صمـت ود أمونـة عـن الحـكي، لأن البـاص توقـف فجـأة، بصـورة دفعـت جميـع الـركاب إلى الأمـام، كدنـا نطلـق السـباب عـلى السـائق ونشـتم أمـه وأبـاه، لـولا أننـا شـاهدنا الرجـال الملثمـين الذيـن أحاطـوا بالبـاص في سرعـة الـبرق.. وهتـف صـوت جهـوري يعرفـه الجميـع:

- انزلـوا واحـدْ واحـدْ.. دون كلام وبالصـف.. النسـوان يقعـدوا قَبَلِـنْ وبرضـو الأطفـال.. كل راجـل ينـزل شـنطتو معـاه..

ونزلنـا جميعًـا، كان هنالـك جـذع شـجرة ضخمـة موضـوع في طريـق البـاص، عـلى مطـب ضيـقٍ، رغـم أنهـم ملثمـون فإننـا عرفناهـم جميعًـا، مـا عـدا بضعـة أفـراد يحملـون بنـادق رشاشـة يقفـون بعيـدًا، ليشـكلوا حمايـة لأصحابهـم لم نتبـين مـن أمرهـم شـيئًا، وكنـا نعـرف أنـه يجـب

علينا الادعاء بعدم معرفة الناهبين، وأن نطيع وأن نعطي وألا نثرثر وأن نخفض رؤوسنا وألا تلتقي أعيننا بأعينهم أبدًا. قال رجل منهم، يعرفه الناس باسم طه كوكو:

- نحنا عايزين من كل راجل نصف القروش المعاو.. وعايزين من سَواق اللوري كل القروش المعاو، والقروش بتاعت التاجر آدم إدريس البلالاوي المرسلنها ليهُ من القضارف.. بسرعة. ونفذنا الأوامر في سرعة رهيبة. قال ويبدو أنه هو المتحدث باسم المجموعة:

- نحنا ما شِفْتا.. نحنا ناس مظلومين وعايزين حقنا.. تاني ما ح نشتغل عبيد والـــ. حنقلع حقنا قلع.. كلموا التجار الكبار الماصين دمكم مص.

ثُمّ أخذ المال، ثُمّ سحب الجذع، ثُمّ أطلق سراحنا، كل ذلك في لمح البصر ثم اختفوا في الغابة بل تلاشوا كأن لم يكونوا.. قال لي ود أمونة بعدما ذهب المسلحون:

- ما قلت ليك، ما تثق في زول ولا تشيل قروش كتيرة معاك. شايف صاحبك الشايقي؟

هنالك ملحوظة مهمة، وهي أن الجنقو كانوا جميعًا مسلحين برشاشات كلاشنكوف، وأن عددهم لا يقل عن العشرين، وأنّ بعضهم يرتدي ملابس وأحذيةً عسكريةً تخص جيش الحكومة.. لكن الأهم، أنهم كانوا مطمئنين تمامًا ويعملون بترٍو وليست هنالك أي علامة للارتباك أو العجلة. وتأكدت صِحة المعلومات التي تداولناها فيما بيننا بالباص، عندما وصلنا همدائييت.. كان الناس جميعًا يتحدثون عن الدورية الحكومية التي اختفت علنًا بالأمس وعن تمرد الجنقو الغريب، لم أهتم كثيرًا بأمر الجنقو.. سألته عن أبناء ألم قِشي وزوجها السابق، فهو خبير بالأمكنة كلها، بكل يسر وسهولة قادني ود أمونة إلى البيت.. كانوا يقيمون مع جدهم، وهو رجل عجوز ثري كثير

الـكلام، البنـت الكـبرى جميلـة تشـبه والدتهـا ولـو أنهـا كانـت فارعـة القـوام، الصغـيرة أيضًـا تشـبه والدتهـا، كانتـا جميلتـين ورقيقتـين، اسـتُقبلتُ وود أمونـة بحفـاوة أكـتر عندمـا علمتـا أننـي زوج أمهـما، وسـألتا عنهـا وعـن صحتهـا وقالتـا إنهـما لم ترياهـا منـذ أكـثر مـن عامـين. حـضر بعـد ذلـك بقليـل زوج ألم قـشي السـابق ووالـد البنتـين، تركنـا الجَـد. تناقشـنا في شـأنها ولكـن مـا أدهشـني حقًـا وأدهـش ود أمونـة أكـثر، هـو أنهـا انفصلـت عـن زوجهـا السـابق بـذات الطريقـة التـي تتبعهـا الآن معـي، تحـدث زوجهـا السـابق منفعـلًا:

- قالـت هـي كرهتنـي.. شـلت بنـاتي أديتهـم لأمـي وأبـوي وطلقتهـا.. مشـت عرسـتك إنـت.. المـرا دي مـا مفهومـة.. عندهـا مشـكلة في رأسـها.

قـال لـه ود أمونـة، إنـه يُقـال ويُعْتَقَـدُ، بـين النـاس في الحِلـة، إنـه هـو الـذي هجرهـا وأخـذ بُنَيَاتـه منهـا. قـال متأثـرًا:

- واللـه لم يحـدث هـذا إطلاقًـا، يشـهد النـاس بزهانـة، لقـد وسـطت لها الدنيـا والعالمـين، ولكنهـا رفضتنـي، تركـت لي البنـات وهربـت، فنصحنـي النـاس حتـى لا تكـون في عصمتـي وتقـوم بفاحشـة تُحَسَـبْ عـليّ؛ أن أطلقهـا، فطلقتهـا.

قلت له محتارًا:

- ما العمل؟

قال لي بثقة:

- طلقها، طلقها بأسرع ما يمكن، دا الحل الوحيد.

قلت له صادقًا:

- أنا ما عِرِفْتَ مَرَا قبلها ولا بعدها.

قال وكأنه لم يسمعني:

- طلقها يا زول.

قلت له:

- هل ح ترجعها إنت؟ ح تتزوجها تاني؟

قال بكل صراحة ووضوح:

- أيوا.. ح أعرسها.. هي أم أولادي.. وإذا أبتني تاني وطلبت الطلاق ح أطلقها ليك إنت تاني. ما كنت أظنه يعني، أو يعي ما يقول، ولكنه كان يتحدث بجدية مبالغ فيها، كنا أنا وهو وحدنا، ود أمونة كعادته خرج خفيفًا، عندما أحسّ أن الموضوع يحتاج أن يُناقش بين اثنين، لا أدري إلى أين ذهب ولا متى، قبله كانت البنتان قد خرجتا مع الجد.

قال لي مؤكدًا:

- مرة ليك إنت ومرة لي أنا.. كله بسنة الله ورسوله.. لو ما عايز كِدا شوف مرا غيرها. ثم أضاف فجأة: إنت العاجبك فيها شنو؟ ماسك فيها قوي كِدا.. النسوان يا أخي زي ضَنَبْ الضَبْ: تقطعوا، يقوم غيرهُ تقطعوا، يقوم غيرهُ.. عِشرين مرة.

قلت له:

- أنا ما عارف والله..

قال مقاطعًا في إلحاح:

- طلقها يا زول.. المرا حتكتلك إذا ما طلقتها.. وتفر تدخل الحبشة، تاني شيطان مش حيعرف مكانها.. أنا بعرف الحبشيات ديل.. إما قعدوا معاك بإخلاص أو سابوك نهائيًا.. ما عندهم نُصْ نُصْ..

- ولكن ألم قشي مريضة..

- إنـت المريـض.. المـره دي عايـزة عيالهـا وعايـزة أبـو عيالهـا.. إنـت مالـك باقـي ليهـا عـارض؟ قلـت لـه:

- هي حامل مني!

قال ببساطة وهدوء مسيخ:

- عـارف كِـدا.. لمّـا تلـد وجنـاك يكبر شـوية نديـك ليـهُ.. أنـا لمـا سـابت لي بنـاتي أديتهـم لأمـي.. إنـت ادي جنـاك برضـو لأمـك أو خالتـك أو أي واحـدة مـن قريباتـك تربيـه ليـك، ولمّـا تكرهنـي ألم قـشي.. عرسـها تـاني إنـت.. الموضـوع بسـيط مـا يحتـاج لقومـة نفـس أو زعـل.

عـلى الرغـم مـن ان منطقـه يبـدو كمنطـق المجانـين لا يقـوم عـلى عُمـد معقولـة، وأننـي كالـذي في كابـوس، إلاّ أنـه أقنعنـي، وخرجـت منـه وقـد صممـت عـلى طـلاق ألم قـشي.. عـلى الأقـل، قلـت لنفـسي: ح تكـون في أيـد أمينـة وتعيـش سـعيدة مـع زوجهـا وبناتهـا.

شـكرني وطمأننـي أنـه بمجـرد أن تكرهـه ألم قـشي، سيرسـلها لي، وفي يدهـا ورقـة طلاقهـا.

قلتُ لألم قشي كطلب أخير وهي تمشي نحو الباص:

- حافظي على الزول الـ في بطنك.

قالت مبتسمة ولأول مرة منذ بداية الأزمة:

- ح أحافظ عليهُ.

وتحـرك البـاص في حراسـة الجيـش والاحتياطـي المركـزي، وهـو المظهـر العـام الـذي صـار يتخـذه بـاص همدائييـت والجـيرة والحفـيرة في الآونـة الأخـيرة.. كانـت أجمـل مـا تكـون المـرأة، تشـعُّ مـن عينيهـا سـعادة غامـرة، ولا يُخفـى همـس الجنـون الـذي يحيـط بهـا.. هالـة زرقـاء مرعبـة. ألم قشي هـي المـرأة الوحيـدة في حيـاتي، ولقـد أحببتهـا بالفعـل وعندمـا أقـول المـرأة

الوحيـدة، أعنـي أننـي اكتُشـفت فيهـا وأنهـا أول امـرأة تحمـل بأطفـالي، وهـذه قيمـة إنسـانية لا تضاهـى: أن تجعـل نفسـها تحبـل منـك. وهنالـك صفـة لا أظـن أن امـرأة أخـرى تشـترك فيهـا مـع ألم قـشي؛ وهـي أنهـا أجـادت مخاطبتـي باللغـة التـي أفهمهـا بالـذات، وبالكلـمات والموسـيقى التـي تتوافـق معـي.. ولكنـي انخدعـت في تصـوري للمسـتقبل، ومـا كنـت أظـن أنّ النهايـة هـي ذات النهايـة التـي أكابـد آلامهـا الآن، وإلى آخـر لحظـة.. بعـد أن تحـرك البـاص، كنـت أظـن أنهـا سـوف تغـير رأيهـا ولكـن عندمـا لوّحَـتْ إليّ بكفهـا مودعـة؛ عـبر نافـذة البـاص.. كان الفـراق قـد تأكـد تمامًـا.. شـيعني النـاسُ بنظـرات إشـفاق وجاملنـي البعـض بكلـمات ظنـوا أنهـا سـوف تخفـف عنـي، وأكـد لي البعـض في سـذاجة:

-ح ترجع ليك .. ما ح تلقى أحسن منك.

ولكـن أرحـم عـزاء قُـدم لي كان مـن قبـل الأم وود أمونـة، حيـث إنهـما هيئـا ليّ - لـولا حالتـي النفسـية المتردية - مـا كنـت سـوف أطلـق عليـه ليلـة العُمـر.. فاجـأني بالعجـوز في صحبـة أُم كيـكي وبـوشي؛ وهـو اسـم دلـع لبوشـاي الشـلكاوية المغنيـة، وهـي فتـاة في غايـة الجـمال.. أمهـا مـن الحمـران وهـي إحـدى القبائـل العربيـة بالمنطقـة، وتعـرف أدّي أننـي أحـب صحبتهـا و... في القطيـة الكبـيرة، بعـد أن أخـذا عنهـا جميـع المنقـولات، تـمّ فرشـها بالسـباته ثـم فُرشـت عليهـا بُسُـطٌ مـن البلاسـتيك رخيصـة ولكنهـا جميلـة وناعمـة.. ولهـا عبـق حميـم.. الأم نفسـها هـي التـي قامـت بغسـل ظهـري في الحـمام بالصابـون والليـف وقامـت بدلـك بـشرتي بعجينـة الدلكـة العطـرة، ثـم تركتنـي للعجـوز وبـوشي وبنيـات ثـلاث يغنـين لي وسـط هالـة مـن دخـان الصنـدل والكَبَرَيـت.. قلـت لهـم:

- غنوا لي أغنية: وصتني وصيتا.

سـقتني بوشـاي الجـن الأحمـر الحبـشي، الـذي أفضلـه وسـقيتها وشرب العجـوز، سـقينا البنيـات البيبـسي والإسـتيم، ورقصنـا جميعًـا، سُـكارى وغـير

سُـكارى، عـلى صـوت المغنـي الحبـشي **تمـرات** مـن مسـجل الأم.. غنينـا بالأمهـرا والتجرنـة والعـربي ولغـات نيـل ازرق قديمـة، لا نعـرف إن كانـت لـلأ نقسـنا، الوطاويـط أم الـبرون أم القُمُـزْ.. وغنـت بُوشـاي أغنيـة للشُـلك اشـتهرت بهـا المغنيـة الحسـناء ڤيڤيانـا. عنـد العـاشرة ليـلا همسـت الأم في أذني:

- ما أمنياتك الليلة؟

قلت لها:

- لليلة دي بس؟

-أيـوا الليلـة بـس.. العشـاء ليـس مـن الأمنيـات لأنـه جاهـز.. بعـد شـوية ح ييجـي.. وأغنيـة سـبعة يـوم عوضيـة بعيـد، برضـو خـارج الأمنيـات، ومـا أظنـك تحتـاج لوصتنـي وصيتـا.

قلت لها مراوغًا:

-خلي العجوز يتمنى لي.. حتى لو أغنية: وصتني وصيتا.

قال العجوز ضاحكًا:

- أتمنى ليك أحلام سعيدة.

قالت الأم:

- كويس نشوف بوشاي تتمنى ليك شنو.

قالت بوشاي وهي تبحث عن غطاء رأسها:

- أتمنى ليهو يشرب باقي الجن دا براو.

قالت الأم للصبيان وهي وبوشي تضحكان:

- في واحدة عايزة تتمنى ليهو حاجة؟

ضحكـن وأخـذن يغنـين: سـبعة يـوم عوضيـة بعيـد. قلـت وكنـت صادقًـا أم سـكرانًا لسـتُ أدري:

- أتمنـى أن تحـكي ليّ الصافيـة حكايـة مـن حكايـات الجنقـو.. أو يحـكي لي ود أمونـة عـن السـجن. قالـت الأم وهـي تضحـك فيهتـزُّ صدرهـا الكبـير:

- الصافيـة في مـشروع الزبيـدي تـرش السمسـم.. وود أمونـة هـرب وقـال هـو تعبـان.. أنـا ح أحـكي ليـك قصـة حيـاتي.. واللـه ح تلقاهـا أجمـل مـن قِصـة حيـاة الصافيـة.

تعشـينا جميعًـا، عندمـا سَـكرتُ جـدًا، تركـوني وذهبـوا: نمـت، حلمـت بـأن الصافيـة جـاءت مـن مـشروع الزبيـدي عـلى جمـل ضخـم أسـود اللـون قالـت لي: صديقـك نجمتُـهُ! وح أنجمـك إنـت برضـو!

حَول مِحْنة أدَالِيا دَانيال

في بيت أداليا دانيال عشرة مسجلات بسماعات كبيرة خارجية ملحقة، تحتفظ بها في صندوق كبير من الحديد الصلب، كان يستخدم لحمل الذخيرة في الحرب العالمية الثانية، اشترته من كرن، بالصندوق أيضًا عددٌ كبيرٌ من النظارات الشمسية، وأحذية أديداس كبيرة الحجم، وعشرين راديو ناشيونال بثلاث موجات، وأشياء أخرى صغيرة تافهة، ولكن لها قيمة أبقتها في الصندوق. تسمي أداليا دانيال الصندوق: خزنة الأمانات. وهي في الحقيقة ليست أمانات بالمعنى الواضح للكلمة، ولكنها دخلت الصندوق كأمانات ثُمّ تَمّ شُربها تدريجيًا أو أكلها، وفي القليل النادر جدًا قبض بعض قيمتها نقدًا، ويحدث هذا عادة في أشهر الصيف ونهاية موسم حصاد العيش، حيث يكون الجنقوجوراي قد استهلك آخر ما لديه من مال، وبدأ في أكل زينته التي حرص على جمعها في شهور حصاد السمسم وقطع العيش - أي في أكتوبر ونوفمبر وأوائل ديسمبر- وهي كما يسميها الجنقوجوراي: الشهور السمينة. أداليا دانيال مثلها مثل كل صانعات العرقي والمريسة تحترم الأصول، فعندما يقول لها أحد الفدّادَة: خلي المسجل دا معاك. تبدأ مباشرة في تحديد سعره، ثم على الحائط تشخبط ما شرب الفدّادي من عرقي ومريسة، وما أخذه نقدًا، إلى آخر كأس. والجنقوجوراي الأصيل ود القبائل لا يسأل عن أمانته مرة أخرى، إلاّ إذا وفرّ ثمنهًا، وهو دائمًا ما يفضل شراء زينة جديدة في الشهور السمينة ويتبع الموضة السائدة، أما الجنقوجوراي الحريف، الذي يجيد اللعب فهو الذي يصاحب صاحبة العرقي، لا يهم فارق السن بين الاثنين، وهو غالبًا ما لا يُوضع في الاعتبار، لا يهم جمال المرأة أو قبحها، فالرجل الناضج الذكي يرى كل النساء جميلات، ومن الحكم السائدة

في هـذا الشـأن أن كل امـرأة لديهـا مـا تقدمـه للرجـل، بغـض النظـر عـن سـنها أو جمالهـا أو لونهـا أو قبيلتهـا، وأن كل النسـاء جميـلات بالقـدر الـذي يجعـل الرجـل يصـل ذروة نشـوته، ويختـصر الفـدّادَة القـول في: الفَحْـل مُـو عـوّاف. ولكـن الأهـم مـن ذلـك بنـد في عقـد المصاحبـة غـير المكتـوب، هـو أن يصاحـب الجنقوجـوراي الواحـد امـرأة واحـدة فقـط وأن تكتفـي الفدّاديـة بجنقوجـوراي واحـد، وهـذا التـزام صعـب، وغالبًـا مـا يفشـل الجنقوجـوراي في الوفـاء بـه، حيـث إن الكسـل الـذي يصيـب الجنقوجـوراي في هـذه الأيـام والتسـكع والتلكـع، والوجبـات الدسـمة التـي توفرهـا لـه صاحبتـه، غالبًـا مـا تحـرك شـياطين شـهوته، والنسـاء يصبحـن أجمـل في: ديسـمبر، ينايـر، فبرايـر، مـارس وأبريـل، لأنهـن لا يعملـن في هـذه الأشـهر، في أم بَحْتـي أو قطـع قصـب السـكر في المشروعـات المرويـة، حيـث يكتفـين بالحيـاة المنزليـة البطيئـة، يوفـرن خبزهـن عـن طريـق بيـع الخمـور، بيـع العُطـور البلديـة، بيـع الشـاي والقهـوة في الأسـواق نهـارًا أو في أركان المنـازل مسـاءً، قليـل منهـن يمارسـن الدعـارة، فضـلًا عـن كونهـا لا تجلـب مـالًا لأن الرجـال جميعًـا لا مـال لهـم في هـذه الأشـهر، حيـث تسـود المقايضـة.. إذا أضفنـا نـدرة الرجـال أنفسـهم في هـذه الأشـهر، حيـث يهاجـر معظمهـم إلى مـزارع السُـكر في جماعـات للعمـل في الكاتاكـو، وتحتـدم المنافسـة بـين النسـاء الجميـلات الكسـولات في مواسـم راحتهـن، وتفرغهـن للحـب والمصاحبـة والـزواج، الكثـيرات عـلى العـدد المحـدود مـن الرجـال، الذيـن قـرروا البقـاء بالحلـة اعتـمادًا عـلى تسـليم زينتهـم كأمانـات غـير مسـتردة، أو الـزواج والمصاحبـة كنظـام معايشـة إلى أن تنقـضي الشـهور الصعبـة ببدايـة موسـم الكَدِّيـب. والرجـل الجنقوجـوراي الـذي يعتمـد عـلى المصاحبـة في عيشـه يُسـمى: بالهَـوَان. ثـم يـأتي موسـم الحصـاد، وهـي الفـترة التـي غالبًـا مـا يتـم فيهـا فـض الشراكـة، منهـا الطـلاق. أداليـا دانيـال متزوجـة مـن رجـل قـوي الإيمـان، ينتمـي للكنيسـة الكاثوليكيـة، هـي أيضًـا مؤمنـة، تصـلي لربهـا وتعمـل مـع الأخـوات في

الكنيسة.. ابناها أباب وتوني، صغيران ويمارسان الدين إلى الآن كنمط من محاكاة الكبار والتطلع إلى النضج الحقيقي والسريع. وتعلم أداليا خطورة أن ينمو طفلاها في بيت يرتاده السُكارى، حيث إنهم يتحدثون بألفاظ لا يقبلونها كثيرًا في موقد الأخلاق ولا يكترثون للذوق العام أو ما يجب وما لا يجب، يتحدثون عن نسائهم فاضحين ما يستره الليل في القطاطي والرواكيب، ولا يتحرجون في نقل تجاربهم في المضاجعة وخبرة النساء، ويضحكون في متعة قد يظن الطفلان أنها المتعة الحقّة التي لا يوفرها سوى هذا النمط من الحياة، لذا كانت أداليا دانيال تتعامل معهما بحزم ولا تتسامح في بقائهما قريبًا من مرمى حديث السُكارى، أو أن يسلكا سلوكهم، وهذا هو سر الالتزام بالكنيسة، وربط الأطفال بأنشطتها، حتى يتسنى لهما قضاء أكبر وقت خارج المنزل خاصة يوم مريستها كل سبت. وإذا عادا مبكرين؛ ترسلهما مباشرة إلى منزل خالها عبد الله ماجوك الذي يعمل محاسبًا في زريبة المحاصيل، يتغديان هناك ويعودان قبل المغرب بقليل، حيث يجدان المنزل قد خلا من الفدّادة، ويجدان نصيبهما من المريسة محفوظًا، يؤديان صلاتهما.. يشربان مريستهما قبل أن يخلدا للنوم.. ولكن هذا البرنامج التقي المستمر لا يمضي كما تشاء أداليا دانيال ويشاء زوجها، لأن زوجها له رأي آخر في تربية أطفاله.. تنازل عنه لأداليا، ربما لقوة شخصيتها، ربما محاولة منه لتجنب الخلاف الذي قد يؤثر على حياة الطفلين، ربما تمشيًا مع الأخلاق المسيحية كما يفهمها: التسامح المستمر وإعطاء فرصة أخرى للآخر. أداليا دانيال تفهم وجهات النظر هذه جميعها، ولكنها تنطلق من مبدأ أن تربية الأطفال من مسؤولية الأم وليس الأب الذي عليه النضال خارج المنزل لتوفير المال.. ليس إلاّ.. ولو أنه فشل في ذلك ففشله لا يسقط واجبه المفترض كأب لطفلين ولا يحمله مسؤولية لا تخصه وهي تربية أباب وتوني، ولكن هل حقًا كانت أداليا دانيال بهذه الصرامة؟! حسنًا، هنا، دائمًا ما

يَعْـرف الآخـرون عـن الأشـخاص أكـثر مـما يعرفونـه هـم عـن أنفسـهم، فالنظـرة مـن خـارج الـشيء هـي الأكـثر موضوعيـة وشـمولية، وحكمـة المـكان تقـول إن الآخريـن كـثر وأنـت واحـد.. أيهـما نصـدق؟ للآخريـن ألـف عـين وخمسـمائة قلـب وآلاف الأصدقـاء وألـف أُذن وخمسـمائة فـم وألـف رجـل ومثلهـا يـد.. وأنـت واحـد.. أيهـما نصـدق، لا بـل أيهـما أقـدر عـلى تقـصي الحقيقـة واختبـار الكـذب والتلفيـق؟! فيـما يشـبه النـدوة في يـوم مريسـة خميسـة النوباويـة تأكـد الجميـع مـن صحـة الحكايـة التاليـة: في اليـوم الـذي تزوجـت فيـه كلتومـة بـت خميسـة النوباويـة مـن عبدارامـان الجنقوجـوراي، بعـد العقـد مبـاشرة بـدأ الحـوار حـول المتعـة، كان طازجـا فجًـا بسـيطًا كأحـر مـا يكـون، في الحـق لم تبـدؤه ألم قـشي ولم تكـن الملحوظـات التـي أبدتهـا في هـذا الشـأن هـي الأصـوب، أو الأكـثر إثـارة للجـدال، ولكـن لا أحـد يسـتطيع أن ينفـي أنهـا كانـت ذات بـاع طويـل في كل ذلـك، ولكـن، بالأمـس، في يـوم مريسـة خميسـة النُوباويـة وفي مـا يُشـبه النـدوة، تحدثـت النسـاء عـن أول مـرة، كـما سـمينها، تعـرف فيهـا أداليـا دانيـال أن هنالـك أمـورًا مهمـة في حياتهـا كامـرأة لم تصـب هي منهـا شـيئًا، ورمينهـا بادعـاء بـراءة لا تليـق بامـرأة في زواج مسـتقر منـذ عشريـن عامًـا أنجبـت خلالـه مرتـين. ولكـن أداليـا دانيـال أكـدت:

- الشيء البتتكلموا عنو دا والله ما حصل لي ولا مرة واحدة.

ثم أمطرنها بوابل من أسئلة رجيمة:

- راجلك تمام؟

- (.. .. ..)

- قاعد يصل بسرعة.. ينبح زي الكلب؟

-كم دقيقة؟

-قاعد يطول ولا لا؟

-قاعد يلعب معاك شوية ولا طوالي؟

ثم حكين لها تجاربهن مع رجالهن، وأوحين لها بما يعني أن المشكلة كُلها في لام دنق، وليست المشكلة هي عدم ختانه فحسب، ولكن في تعجله وتعامله مع الأمر كواجب.. هكذا توصلن إلى نتيجة أراحتهن كثيرًا، وأحسسن بالعطف والشفقة على امرأة لم تتمتع بالميزة الأساسية التي تجعلها أعظم مَنْ خلق الله: أن تكون أنثى. قلن لها بما يعني:

-أنت ضائعة.

دارت الندوة في الواقع ما بعد هذا الاكتشاف المثير، يوم مريسة خميسة النُوباوية، بعد عام كامل، رصد العقل الجنقوجوراوي فيها كل صغيرة وكبيرة عن أداليا دانيال.. قررت أداليا أن تصبح كصويحباتها اللائي يستمتعن حقًا بحياتهن كنساء، وأن تعرف اللحظة التي تحدثن عنها بأوصاف محفزة ومدهشة:

-ما بعرف نفسي في الواطا ولا في السما.

-تجيني حاجة زي الخدر وما خدر.. زي النعاس وما نعاس.. زي الحلم وما حلم.. حاجة تتمنى تدوم ولكنها تنتهي فجأة.

-نوع من الوجع.. الوجع اللذيذ.

-يا اختي دا شيء ما بيتوصف.. إلاّ تجربيه.. دا شيء من ربنا.

-بَرِي.. بَرِي.. يا بنات أمي.. بَرِي.. أنا ما بحب بتكلم في الحاجات دِي!

حاولت مع زوجها لام دنق ولكن دائمًا ما تنتهي اللعبة بأن يدفق ماءه مصدرًا صوتا غليظًا، ثم يشكر الله في صلاة سريعة وينام. في الماضي كانت لا تهتم لأنها ما كانت ترجو أكثر من اللذة التي تحدث نتيجة لفعل الإيلاج والنزع المتكررين بالإضافة إلى حضن

زوجها الدفيء الذي عندما تأوي إليه تحس بأنها مركز الكون. ولكنها الآن ترغب في أن تصل إلى نتيجة أبعد رسمتها لها الصديقات وشهينها فيها.. أصبحت أداليا لا تطيق لام دنق، ولو أنهما كانا لا ينامان معًا إلاّ مرة في الأسبوع، وأحس لام دنق وأرجع ذلك إلى تقلبات النساء التي تحدث عنها الرب كثيرًا في الكتاب المقدس.. وسمع أيضًا من بعض المسلمين أن الرب تحدث عنها مرة أخرى في القرآن كذلك وقال عن النساء كلاما كثيرا. لام دنق رجل قصير سمين له عينان ذكيتان ثاقبتان، لا يتحدث كثيرًا، يعمل في كمائن الطوب في فترة الصيف عند شاطئ النهر، وله خبرة كبيرة في ذلك، يعتبر الرجل الثالث في الكنيسة بعد الأب بيتر والأم مريم كُودي، وهي عذراء جميلة وتقية، جدودها من جبال النُوبة من الدلنج بالتحديد، ويُقال- في ما يُشبه الندوات- إنها حازت مرتبة عليا في مسابقات الجمال في كينيا، قبل أن تهب نفسها للكنيسة كليًة وتُرسل إلى هذا المكان البعيد.. لام دنق اعترف للأب بيتر بأن أداليا دانيال زوجته غير طبيعية.. لأنها طلبت منه أن يختن نفسه.

- هي مُش عارفة إنو الختان دا عند اليهود والمسلمين؟! ونحن خلقنا على صورة الرب.. ولا يمكن أن نشوه أنفسنا.

-هي تعرف.

-ولكن السبب شنو؟! عايزة تبقى مُسلمة ولا شنو؟

-لا.. هي متمسكة كويس بالدين.. ولكن أنا ما عارف الحاصل شنو.. الموضوع غريب. كلفت الأم مريم كودي بمعالجة الموضوع مع أداليا دانيال يوم الأحد القادم، فهي صديقتها وهي أيضًا امرأة، ويسهل التفاهم بين المرأتين. فيما يُشبه الندوة في يوم مريسة خميسة النوباوية.. يوم السبت.. أُكِد ما يلي: عَرِفَ صديقي بما سُمي فيما بعد بمحنة أداليا دانيال، وكعادته نَصّبَ نفسه مهدِّيًا جديدًا وقال لي:

- أنـا ح أكـون أول مـن يخـلي أداليـا دانيـال تحـس بأنهـا امـرأة.. ح أخليهـا تصـل قمـة نشـوتها.

قلت له ساخرًا:

- بس ما تبقى عليك حكاية الصافية.

قال جادًا:

- دا بَرَاو.. دا بَرَاو!

كانـت أداليـا دانيـال تفوقـه طـولًا، وحجـمًا، فهـو نحيـل طويـل بعـض الـشيء، قـال إنـه بعـد غـزل ومنـاورات كان لا بـد منهـا اسـتطاع أن ينفـرد بهـا في إحـدى قُطيـات أدّي.. قـال لي مزهـوًا: اكتشـفت في الدقيقـة الأولى كَـذب كل مـا يُشـبه النـدوات التـي يقيمهـا السُـكارى والنسـاء الفارغـات، فمبجـرد أن قبّلتهـا.. وصلـت أداليـا دانيـال إلى ذروة النشـوة، هَـرّتْ مثـل قِطَـةِ بِكْـرَةْ وانكمشـت ثـم تمطـت، حملقـت في وجهـي بصـورة مرعبـة ومضـت.. في يـوم الأحـد لم يكـن هنالـك شيء تقولـه أداليـا دانيـال لـلأم مريـم كُـودي.. غـير أنهـا تنازلـت عـن موضـوع الختـان وأن الأمـر مـا كان أكـثر مـن فِكـرة طائشـة، ولكـن؛ مَـنْ هُـو الغَبِـيُ الـذي يُصَـدّق رِوايتـهَ هَـذِه؟

السَارِقُونْ الرحماءَ

انتظـم العمـل في المشـاريع، أكـثر مـا يميـز هـذا العـام هـو تدخـل البنـك كممـول للمشروعـات الكبـيرة وكمـزارع عـن طريـق موظفيـه الذين؛ بسـلفيات مـن البنـك؛ زرعـوا أراضي واسـعة بالسمسـم والـذرة؛ ومديـر البنـك نفسـه زرع ألـف فـدان ذرة في المنطقـة الخصبـة مـا بـين خـور مغاريـق إلى غابـة زهانـة، وعُرفـت بمـشروع **نـاس البنـك**. عمـل الجنقـو في كل المشـاريع بصـبر وأنـاة، ماداموا يدفعـون لهـم بانتظـام وماداموا في أشـد الحاجـة للـمال. الحـق يُقـال إن وجـود البنـك أنعـش ركـود الاقتصـاد المَحَـلي، وظهـرت أنشـطة جديـدة أوجدهـا موظفـو البنـك الذيـن بسـلفيات مـن البنـك قامـوا باسـتيراد الأبقـار الفريزيـان الهجـين ومـزارع الدواجـن البيطريـة، هـذان النشـاطان وحدهـما اسـتخدما عمالـة لا تقـل عـن الثلاثـين شـابًا عاطـلًا عـن العمـل، وقلـلا مـن سـعر البيـض الـذي أصبح أحـد المـواد الاسـتهلاكية، حيـث خَلقَـتْ لـه الدعايـة والتقليـد سُـوقًا رائجـة وأيضًـا أصبـح سـعر رطـل اللـبن نِصـف جنيـه فقـط وهـو أكـثر جـودة لأنـه الأنظـف والأقـل مـاءً، ويتـم حفظـه في آنيـة كبـيرة تغسـل في اليـوم مرتـين. وابتكـر موظفـو البنـك نظـام تسـليف عُـرِفَ بـين الأهـالي بالكتفـلي، وهـو أن يقـوم موظـف البنـك الـثري بتسـليف شـخصٍ؛ بواسـطة ضمـين معـروف ووصـل أمانـة؛ مَبلغًـا مـن المـال يسـاوي عـددًا مـن جـوالات الـذُرة أو يتـم مقابلتـه بعـدد مـن جـوالات الـذُرة وضربهـا في اثنـين، ويتـم اسـترداده بسـعر الـذرة في وقـت اسـترداد الديـن الـذي غالبًـا مـا يتضاعـف إلى أكـثر مـن ثـلاث مـرات خـلال شـهور رد الديـن وهـي مايـو، يونيـو، يوليـو، وأغسـطس. ومـن ثـم يـرد المَدِّيـن الديـن مضروبًـا في أربعـة، وحسـنوا أيضًـا مـن مسـتوى المواصـلات، لأنهـم أحـضروا إلى المنطقـة لأول مـرة حافـلات الـركاب المُريحـة، ثـلاث حافـلات تعمـل في فـترة الصيـف، مـا

بين الشُواك وعبودة والحِلة، يمتلكها موظفان بالبنك، طبعًا فسر الناس ذلك بأنه، إلى أن يثق البنك في المواطنين العاديين، فإنه يقوم بتسليف موظفيه وكبار التجار فقط، بدلًا من أن يبقى المال بالخزائن دون فائدة، وكثير من الناس قَدّرَ موقف البنك هذا، بل وثمنوه، طالما دفع الحياة البائسة الراكدة بالمكان، حيث تمكن أي مواطن منتج من بيع سلعته لموظفي البنك، حتى الفحم وحطب الوقود بل حطب الطلح الذي تتدخن به النساء، خزنه الموظفون بكميات هي الآن ترتفع عشرات الأمتار فوق سطح الأرض. - كنا نودي الفحم الخرطوم، بلصات ورشاوى لا أول لها ولا آخر في الطريق.. الليلة صديق العوض أو أحمد البدوي أو المدير نفسه الذي يعطي مقابلًا من المال لكل شيء له قيمة؛ ريحونا من التعب دا كله.

ولكن رغم هذه الفوائد الجمة التي يعدون منها ولا تعد، فإن الناس الذين لا يملأ أعينهم سوى التراب، يعيبون على البنك تدخله في حياتهم الخاصة مباشرة أو بطرق غير مباشرة، ويحفظون له حوداث كثيرة في سجلٍ قبيحٍ، وقد عُقدت ندوات وندوات في نقاشها ومحاولة البحث عن حقائقها. ففيما يُشبه الندوة في منزل أبرهيت، يوم الاحتفال بعيد غامض يطلقون عليه تجاوزًا عيد سُليمان أو النبي سُليمان، نُوقِشَ موضوع المبلغ الذي خصصه صِدّيقُ العَوَضْ موظف البنك لأمول أجانق.. إذا دخل الإسلام، وكان أمول أجانق نفسه من الحاضرين، ولقد أدلى بشهادة لم تُعط من الاعتبار إلاّ أقله، حيثُ اعتمد الناس بصور أساسية الرواية التي أدلى بها صديقُنا مختار علي، الذي أكد بما لا يدع مجالًا للشك، أنّ صدّيق العَوضْ، قد استلم مبلغًا كبيرًا من المال من أحد الناس ذوي الذقون الكبيرة، وقال:

- لولا أنّ أسامة بن لادن مختبئ هذه الأيام في طُورابُورا، لقُلت: دا أسامة بن لادن ذاتو.. زول طويل.. سمين.. قوي.. أبيض.. عندو

دقـن كبـيرة.. عنـدو شـعر كتـير.. عنـدو مـال كتـير.. عنـدو حـرس.. جـاء القضـارف وقابلـو صديـق هنالـك، وحلـف بربـه وبالنبـي إنـه رآه وسـمعه..

ثـم أخـبرت الأم عـن محاولـة يائسـة معهـا للأخبـار عـن الجنقـو الذيـن يحملـون السـلاح في غابـة زهانـة، ومعرفـة مـن معهـم ومـن ضدهم.. أشـار ود أمونـة عـن عـرض زواج عُـرْفِي مـن مديـر البنـك إلى بـوشي، وربمـا قـد تـم ذلـك الـزواج؛ لأن لا أحـد اعتمـد روايـة بـوشي التـي أنكـرت الواقعـة جملـة وتفصيـلًا قائلـة بشـكل قاطـع وحـاد:

-إن شاء الله أديهو للكلاب وما أديهو للزول المتكبر الحرامي دا!

قالت أداليا دانيال:

-أبيـت أبيـع ليهـم مسـجلاتي.. ادوني سـعر رخيـص جـدًا.. ولا الخسـارة الـلي خسرتهـا فيهـم. وأضافـت بعـد أن ضحكـت ضحـكًا يشـبه الهسـتيريا.. قـل إنـه نُـوع مـن البـكاء:

-هم القالوا ليّ خلي راجلك يتطهر، (تقصد يُختتن).

ولكـن مـا أدلى بـه أبرهيـت المتحفـظ دائمًـا، المتشـكك فيـما حولـه؛ الغامـض الـذي لا يغلـط عـلى أحـدٍ، كان المدهـش. قـال موجهـا حديثـه لي:

-هـم الخربـوا بيتـك.. هـم الضيعـوا ألم قـشي.. أغروهـا بالذهـب والمَال.. أنـت شـخص غـير مرغـوب فيـه هنـا.. عايزينـك تفـوت أو تمـوت، اعمـل حسـابك، لأنـك أنـت المتهـم بتحريـض الجنقـو، ودفـع صديقـك الشـايقي عـلى الخـروج عـن القانـون.

ولأول مـرة تخـرج نـدوة بـلا شيء لأنهـا خمنـت بمـا يشـبه التقريـر عـن أنشـطة البنـك ملخصـه: مـا لم يقـل الفـكي كلمتـه فـإن لا حقيقـة يمكـن اعتمادهـا.. لكـن عـلى هامـش النـدوة دار حديـث سري مفـاده إن الفـكي عـلي هـو الـذي مكنهـم مـن النـاس، هـو الـذي سـخر شـياطينه وآياتـه ومِحَايَتِـه وعروقـه وكتبـة الصفـراء وجلجلوتيتـه وشـمس معارفـه الكـبرى

وتِبيانـه وسـحره الأخـضر والأحمـر والأسـود.. لمصلحـة موظفـي البنـك لأنهـم يدفعـون لـه أكـثر.. لأن الفـكي عـلي بإمكانـه تدميرهـم جميعًـا، خاصـة أن ألم قـشي عرفتـه بأسـماء أمهاتهـم جميعًـا عـن طريـق مهـارات اسـتخدمت فيهـا مَكـر النسـاء، دهـاء الرجـال وخبـث ود أمونـة، والجميـع يعـرف أنّ الفـكي عـلي ذهـب إلى مدينـة باسُـوندا وقـضى أسـبوعين كاملـين بهـا، وباسُـوندا هـي المدينـة التـي يُوجـد فيهـا خَزَنَـة أَسْرَارِ عِلـمِ الشَـجَرْ في الكـون كلـه؛ أو مَـا يُسَـمَى بالسَـحِرِ الأخْـضَرْ، وهـي المدينـة التـي قِيـلَ في شَـأنِها هنـا في الـشرق: إذَا نَـاسْ بَاسُـوندا أَبُـوكَ؛ نَـاسْ الـتُرَبْ نَـادُوكَ.

وَدْ أَمّونَةْ وَحدُه الذِي يَلّمُ بأطْرَافِ القُوَالاَتِ

ود أمونة المراسلة بالبنك وحده الذي يلم بأطراف القوالات والحقائق، وربما كان أحد صانعي الأحداث الكبرى في الحلة، كان الموظفون يولونه اهتمامًا بالغًا، بل يصل لحد التدليل، وما ذلك إلاّ لقوة المعلومة وسلطة المَعْرِفَة النادرة التي يتمتع بها، أو ما يحلو للبعض أن يطلق عليه: المعرفة السريرية. كانت أمه أمونة في بِداية حياتها، عندما قَدمت من القضارف، التي جاءتها؛ كَمَا يَقولون؛ من أقاصي غرب السودان تَعْمل في المشاريع مع الجنقو.. كانت تأخذه معها وهو صغير إلى المشاريع، ومثل أطفال صديقاتها، تتركه تحت ظِل ضيق من القصب والعدار، فارشة له على الأرض ملاءة قديمةً عليها بعض البلح أو قطعة حلوى يُشاركه فيها الذباب والنمل، وقد تعلم ود أمونة منها درسه الأول: الصبر من النمل والخِسة من الذُباب. في بلد يكبر الأطفال فيه سريعًا، إذا لم يموتوا وهم دون الخامسة أو في بطون أمهاتهم، تربى وسط ثلاث بنات كلهن أصغر منه عمرًا، أخوات أمه، لحقن بها بعد أشهر قليلات من إقامتها بالحلة، استقر المقام بِهن في المملكة العربية السعودية، لقد بهرن بجمالهن وشبابهن ونضجهن، قاماتهن ولونهن، امرأة تعمل بالكرنتينة بِجِدة، تجيد استثمار الصبيات، ولو كن قاصرات، ولكن التّاية أقنعت أمونة بأن من مصلحتهن أن يكبرن هنالك، وهي تعرف كيف تصنع منهن ربات جمال وهن في هذا العمر، التربية الجيدة في الصغر هي ضمان النجاح في الكبر، وأن يكبرن على عز ورفاهية خير من أن يعشن في هذا الذل يوما واحدا آخر، وسوف تجد لهن العمل المُريح الشَريف الذي يتناسب مع أعمارهن، من ثم حالما غادرن الأسرة ولم يُسمع لهن صوت، ولسوف لن يسمع أصواتهن ود أمونة؛ إلاّ بعد سنوات من سفرهن، أي عندما

يتم افتتاح شركة الاتصالات رسميًا بالحلة. إذًا يمكن القول إن ود أمونة لم يعش بصورة متواصلة إلاّ مع أمه وجهًا لوجه. أمونة امرأة جميلة من كُردفان، وهو المكان الذي دائمًا ما تطلق عليه هي: أقصى الغرب. ليس من السهل أن نصدق كل ما نسمعه ويحكي عنها وعن أصلها، ولا يكن القطع عن المهن التي تنقلت إليها، ولا الرجال، ولكن عرف عنها أنها مترددة سجون، ويترصدها بعض العسكر الذين يرجون منها وطرًا وتصدهم، وهي أيضًا امرأة شرسة، وشجاعة؛ ألم نقل إنها جميلة أيضًا؟! ومن المؤكد أن ود أمونة لم يرث من أمه شيئًا، سِوى لون بشرتها، هذا إذا لم يكن أبوه هو اليماني، ويقول الناس من المفترض أن ينمو ود أمونة نُموًا رجوليًا بَحتًا، نِسبة للظروف القاسية التي عاشها مع أمه في السجن وفي المشاريع، ولكن لله في خلقه شُؤون، ولكن ووفقًا للحكمة القديمة القائلة: النَار تَلدُ الرمَاد، فإن لا أحد يَسْتَبَعَدْ أنّ أمُونَةْ هِي أُمْ وَدْ أمُونَةْ! قبل عمله في البنك كمراسلة؛ كان يعمل بمنزل الأم أدّي في مهنتين، خدمة الأم والنساء العاملات معها في المراسيل السريعة.. مثل جلب الدقيق من الطَاحُونة.. شراء رطل سكر وبن من الدكان.. خدمة الزبائن والضيوف، تسخين الماء وجلب الحطب، وأيضًا كان يعمل في هوايته المفضلة وهي: عُواسة وصُنع الكِسرة، وهي مهن شريفة إذا قِيست بطريقة أو أخرى.. ولكنه أيضًا كان يعمل في مهنةٍ ليست شائعة، وفي تقدير كثير من الناس ليست شريفة وهي: نظافة الملايين لكبار الموظفين والتجار والنساء الثريات .كان وسيمًا نظيفًا أنيقًا في ملبسه البسيط، له شاربٌ كثيفٌ شديد السواد، وذقن حليقة بإتقان تام. تجده في كل البيوت في المناسبات وفي غير المناسبات ويعتبر الفرد الوحيد الذي يحق له دخول أي منزل في الحلة وقتما شاء، كان خفيفًا كالروح؛ طيبًا مسالمًا، مغنيًا بارعًا، خاصة لأغاني البنات، يجيد رسم الحناء للنساء، وترقيص العروس وذلك منذ أن كان في السادسة عشرة، له ابتسامة لا تفارقه دائمًا. كان يعرف كل صغيرة وكبيرة عن

كل صغـير وكبـير، ولا يَبْخـل بِـسِرٍ ولا يَحَفَـظ سِرًا ولا يُخْفَـي عليـه سِرٌ، بالأمـس الآن وربمـا في المسـتقبل. اسـتلطفهُ البَنْكِيـون فاسـتُخدم لخدمتهـم في البنـك كمراسـلة بترشـيح مـن ألم قـشي. أمـا الآن فـود أمونـة شـخصٌ مختلـف قليـلًا عنـه قبـل الوظيفـة، وربمـا لطبيعـة العمـل الجديـد وأنـه يقـضي ثمـاني سـاعات يوميًـا طالـع نـازل سـلالم البنـك، حيـث أصبحـت لـه اهتمامـات أخـرى إضافيـة، مثـل التلصـص عـلى حسـابات العُمـلاء ومعرفـة مـن يمتلـك كـم.. سـحب كـم.. وردَّ كـم؟ وهـي لشـخص غـير ود أمونـة تعتـبر مهمـة صعبـة، ولكـن لشـبه الأميّ هـذا، الـذي لم ينـل مـن فصـول العلـم سِـوي شـهور ضئيلـة يسرتهـا لـه العـازة في أيـام حريتهـا القلائـل، مـن الحيـل مـا يمكنـه دائمًـا مـن إشـباع طُموحـه للمعرفـة التـي يحتـاج إليهـا في ونسـاته الليليـة في بيـت الأم أو مـع النسـاء في بيوتهـن أو حتـى لتحليـة نظافـة الملايـن لرجـل مـا، حيـث إنّ العمـل غـير شـائق، فـلا بـد مـن تسـويقه بحيـل مدهشـة:

- عارف الليلة الجلابي حسين خت كم في البنك؟

ولكـن ود أمونـة شـخصٌ ماكـرٌ، فإنـه يعـرف متـى تصبـح معرفـة رصيد العمـلاء تجـارة رائجـة، ويعـرف مَـنْ بإمكانـه دفـع مبلـغٍ كبـيرٍ في الحصـول عليهـا، كالدائنـين وأقـارب الأثريـاء، أمـا المعرفـة التـي تجعلـه يشـعر بمتعـة الونسـة وعظمـة وسـلطة المعلومـة ويهبهـا مجانًـا ويسـتطيع أن يدفـع مقابـل أن يُنتصـت اليـه باهتـمام، وأن يُعلّـق بإعجـاب عـلى كلامـه هـي: المعلومـات السريريـة.

- فلان وفلانة.

وكـم اشـترى مريسـة وعسـلية للفـدّادة، وكـم علبـة سـجائر برنجـي قُسـمتْ للنسـاء، وكـم مـن المشـويات بُذِلـتْ في سـبيل قَعْـدَةٍ وونسـة حلـوة يسـتعرض فيهـا ود أمونـة بمعلوماتـه السريريـة النـادرة؛ التـي قـد يقـع أحـد المسـتمعين يومًـا مـا ضحيـة لهـا.. قـد يكـون مـكان وزمـان

الونسة فيما يُشبه الندوة، ولكن هكذا يقول الجميع:

- الونسة علاج الزهج.

ولكن الصفة غير الحميدة حقًا؛ هي القطيعة والنميمة، وهي من صفات ود أمونة التي لا يُحسد عليها، وهي أيضًا بمقابل، حيث يدفع الرمَالِيون والوداعِيون والفُكيا الكذبة، مبالغ كبيرةً في سبيل الحصول على معلومات عن مرضاهم، ماذا يدور في أذهانهن، من الذي يَشكون أنه سبب مرضهم.. ما هو تصورهم للعلاج، بل ما وجهة نظرهم في المُدَاوي نفسه. لا يزال ود أمونة رغم انشغاله وفيًا لأدّي، ويقدم لها خدمة نظافة ملاين شهرية مجانية، كان كثيرًا يردد أن لأدّي أحلى عبق مَلاين خاصة ما بين الساقين، حيث إنه دائمًا ما يفرق بين الناس بما تفرزه ملاينهم من روائح ويقول:

- الزول ريحته منو وفيه.. والريحة الحلوة قسمة من الله.

ظهرت مهنة تنظيف الملاين مع ظهور البنك وشركة الاتصالات وقدوم موظفي طُلمبة المواد البترولية وإنشاء محلية حديثة وتوظيف عدد من خريجي الجامعات القادمين من المُدن الكبرى كضباط إداريين؛ ثم توسيع حامية الحِلة ومدها بِضباط حربيين في رتب كبيرة.. حدث ذلك في بحر السنوات العشر الأخيرة، كانت مِهْنة سِرية ابتكرها ضابطٌ إداري مُنَعّم، قدم من أمدرمان، قابل ود أمونة مصادفة ذات يوم في منزله يصنع حلوى تنظيف الشعر الزائد لزوجته من السُكر والليمون والقَرَنَفُل، وهي خلطة اشتهر بها ود أمونة في تلك الأنحاء من الشرق. ومنذ النظرة الأولى لمظهر ود أمونة الخارجي، وطريقة كلامه ولو أن شاربه ينبئ بذكورية بغيضة، إلاّ أن خبرة الضابط الإداري، استطاعت أن تنفذ إلى ما وراء الرموز، وبكل شجاعة طلب من ود أمونة، عندما يكمل صُنع الحَلوى أن ينتظره في الديوان، ثم عند الديوان حكى له عن عبده زهرة، الذي كان يقدم له وللمسؤولين

الكبـار والـوزراء وأصحـاب الـشركات التـي هـي الآن مـلء السـمع والبـصر، بـل لرؤسـاء سـابقين أيضًـا؛ خدمـة لا تُقـدر بثمـن، وأنـه افتقـده الآن في:

- البلد الكُرور دي، بلد إذا ربطوا فيها الحِمَار؛ يقطع الحبل ويهرب.

وتفهـم ود أمونـة سر العلاقـة مـا بـين اسـمه وعبـده زهـرة الـذي ربمـا يكـون اسـمًا آخـر، ولكـن حـوّره الضابـط الإداري الـذكي لـكي يقـرّب مسـافة الفهـم لـود أمونـة، شـك ود أمونـة في بـادئ الأمـر في نوايـا ومقاصـد الرجل، وظنـه يريـد خدمـة سَرِيريّـةٍ مُريبـة، ولكـن بحمـد اللـه تَـمّ التقـاط الفكرة، إلاّ أنّ ود أمونـة لم يقـم بهـذا العمـل مـن قبـل.. فـأنّى لـه!

-ح أعلمـك.. دي مهنـة تجيـب الدهـب.. وهـي برضـو مِهنـة شَريفـة.. زي عمـل الحـلاق وتحتـاج لفنيـات بسـيطة.

ثـم أخـذ الضابـط التنفيـذي يصطـاد الزبائـن لـود أمونـة، حتـى يخلـق لـه سُـوقًا تجعـل المهنـة مُسـتدامَة، ولهـا جمهورهـا وسُـوقُهَا، حتـى لا ينـصرف عنهـا ود امونـة.

صَيْدُ الحَلُوف

أصبحت الأعشاب عالية، كأعلا ما يكون، الخريف في هذا العام كان مكتملًا، والأمطار غزيرة، توقفت المواصلات من وإلى كل المدن والقُرى، ما خلق ندرة في موارد الغذاء، حيث كنا نعتمد على اللواري السفرية في مدنا بما نحتاج إليه من دقيق يرسله لنا الأصدقاء أو التجار، وكي لا نموت من الجوع، اتفق الجنقوجورا الذين معي في التّاية بأن نقوم بصيد الحَلّوف، وهو الخنزير البري، المتوافر في تلك الأنحاء بكثرة، اللذيذ اللحم، ويعتقد الجنقو أن كبده يقوي النظر، على الرغم من صعوبة وخطورة صيده، إلاّ أن كل جنقوجوراي يدعي أنه الأكثر مهارة في ذلك، ويحفظ من الحكايات ما يبرر ادعاءه. كان معي بالتّاية خمسة من الجنقو، أنا ومختار علي وعبدارامان البلالاوي الذي تزوج قبل شهور من كلتومة بت بخيتة النوباوية، وما زلنا ندعوه بالعريس، ورجل كان يعمل بالجيش سنوات طويلة وهو الآن بالمعاش نسميه حِمْرِيطِيْ نسبة للونه الذي يميل للحُمرة، وامرأة شابة اسمها حواية بت الملايكة، أنا الجنقوجوراي الوحيد الذي يعترف بأنه لم يحصل لي شرف صيد هذا المخلوق أو أكله، لذا لم أكن طرفًا في النقاش الحاد الذي دار بين الجنقو بمن فيهم بت الملايكة، عما إذا كان الحَلّوف يَدَخُل ويخرج من حفرته برأسه أولًا أم بمؤخرته؟ واحتد النقاش لدرجة أن وصف بعضهم البعض بصفات مثل: هَوانْ وتعيس وود البُقُسْ. شربنا ما توفر لنا من مريسة أُمبلبل، وحملنا فؤوسنا وسكاكيننا، وتوغلنا في الغابة. الحَلُوفْ حيوان ضخم، قد يكبر إلى أن يصبح في حجم عجل البقر مع قوةٍ وقِصَرٍ في القوائم، له حوافرٌ قويةٌ صلبةٌ ونابان معكوفان حادان بارزان، كأنهما قرنا ثور، في زاويتي فمه، يستعملهما دائمًا في الدفاع عن نفسه، حيث يمكن بضربة

واحدة من أيٍ من النابين أن تقتل الضبع بشق بطنه إلى نصفين، لذا تتجنب كل الحيوانات الدخول في معركة مع هذا الحيوان الشرس ذي اللحم اللذيذ المُمتَنَعْ. عدوه الوحيد هو الجنقوجوراي الذي يبتكر شتى الحيل للإيقاع به. ولكن الجنقو في ذلك اليوم كانوا منشغلين بإثبات أحد الأمرين أكثر مما كانوا منشغلين بالإيقاع بالحَلُوفْ في الفخ. الكل يُريد أن يبرهن بأنه الأعرف بالحَلُوفْ، عداي، فقد كنت أريد لحمًا يكفي لإطعام فريق العمل لأكثر من أسبوع، إلى أن تجف الأرض وتستطيع اللواري السير، وظللت أنبههم بين الفينة والأخرى إلى أهمية التركيز على صيد الحيوان، لكنهم كانوا جميعًا قد اتفقوا على أنهم سوف يصطادونه على أي حال، ولكن بعد أن يتأكدوا من كيفية دخوله لحفرته، لأن الأمر أصبح موضوع كرامة وتحدٍ. ووجدنا حفرة الحَلُوفْ. علّقَ الجنقو العارفون به: إنه خارج حفرته، ولكنه قريب جدًا منها، أثره ورائحته يدلان على ذلك وما عَلق من صوفه على الشُجيرات الشوكية القريبة، يدُل على أنها الأنثى، ما يعني أن الذكر قد يكون بالداخل. هذا كان متفقا عليه من الجميع، ودون مغالطات أو تشكك أو حتى احتمالات. طلبوا مني أن أبقى بعيدًا، ويستحسن أن أصعد شجرة لالوب قريبة، أي أن أبقى أبعد ما يكون حتى لا يصيبني الحيوان الشرس الغبي، فإصاباته بالغة في كل الأحوال، توزع الجنقو الثلاثة بطريقة مدروسة حول الحُفرة، وطلبوا من بِتْ الملايكة أن تبحث عن الحيوان متتبعة رائحته وأثره، وعندما تجده ما عليها سِوى أن تقف في الاتجاه المعاكس لحفرته وأن ترميه بحجرٍ عن بَعدٍ كافٍ، كي يهرب عائدًا مباشرة إلى حفرته، وهنا ينتظره الجنقو، ليتأكدوا من الطريقة التي يدخل بها إلى حفرته، أبرأسه أم بمؤخرته؟ ثمَ بعد أن يدخل؛ سوف يعالجون مَسألة صَيده، ولو أن صيد الحَلّوف لا يتم بتلك الطريقة؛ كما أخبرني مختار علي وتعلمتُ فيما بعد، أنه يتم بأن يُسَدْ مدخل حفرته بحجارة وأشواك وأحطاب ضخمة، وعندما

يـأتي مندفعًـا لدخولهـا، فإنـه يُفاجـأ بـأن مدخلهـا مسـدود، فيـتردد ريثـما يعيـد ترتيـب أمـوره أو يحـدد وجهـة أخـرى يهـرب إليهـا، هنـا يهاجمـه الجنقـو ضربًـا بالفـؤوس، إلى أن يمـوت. بينـما كنـا صامتـين، متوتريـن، مترقبـين قـدوم الحلـوف، خَطَـرتْ فِكـرة لا يعلـم أحـدٌ مـا هـي؛ إلى ذهـن عبدارمـان البـلالاوي، وسـوف لا يعلـم أحـد كنههـا فيـما بعـد. عـلى مـرأى مـن الجميـع تحـرك مـن موقعـه الكائـن خلـف شـجرة تنضـب كبـيرة، تقـع وراء حُفـرة الحَلّـوف، مـشى نحـو مدخلهـا، كأنمـا كان يريـد أن يتأكـد مـن شيء؛ قـال البعـض إنـه ربمـا أحَـسّ، بِحركـة الحلـوف في الداخـل، لأنـه كان أقـرب النـاس إلى الحُفـرة، كـما أن موقعـه كان أعلاها، ولكن الـشيء الغريب الـذي حـدث هـو أنـه في اللحظـة التـي قصـد فيهـا عبدارامـان البـلالاوي مدخـل الحُفـرة، خـرج الحَلّـوف الذكـر مُندفعًـا في جنـون، صدمـه برأسـه القـوي الضخـم، أو أخـذه: سـيختلف الجنقـو في هـذا الأمـر كثـيرًا. وانطلـق بـه نحـو الغابـة في سرعـة مرعبـة، ودون تفكـير، اندفعنـا جميعًـا خلفـه، في محاولـة لإنقـاذ عبدارامـان المسـكين الـذي لم يجـد الوقـت حتـى ليـصرخ، لقـد فاجـأه الحيـوان مفاجـأة تامـة، وكنـا نتوقـع أن يسـقط مـن رأسـه في كل لحظـة، إلاّ أننـا ظللنـا نجـري في أثـره إلى مـا يُقـارب السـاعة، كان أثـر الحَلّـوف عـلى الأرض بينًـا؛ نسـبة لأن الأرض مبتلـة والعُشُـب كثـير، وأن الحيـوان الثقيـل يلقـي بالعشـب تحـت قدميـه وهـو يمـضي بعبدارامـان، ورغـم أننـا أرهقنـا تمامًـا، فإننـا واصلنـا جرينـا خلفهـما في إصرار، إلى أن انقـضى اليـوم كلـه، وكادت الشـمس تغيـب، وقـد ابتعدنـا كثـيرًا عـن التّايـة باتجـاه الغـرب، إلى أن وجدنـا أنفسـنا عـلى مشـارف جَبـل عِسَـير. هنالـك أوقفنـا جنقوجـوراى عجـوز لا نعرفـه، وجدنـاه مصادفـة يتجـول في تلـك الأنحـاء. وعندمـا عَـرِف مقصدنـا نصحنـا بـأن نعـود، وأن ننـسى موضـوع عبدارامـان المسـكين، وذلـك مـن أجـل سـلامَتنا نحـن، لأن الحَلّـوف لا بـد قـد صعـد بـه إلى الجبـل، حيـث أسْـيَاده، وعندمـا سـألت أنـا بسـذاجة وجهـل عـن ماهيـة أسْـيَاده، غمـزني الجنقـو أصحـابي، العارفـون بمصائـب

الدهـر وأسراره، فيـما يعنـي:

- اسكت! إنهم ناس بسم الله الرحمن الرحيم.

وعرفـت فيـما بعـد أننـي كنـت الوحيـد الـذي يجهـل أن الجنقوجـوراي العجـوز، الـذي ظهـر لنـا فجـأة ونصحنـا بالعـودة، كان هـو نفسـه مـن نـاس بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم، فلقـد جـاء متنكـرًا في تلـك الهيئـة. في طريقنـا إلى التّايـة، كان الجميـع يتحدثـون عـن مصـير عبدارامـان المحتـوم، الـذي يشـبه مصائـر كل أزواج كلتومـة بـت بخيتـة النوباويـة، لقـد تأسـفنا كثيرًا لفقـده وترحمنـا عـلى روحـه. ولكـن الغريـب في الأمـر أن تلـك المأسـاة لم تلـه الجنقـو عـن النقـاش حـول كيـف يدخـل الحَلـوُفْ ويخـرج مـن حفرتـه، حيـث أقسـم مختـار عـلي، أنّ الحَلـوُفْ قـد خـرج مـن حفرتـه بمؤخرتـه قبـل أن يعتـدل في لمـح البـصر ليخطـف عبدارامـان بمقدمـة رأسـه ويجـرى بـه إلى حيـث لا يعلمـون. ويـصر جنقاويـان عـلى عكـس ذلـك، بِـتْ المَلاَيِكَـةْ وأنـا والحَـقُ يُقـالْ: لم نـر الحلـوف أصـلًا، لا وهـو يخـرج مـن حفرتـه، ولا هـو يخطـف عبدارامـان ولا غـير ذلـك، لقـد كانـت بِـتْ المَلايكـةْ بعيـدة تبحـث عـن الأنثـى بـين شُـجيرات الكِـترْ، وأنـا كُنـت منشـغلًا بأحـزاني الخاصـة، سـابحًا في حلـمِ يقظـةٍ عَـصي، عـلى شـجرةِ لالـوبٍ عملاقـة نُصِحـتُ بِتَسَـلُقها. اكتفينـا بسـلحفاة صغـيرة، وَرَلٍ عجـوز، قليـلٍ مـن الجـراد سـاري الليـل وقِطَـين بريـين شـحيمين اصطادهـم الجنقو.

بُوشَايْ

بعد المعارك الطاحنة التي دارت بين الجنقو وكتيبة من الجيش ترتكز بحامية زهانة، انتبهت الحكومة المركزية لخطورة ما أسمته الشِفْتة أو النَهب المُسَلّحْ، وجرى الحديثُ عن القوى الخارجية التي تريد أن تطيح بالحكومة الوطنية وإجهاض (المشروع الحضاري للدولة(، تحدثوا عن المعارضة، جبهة الشرق، الأسود الحُرة، مؤتمر البجا، حركة العدل والمساواة وغيرهم وغيرهم ثم حُشِر اسم إريتريا، وللتَحَليةِ أو الواجب القومي وتوحيد الجبهة الداخلية؛ ورد اسم دولة إسرائيل كجوز للتميمة لا بد منه، ولكن نسبة لخبرة الحكومة المركزية الكبيرة في مجال الحرب الأهلية، حيث انها ظلت تحارب مواطنيها منذ الإستقلال الى اليوم، كان أصحاب القرار يعرفون أن تمرد الجنقو ليس خلفه سِوى الجنقو أنفسهم، وأن اخماده لا يتم بأسلوب قتل باعوضة بقنبلة نووية. كان الخريف قد أجهز على عِيناته الأُوَلْ جميعهًا، بل مضى إلى ما بعد المنتصف، ونمت الأعشاب عالية، في طول أشجار الكتر والطلح، بل أصبحت بعض أعشاب العدار أطول من قُطيات التّايات، ولأن المطرَ غزيرٌ هذا العام، فقد دمر معظم الآفات التي تشكل خطورة على المحصول في مراحله الأولى، مثل الفأر وبعض أنواع الجراد، وهي في تشققات الأرض التي انسدت تمامًا بفعل السيول، وتصعب الحركة كلما ازداد المطر هطولًا وتشربت التربة الطينية الخصبة السوداء بالماء، الجنقو يعرفون المكان كجوع بطونهم.. العسكريون لا يعرفونه.. الجنقو يستطيعون دخول الأراضي الإريترية أو الإثيوبية، إذا تركوا سلاحهم بمكان ما ولو داخل أحراش إحدى الدولتين، ولكن جيش الحكومة لا يستطيع. الجنقو يحاربون لأنهم يحسون بالظلم والغبن ويريدون المال، والعسكر لا يعرفون لأجل من يقاتلون؟ لذا

كانت المعارك غير المتكافئة غالبًا ما تنتهي بانتصار الجنقوجورا أو بإيقاع خسائر كبيرة في جيش الحكومة، أما النصر الدعائي الذي تفتعله الحكومة فغالبًا ما يُضعفُ الروح المعنوية للمواطنين، ويصيب الأطفال بذاكرة مشحونة بالكوابيس والأسئلة الصعبة عن قيم الحياة والموت، ولكنه لا يخفي حقيقة الهزيمة الشنيعة التي تتكبدها. وهذا اليوم شاهدٌ على ذلك، حيث استيقظنا في الصباح الباكر على صوت بروجي وعزف مارش عسكري بغيض، وخرجنا مع جميع السكان إلى الشوارع وهي في الحقيقة ليست سِوى أزقة تحددها أشواك الكتر التي تحفظ أحواش القصب والبوص من الأغنام والحمير. ثم، كما لو أن هنالك جهازًا سريًا يقود أرجلنا، توجهنا إلى الميدان العام قُرب الهلال الأحمر السوداني، حيث عُرضتْ جُثتا قتيلين، معلقتين على صليبين كبيرين من الخشب، الرجلان معروفان لدى جميع السكان، حتى الأطفال: الذي يرتدي زي الجيش الحكومي ذو الجثة الكبيرة المنتفخة المزينة بالذباب والرائحة الكريهة هو أبكر هبيلا طليق حلوم الزغاوية، أما الآخر في جلبابه المتسخ ولباسه الكبير، المنتفخ في هذه اللحظة، النحيف فيما مضى، الصامت الحزين الآن.. المرح في الماضي.. صانع النِكات في السابق.. هو عبد الله الحردلو. قالوا لنا بالميكروفون، بعد أن كَبّرَ آدم لحَساَتْ المُلقب بأم الشهيد، سبعًا:

-كل يوم ح نجيب اتنين من الجنقو الكلاب ونعلقهم هنا..

وسُمِيَتْ الساحة في التو بساحة النصر. أطلق جنود سُكارى ومسطولون ومنفعلون الرصاص على الجثتين. كانت الروح المعنوية للجميع مترديةٍ في مهاوٍ عميقة مُرة ومظلمة. عدنا إلى بيوتنا نخمن ما سيكون عليه الحال؟ فيما يُشبه الندوة في يوم عسلية أم جابر بالجمعة، توصلنا بسهولة إلى أن الأمر ليس سِوى انتقامٍ وتخويفٍ، واتفقنا على أن الرعب قد تملك الموظفين الأثرياء، وربما ذَكر رجلٌ أو رجلان أن الفكي علي يفكر في مغادرة الحِلة نهائيًا، وأنه قد ابتنى له

بيتًا في الخرطوم بالحاج يوسف، وأنه سيرحل إلى هناك نهائيًا، ونُقِلَ عنه قوله:

- (السُوق هناك أحسن.. ناس الخرطوم تعبوا من الدكاترة والمستشفيات الخاصة.. والفُكَيَةْ هناك شَغالين زي المكنات.. قروش زي التُراب.. علاقات زي السِمْ.. ونحنا قاعدين هنا.. يوميًا فلان كتلوه.. فلان صَلبوه.. فلان طردوه للحبشة!)

شَيّلَنِيّ صِديقْ العَوَضْ أردبين من الذُرة كتفلي، وألمح لي بدبلوماسية باردة أنه بالرغم من علامات الاستفهام الكثيرة حولي وحول صديقي الذي هرب إلى الخرطوم، فإنه، عمل لله، شَيّلنِي الكتفلي، حتى أدفع لعمال الحصاد، وحتى لا أخسر مالي الذي أنفقته في الزراعة، ادعيتُ عدم الفهم، بل تَبَالَدتُ وأنا أوقع باسمي على وصل الأمانة بثلاثة أضعاف الذرة التي أخذتها فعليًا. ليس لديّ خَيَارٌ آخر. طِوال هذه الشهور التي قضيتها دون ألم قِشي لم أنسها أبدًا. كان مُختار علي قد خصص وقته كله من أجلي، ووافق بعد لأي أن نكون شريكين في المشروع الصغير الذي ظللنا نعمل فيه معًا منذ بداية الموسم، قبل أن يمضي الشايقي فضل ليعمل في صفوف ما أسمتهم الحكومة الشفتة تارة والمتمردين تارة أخرى، وقد جلب لي المشاكل ومراقبة الشُرطة، واستدعيت أكثر من خمس مرات للاستجواب بمكاتب الأمن في حي فلاتة، بل حدثني ود أمونة ذات مرة أنني وُضِعتُ في القائمة السوداء! علاقتي ببوشي تميزت بأمورٍ ثلاثة، أولها أنّها كانت معجبة بي كشخص يعرف أشياءً كثيرةً، بتعبيرها هي: كُل شيء. وكانت، كما قالت لي أكثر من مرة، تتمنى أن تكون مثقفة وملمة بأشياء مختلفة في الكون، على الأقل أن تتخرج في الجامعة، ولكنها وهي في الرابعة عشرة، تركت المدرسة، نسبة لعدم مقدرة أسرتها على دفع الرُسوم المدرسية وبخاصة ملابس المدرسة، فهي ترى فيّ حلمها الذي لم يشأ الله له أن يتحقق. أما الأمر الآخر فهو حكايتي مع ألم قِشي، فقد كان يعجبها

فِيّ، حُبـي ووفـائي لزوجتـي وحبيبتـي السـابقة، وهـذا حسـب مـا تـرى: نـادر الحـدوث.. الرجـال في هـذا الزمـن قلوبهـم طايـرة، لـذا هـي ترغـب بشـدة وإن لم تـصرح بـه، أن تحـل محـل ألم قـشي. أمـا الأمـر الثالـث فهـو أننـي ضعيـف جـدًا أمـام النسـاء السـوداوات جـدًا والنسـاء البيضـاوات جـدًا، وبخاصـة ذوات القامـات العاليـة والسـيقان الطويلـة الممتلئـة، إننـي أحبهـن أكـثر إذا كُـنّ يجـدن الغنـاء أو الرقـص، أو أي موهبـة كانـت، ولـو طريقـة متميـزة في الـكلام والمـشي. بـوشي هـي أنمـوذجٌ مثـالي لهـذه المـرأة.. أكـثر مـن ألم قِـشي.. عـلى أن مـا يميـز ألم قـشي عـن كل النسـاء عنـدي هـو أنهـا أوّل مـن طلبـت منـي مـن نسـاء الدُنيـا أن أحَمّلهـا ببنـت، ولم أسـتطع أن أحقـق لهـا أمنيتهـا التـي أصبحـت فيـما بعـد، أمنيتـي أنـا أيضًـا. الأهـم مـن ذلـك الصـدق الـذي تتكلـم بـه.. عذوبـة النطـق وسـحره، كأن جسـدها كلـه يتكلـم، الهـواء مـن حولنـا، المرقـد، ألم قـشي امـرأة لا كـما النسـاء؛ حاجـة تانيـة. ولم تعـرف بـوشي حقيقـة أن ألم قـشي (حاجـة تانيـة). وأنّ محاولتهـا حَـلّ محلهـا عبـثٌ لا طائـل مـن ورائـه، وأنّ البحـث عـن مـكان مجـاور ربمـا كان الأقـرب للتحقـق، فقـد كنـت معجبًـا ببـوشي وإن كُنـت أتعامـل معهـا بحـذر شـديد، خوفًـا مـن فكـرة الالتـزام، وأنـا شـخص يفـي بالتزامـه مهـما كلفـه ذلـك، ولكـن، في الحقيقـة، لم أحـس إلى الآن عـلى الأقـل، بحاجـة لامـرأة تشـاركني الفـراش. أزمـة ألم قِـشي مـا زالـت مسـتفحلة، ومـا زلـت أحبهـا؛ أحبهـا حُبًـا شـديدًا، وأحلـم بهـا كل ليلـة، وأتذكرهـا كل ثانيـة، وأظـن، بينـي وبـين نفـسي، أننـي سـوف أفشـل لا محالـة مـع بوشـاي، بـل هـذا مؤكـدٌ، وكنـت لا أصـدق مـا قالـه لي أبرهيـت، في أنّ ألم قِـشي قـد تآمـرت ضـدي مـع البنكيـين أو غيرهـم، وكنـت اكتفـي بـأن لا تفسـير مقنعـا لمـا فعلتـه معـي. وقـد قالـت ليّ الأم إن حالتي تسـوء كل يـوم عـن ذي قبـل. لكننـي في الحقيقـة، أتعامـل مـع النسـاء وفـق شروط نفسـية معقـدة، وربمـا وراء نفسـية، غـير أن العلاقـة بينـي وبينهـن تمـضي سَلِسَـة وطيبـة، بـل أسـتطيع أن أقـول خاليـة مـن العقبـات

الكبيرة، مثلما كانت ألم قشي تأتيني لتؤانسني عند منتصف الليل، كانت بوشاي تأتي أيضًا لتغني لي كي أنام، تغني بلغة الشلك والباريا، وتحفظ أغنيتين بالأمهرا، وذلك بالتأكيد يعجبني جدًا. عمرها بالتمام سبع وعشرون سنة، وهي في الواقع، تكبر هذا العمر بعشرين أو ثلاثين أخريات، فطبيعة الحياة التي عاشتها تجعل حساب اليوم في حدودٍ أربع وعشرين ساعة، مُفارقة بائسة، وسيندهش الكثيرون، بل أنا نفسي اندهشت، إذا عرفوا أن بوشي تعيش في أسرة من شخص واحد هو بوشاي ذاتها! حدث هذا منذ أكثر من عامين. كان لها أخَوان هما: علي وألالا وأخت صغرى اسمها أبوك. والدها من الشُلك، وقد انضم لجيش الحركة الشعبية، تحت قيادة القائد عبد العزيز الحلو، واستشهد في معركة على مشارف همشكوريب. أمها توفيت بعد ذلك بزمن قليل. ألالا هاجر إلى استراليا عن طريق مصر، عَليْ لا أحد يعرف أين هو، آخر مرة رأته فيها قبل عامين. أهل والدتها لا يحبونهم لأسباب عرقية، ولو أنّ والدهم كان مُسلمًا. أبوك أخذتها التّاية للسعودية وهي ترسل أخبارها بانتظام. وجَدَت بوشاي نفسها وحدها، فقبلت التحدي، وعملت كما تعمل النساء الفقيرات في صناعة الخمور البلدية، ولكنها لم تقم علاقة تذكر مع رجل ما، على الأقل لم يتسن لود أمونة معرفة ذلك، ولم تستطع ندوة ما كشف أي علاقة لبوشي برجل من الجنقو أو غيرهم، غير أن هذا لا ينفي أن لبوشي عشاقا، وأنها تصطفي من تشاء، ولكن خارج بيتها، لأسباب تعلمها. كان الجميع يتعاطفون، مع بوشي وكثيرات من صديقاتها يتطوعن للمبيت معها في بيتها، وقد رفضت عرضين للزواج وعرضا للمصاحبة. والآن الناس يتحدثون عن زواج عُرفي بينها ومدير البنك تركاوي، ويتحدثون عن الموبايل الذي أهداه لها، كأول موبايل في الحي الشرقي. وقدر الأهالي أن علاقتي معها ليست إلاّ لقضاء وقت من جانبي، ومحاولة فاشلة لزواج من رجل عُصامي من جانبها هي. كان

كلانا يجد العزاء في الآخر، ولكنني، كما قُلت: مُعْجَبٌ ببوشاي كفتاة عصامية تكد طُوال الوقت، لتوفير قوت يومها، بل أبعد من ذلك؛ حيث إن بوشاي هي أول من اشترى جهاز استقبال قنوات رقميا في الحي الشرقي كله. لم يكن ذلك اعتمادًا على ما ترسله أبوك لها من السعودية، حيث إنّ أبوك في الواقع لا ترسل شيئًا، إذْ ما زالت تناضل لتغطي تكاليف سفرها وإقامتها في السعودية، وهي مدينة بذلك للتّاية. وألالا أيضًا لا خبر منه في أستراليا، ولا أثر له، ولا تعرف حتى كيف تتصل به. كانت تبيع المريسة، والعسلية وليس هذا بالعمل السهل، لأن التعامل مع السُكارى يحتاج لطولة بال وسياسة، فإن السُكارى يبدءون هادئين وطيبين، يحكون عن الحَلُوفْ، ويتغالطون فيما إذا كان يدخل بيته برأسه أم بمؤخرته. ويقصون مغامراتهم مع أبشوك أو المرفعين الذي يحبون لحمه لقيمته العلاجية الرفيعة، حتى خُراؤه، فإنهم يستخدمونه في علاج الأزمة وضيق النفس. ويقيمون ندوات القطيعة والنميمة. هذا في الساعات الأولى، إذا لم يكن من بين الندماء رجل مدمن سريع السُكر من أول كأس ويبدأ برنامج الشجار مبكرًا، ما يعكر صفو الجلسة وصاحبة البيت، وقد يكون سببًا في استقدام الشرطة أو بوار المريسة، أما إذا لم يكن هذا المدمن موجودًا، فإنّ الساعات التالية تتسم بمحاولة السُكارى الاستمتاع بالطرب، يغنون لأنفسهم مستخدمين آنية المريسة الفارغة كأدوات إيقاع، هذا إذا لم تتوافر دَلّوكَة أو يُوجد شَتَمٌ صغيرٌ بالبيتِ، والبعض وهم قلة يقومون بتسلية أنفسهم بالتغزل في صاحبة البيت أو بناتها أو يديرون معهن مجرد أحاديث عامة عن الزواج والحب والأسرة. ولكن أخطر ما في هذه الساعات الوسطى أنه تزداد خلالها الرغبة في معاشرة امرأة ما، الأمر الذي قد يؤدي للاصطدام برجل آخر، زوج، أخ أو عشيق، صاحب أو حتى رجل قانون، ثم يبدأ العراك الفعلي؛ وقد تستخدم فيه الأسلحة المحلية ببراعة وشراسة وعدم رحمة أو مسؤولية. صاحبة

البيت المدربة الذكية العاقلة هي الأمهر في إدارة هؤلاء الناس المنفلتين، وهي تمثل بذلك أمهر الإداريين مطلقًا، ما دامت تستطيع أن تعمل في وسط يُعْتبر حقل ألغام وكوارث كبيرة مثل: طَعنة سكينٍ، تليبة في بيت جار، كسر يدٍ بعصا، تدخُل الشرطة، مصادرة أدوات العمل وقد تصل العقوبة لسجن طويل. تعلمت بوشاي سياسة إدارة السُكارى من جامعة السُكارى أنفسهم، حتى كانت تعرف طبائع الزبائن كلهم، المدمن الذي يبتدر الشجار، والمدمن الذي ينام من أول كأس على البنبر، والمبتدئ الذي عندما يسكر يتبول على ملابسه مثل الطفل أو يبكي وينوح متحسرًا على حياته كلها، الفدادي الشِرِّيب المتزن الذي يسكر فيكتفي بالغناء أو أخذ عكازه والمضي إلى بيته، أو فرش عِمّته على الأرض في مكان جانبي، والذهاب في نوم عميق. تعرفهم بالاسم والصفة، وتديرهم بنمط إدارة شخصي، بوشي، في الحق لا تميل للجنقو كرفقاء سرير.

-وسخانين.. ما بيهتموا بنظافة ملابسهم ولا جلودهم وريحتهم ترمي الصقر من السما.. ديل ناس ساي!

كان يتعين على بوشي فوق ذلك، أن تعمل بدبلوماسية أيضًا في جبهة أخرى، وهي جبهة البنك، ذلك الغول الذي تدّخل في كل تفاصيل الحياة اليومية. قَصّ عليها التركاوي- عبر ود أمونة- كثيرًا جدًا حِكاية امرأته غير الجذابة التي تعشق المال فقط، ولا تهتم به كرجل، وقد تزوجها دون حب يُذكر، فقط لأنها بنت عمه: (وأنا دخلي شنو(؟ حسنًا، صنع الخمور البلدية يجرمه القانون، وبإمكان الشرطة والمباحث تخصيص قليل من وقتهما، فليكن الظهر لوقف هذه البلاوي؛ التركاوي يستطيع بإشارة منه أن يمنعهم، كما يستطيع أيضًا أن يأتي بهم! فكل مشاريع ضباط الشرطة والمسؤولين الكبار هي بتمويل من جيبه شخصيًا، أو من البنك وتركاوي كما وضّحَ لها بنفسه رجل تقي ويخاف الله، لذا هو لا يرغبها بالحرام، وأيضًا ليس

بالفضائح على حساب سمعته، لذا عرض عليها الزواج العرفي وأصّل له بنصوص قال إنها شِيعية. ولكنها كرهت فيه العجرفة والادعاء، ورائحة الصُنان النفاذة التي زكمت أنفها يوم أن قابلته أول مرة، لن تنساها أبدًا.

-أنا ما عايزة أتزوج لا بالعلن ولا بالعُرفي ولا بالحرام ولا بالحلال!

ولكن الذي يعرف التركاوي يدرك أنّ المعركة لن تنتهي هنا. قابلته مرة واحدة فقط. جاءها متنكرًا في شكل جنقوجوراي، ثم ما لبث أن أفصح عن نفسه.. ولكن اللقاء اليومي بينهما تواصل عبر ود أمونة. كان بارعًا في نقل الكلام كما هو، وكأنه جهاز تسجيل إلكتروني أو كتاب، وذلك تلبية لطلب التركاوي نفسه. وكان ود أمونة هو الذي رَشّح بوشاي لمدير البنك، بعد أن شكا له الأخير حاجته لامرأة ينام معها لكن بسرية تامة ودون فضائح، وأن تكون نظيفة وجميلة، وليس حولها رجالٌ من الأقارب أو عشاق غيورون، قد يسببون له مشكلة. ففكر ود أمونة ودبّر، وانتهى إلى بوشاي، وتَمّ الاستغناء عنه عندما عَملت شركة الموبايل العملاقة، حيث استطاع التركاوي أن يتحدث إلى بوشاي مباشرة وفي أي وقت أراد، وبما أراد، الشيء الذي لا يستطيعه مع ود أمونة، لأنه يعرف أن ود أمونة لا ينقل كلامه لبوشاي وحدها، ولكن للحي كله، وكان مجبرًا عليه. وعندما عجز التركاوي عن إقناع بوشاي بالزواج العرفي، أو بممارسة الجنس بمقابل، طلب منها طلبًا وصفه بالإنساني، أن تمارس معه الجنس الشفاهي عن طريق الموبايل، وشرح لها كيف يكون ذلك، فرفضت ولكنه ألح وألح، فرضخت في النهاية، وهذا ما يفسر المشهد الذي لم يجد له ود أمونة تفسيرًا، ولا يزال يُدهشه إلى اليوم، حينما دخل ذات يومٍ على بُوشاي، ووجدها جالسةً على بَنْبَرِهَا تطبُخ شيئًا في الراكوبة؛ وهي توحوح، وتصدر أصواتِ تَوَجُعٍ وألمٍ وتشهقُ في غِوايةٍ لا يمكن أن تصدر إلاّ من امرأة على فِراش رجلٍ. وشاهد ود أمونة الموبايل على فمها، لمّا رأتهُ، ارتبكت، ندت

عنها صرخة، وأغلقت الموبايل، ثُمَ أخذت تضحك في هستيريا، وعندما سألها عمَ كانت تفعل، قالت:

- ما في حاجة، ما في حاجة، إنتَ سِمِعتْ شُنو؟

قال لها ود أمونة ضاحكًا:

- ولا حاجة!

الكلامُ عن الحرب هو كلام الساعة، والكلام عن إعدام طليق حلوم وعبدالله مهدي وصلبهما ورميهما بالرصاص بعد ذلك، طغى على أخبار الخريف ومكائد البنك التي فسرها الكثيرون بأنها انتقام من ثورة الخُراء، التي ما عاد أحدٌ في الواقع يذكرها، لقد كانت دخيلة على هذا المجتمع، وتَمّ إسقاطها تدريجيًا من السجل اليومي للقُوالات وما يُشبه النَدوات. وذكر كلمة خُراء نفسه يعاني من إشكالية جمالية هنا في مجتمع يحتفي بالطهر والنقاء. بعد مقتل الجنقوجورايين على يد جند الحكومة انحسرت أخبار الحرب قليلًا، وقِيل أنّ الجنقو قد انسحبوا إلى تخوم مدينة تِسَني، ليقضوا الخريف هنالك مستفيدين من ثمن الأسلحة التي استولوا عليها من قوات الحكومة وقاموا ببيعها للزبيدية في جبهة الشرق، وكان ذلك في الحقيقة مصدر دخل كبير جدًا لهم إذا استثنينا العائد من تجارة الخمور، حيث كانوا يهرِّبون الخمور المستوردة من إريتريا وإثيوبيا إلى داخل مدينة خشم القربة، ثم عن (طريق الهَوَا(عبر البُطَانَةْ إلى الخرطوم وعطبرة. وربما شرب سُكارى عاشقون الأنشا الإثيوبية اللذيذة، في نواحي دنقلا العُرضى ووادي حلفا وأبي حمد ونيالا .زارني الشايقي وبعض أصحابِه في التّاية منتصف ليلة مظلمة مطيرة، عواء ذئابها يطيّر القلوب شظايا.. احتفلنا باللقاء العزيز، وذبحت لهم تيسًا من الأغنام التي احتفظت بها في التّاية تحسبًا لظروف شظف العيش، أو أعطاب الطريق، شربنا الشاي والقهوة، وأخذوا يحدثونني عن مغامراتهم وقتلاهم، عن انتصاراتهم

وبعـض هزائمهـم. وعندمـا تذكرنـا يـوم بـاص همدائييـت، وكيـف تغابـوا في المعرفـة، ضحكـوا وقالـوا لي:

-قروشك ياها دي معانا.. هاك ليها.

وأَخذتُ مالي، وسألوني أسئلة كثيرة جاوبتها بصدق وقالوا لي:

- نحنـا حالفـين نـؤدب نـاس البنـك.. نوريهـم نجـوم النهـار.. لكـن مـا هسـع.. لمّـان ييجـي وقتـهُ ح تعـرف، ونحـن ح نكـون في إريتريـا إلى أن يَجِـي اليـوم داك.

فتذكرت ما قالته لي أداليا دانيال مرة:

-الجنقو اتعلموا طبيعة الحبش.. ما بيخلوا حقهم بالساهل.

ثُـمّ حاولـوا أن يطيبـوا خاطـري في شـأن ألم قِـشي، ولكنهـم أثـاروا غضبي حينـما وصفهـا أحدهـم بالشرموطـة، فدافعـت عنهـا دفاعًـا مسـتميتًا. قُلـتُ فيهـا مـا لا يقولـه الرجـل عـادة في هـذا المجتمـع. قلـتُ لهـم: إننـي أحبهـا؛ أحبهـا حبًـا شـديدًا، ومهـما فَعَلـتْ، فإننـي أجـد لهـا العُـذر. قلـتُ لهـم: الـشرف والطهـر في الـروح وليـس في الجسـد. قلـتُ لهـم: مـا لم يقبـل الرجـل برذائـل المـرأة وهـي قليلـة، لا يحظـى بِفضائلهـا العظيمـة وهـي كثـيرة. قلـتُ لهـم: امـرأة داعـرة أشرف مـن رجـلٍ عابد.قلـتُ لهـم.

صديقي الثائرُ

عـاد صديقـي إلى الحِلـة بعـد فـترة غيـاب طويـل قضاهـا في الخرطـوم أو ربمـا في أي مـكانٍ آخـر راق لـه، ولكـن بـدا واضحًـا أنّ الحِلة قـد أصبحت المـكان المفضـل لديـه، وقـد قـال ذلـك لأكـثر مـن شـخص:

-هنا أجمل مكان..

كان يـرى مـا قـام بـه الجنقـو مـن حمـل للسـلاح وقطـع للطـرق وحـرب للجيـش الحكومـي لـن يسـتمر طويـلًا، ولـن يقـود إلى أي نتيجـة؛ مـا لم يسـنده تنظـير سـياسي وتحليـل اجتماعـي، وهـدف محـدد بدقـة، يمكـن تحقيقـه في مثـل هـذه الظـروف، وقـرر أن يكـون هـو حـادي ركـب التنظـير، ولا يتـم ذلـك إذا لم يواكـب الجنقـو، ويعيش معهم في غابـات الكِتِرْ والخـيران المتوحشـة، تحـت تهديـد نـيران كتائـب الحكومـة، في الخـوف، الجـري، الإقبـال، الإدبـار، الجـوع، الحرمـان، الهزيمـة والنـصر.. كان يقـول: التنظـير دون معايشـة الواقـع، مثـل طباخـة الإدام عـلى النـار مبـاشرة دون وسـيط، يُفْسَـدُ الإدام والنـار معًـا. و أكـد ان فشـل الحـركات الدارفورية هو انهـا حـركات لا يتبعهـا أي تنظـير ثـوري، و السـلاح وحـده لا يحـل قضيـة ولا يـأتي بحـق مسـتلب. وطلـب منـي أن أدلـه عـلى المـكان الـذي يختبـئ فيـه المسـلحون مـن الجنقـو، فنصحتـه بأنـه قـد لا يسـتطيع أن يعيـش كـما يعيشـون، ولـو أنـه يـأكل كل شيء تمامًـا مثـل الجنقـو، لكنـه في النهايـة، ود مدينـة، وعلاقتـه بالمـكان لا تتعـدى السـياحة الخشـنة، وأن الخطـر الكبـير الفعـلي هـو احتـمال تعرضـه لـلأسر، والأسر هُنا يعنـي الموت البطـيء المؤلم، أو الإصابـة، أو ربمـا القتـل. قـال، كعادتـه عندمـا يُخْـشَى عليـه مـن المـوت:

- أنـا مـا ح أمـوت قريـب.. عـارف كـدا. والإنسـان بيمـوت بإرادتـه، وإذا مـا كان مسـتعدا للمـوت، مـا في شيء يقتلـه!

أعـرف أنـه لا يُحَـاج، وأنّ مبرراتـه حـاضرة دائمًـا، لكننـي أعـرف الصعوبـات التـي سـيواجهها، أقصـد التـي سـوف تهزمـه شر هزيمـة. وذكرتـه بعاقبـة مغامرتـه مـع الصافيـة، وكيـف انتهـت بتوريثـه سُـمعة سـيئة؛ ومغامرتـه مـع أبرهيـت ولـدو إسـحق، والنهايـة المأسـاوية التـي أفضـت بـه إليهـا، حيـث شَـمّتَ علينـا طَفْلَـةٌ عِشرينيـةٌ، مَـدّتْ لنـا لسـانًا أرقـط تفـوحُ منـه رائحـة الكرمـلا، كـما ذكرتـه بنقاشـه البيزنطـي مـع الأم مريـم كُـودي راعيـة الكنيسـة، حيـث كاد يقتلنـا المؤمنـون لـولا أن سـتر اللـه، وبمـا جـرى بينـه وبـين ود أمونـة أيضًـا مـن حـوارٍ فاشـلٍ، كسـبه الأخـير، وبغـير ذلـك مـن مغامـرات صغـيرة فاشـلة تافهـة خاضهـا بعنـاده هنـا وهنـاك، عـلى أن ذلـك كلـه هـين، سـوى أن الأمـر الآن قـد يصـل للمـوت وهنـا تكمـن الخُطـورة الحقيقيـة! لكنـه رَدّ عَـليّ قائـلًا

-أولًا، هنالـك مبـدأ أؤمـن بـه، وهـو أن الرجـل الناجـح هـو الـذي يفشـل ليسـتثمر فشـله، أمـا موضـوع الصافيـة دا موضـوع مصنـوع مـن خيـال الجنقـو والجنقوجورايـات لا أكـثر، ومسـتحيل امـرأة تغتصـب ليهـا راجـل، يـا راجـل!

- قلت له ضاحكًا:

- حتى لو كان عندها موضوع وصفه الفكي على الزغراد بأنه كبير.

قال محتجًا:

- وين شافوا الفكي الزغراد.. وكيف؟

ثـم راح يفنـد ليّ كل مـا ذكرتـه مـن فشـل، محيـلًا إيـاه إلى انتصـارات، بـل فتوحـات باهـرة. أخذتـه إلى التّايـة معـي وبقـي هنالـك خمسـة أيـام، قبـل أن يأخـذه الشـايقي إلى تخـوم إريتريـا. ظللنـا نسـمع أخبـاره مـن وقـت لآخـر، تأتينـا مَشُـوكةً بالكِـتِرْ والحَسَـكَنِيتِ، ملوثـةً بطـين سـبتمبر الّلـزج، وعليهـا خَـوفُ الناقـل وحِـرصُ السـامع وهَوهَـوةُ الريـحِ الجنوبيـةِ الرطبـةِ، تأتينـا أخبـارهُ مـرةً باللغـةِ التِجِرِنّـةِ، ومـرة بالأمهـرا، وأحيانًـا

بالبَنِي عَامِر، أوالبجاويت، أو العربية المُكسرة، عربي الجنقو، بالرندوك أو بلهجة البدو الرشايدة الزبيدية. كان يبعث إليّ برسائل كثيرةً، مع أقرب زوار أو أصدقاء مشتركين، وكنتُ أرد عليه، ولكن بحذر شديد، طلب مني مرة، أن أرسل إليه ما أسماه الجدول الزمني اليومي لحركة موظفي البنك، كتقرير بعد مراقبة لصيقة لأسبوع واحد فقط، ثم لأسبوع آخر بعد مرور أسبوعين من الأول، ثم مراجعة الجدول كل ثلاثة أسابيع لحساب معدل الانحراف بصورة دقيقة، وفعلًا قمت بالعمل على أكمل وجهٍ، مستعينًا بود أمونة، ولكن ليس بطريقة مباشرة، لأنني مثل الجميع، لا أثق في ود أمونة، ولربما أشك في أنه قد يكون عميلًا مزدوجًا، ومستفيدًا من معلومات ظللت أستخلصها من بُوشاي نفسها، حيث إنّ مدير البنك، لا يزال يضاجعها على الهواء؛ بالموبايل. كانت تعرف قليلًا عن نظام حياته، ومع ذلك فالفائدة التي كنا نجنيها من علاقتها بالمدير كانت كبيرة، لأن بوشاي إذا طلبت منه أن يحضر إلى منزلها في أي وقت، فإنه لا محالة قادم متنكرًا دون أن يعلم أحدٌ بتحركه، ما يتيح فرصة التصرف فيه كما يَشاء الجنقو المقاتلون. في الحقيقة لستُ أدري ما يُريد الجنقو أن يفعلوا بالبنك وأهله على وجه التحديد، لكنني كنت متأكدًا من شيء واحدٍ، هو أنهم كانوا ينوون بهم شَرًا، ربما يُمكن وَصفه بأنه: مُستطيرْ.

فَتَاةٌ مِنْ أَسْمَرا

جَرَبَتَـهُ، ويُظَـنُ أنهـا كانـت أول مـن حـاول معـه، زينـب إدريسـيت، القادمـة مـن القَرْقَـفْ. صبيـة صغـيرة معجبـة بنفسـها عاشـت في أسـمرا مـا لا يَقِـل عـن سـبع سـنوات عَرِفَـتْ فيهـا حيـاة الحُرِيـة والرفاهيـة ونظافـة الجسـد والمـكان والـروح. هربـت مـن الخدمـة الوطنيـة الإلزاميـة في بلدها، أقامـت بالقرقـف أسـبوعًا كامـلًا، إلى أن أرشـدها بعـض فاعـلي الخـير إلى الحِلـةِ، ثـم اقتِيـدَتْ إلى بيـتِ الأم، وعنـد البـاب قابلـت ود أمونـة، ولم تخـف إعجابهـا بـه حـين أعلنـت، وهـي في دهشـتها الأولى:

- هنا برضو في رجال حلوين ونضاف بالشكل دا!

قلن لها: بالتأكيد.

ولم يفْصَحْـنَ أكـثر، حيـث احتفظـن لأنفسـهن بإجابـات كثـيرات أخريـات، لكـن بَعضهـنِ سـألن بَعضهـنِ في صمـت: لمـاذا بالفعـل لم نفكـر في ود أمونـة كرجـل؟ لقـد ظـل عالقًـا في أذهانهـن كصديـق، كأخ أو كخـادم طَيّـع وربمـا في بعـض الأحيـان: كعَـرّابْ؟ شرحـت لهـا أدّي وضعيـة ود أمّونة في البيـت، وأنّ بإمكانهـا الاسـتعانة بـه في كل شيء، وأنّ عليهـا أن تعاملـه برفـق ولا تثقـل عليـه.

-هنا نحنا كلنا نعامله كدا.

تَـمّ تصنيفهـا كفتـاة سريـر جيـدة، لـذا حُـدِدَتْ لهـا شروط الوظيفـة وأخلاقياتهـا وقيمهـا. كان لهـا طلبـان:

الأول: ألاّ تفعـل شـيئًا مـع أي كان إلاّ بعـازل جنـسي، وعَرّفَتَـهُ بالاسـم" كونـدوم». الثـاني هـو أنّ لهـا الحـق في أن تقبـل الزبـون أو ترفضـه، ويجـب ألا يجبرهـا أحـدْ.

- حسب مزاجي أقبله أو أقول لا.

ثم أضافت عبارة جعلت أدّي تضعها في مصاف المحترفات، عبارة كشفتْ كذبتها المركزيةِ، بأنها ما قَدمِت إلاّ هروبًا من الخدمة الوطنية الإلزامية، حيث قالت وهي تلوي فمها يُمنة ويُسرة في مزاجية عجيبة:

-السُمْعَة الطيبة المعروفة بها أدّي، خلتني ما أناقش مسألة القُروش؛ نصيبها كم، ونصيبي كم؟ ولأن أدّي في حاجة إلى دماء جديدة، وافقت على كل الشروط، وكُلّفَ ود أمونه بالذهاب إلى سُوق الكِترة وشراء كارتونة كبيرة من العازل الجنسي الـ«كوندوم»، بالمواصفات التي قدمتها زينب إدريسيت، مرفقة باسم الشركة، وسنة الصُنع، زودته بعَيّنة للمقارنة، حتى لا يخدعوه بعينة قديمة انتهت صلاحيتها. وبقيت محتفظة في حقيبتها بكمية كبيرة من أجود الأنواع. قالت لها أدّي:

- ود أمونة، اعتبريه أخوك.

واعتبرت أدّي أنها قلّدَتْ زينب تميمة تحمي بها ود أمونة من أي نوايا سريرية قد تفكر فيها، فقد نُقِلَ لأدّي تعليق زينب، بعد تكييفه محليًا بتفاسيره الملحقة. لم تُعّلِقْ زينب بت أسمرا، هزّت رأسها إيجابًا، وابتسمت. فيما بعد قالت زينب لود أمونة:

- إنت أجمل راجل في الحِلة دي كلها .

قال خجلًا حيث إنه أول مرة في حياته يَسمع تعليقًا واضحًا عن نفسه وصريحًا:

- معقول؟

قالت وقد صارت أكثر صراحة ووضوحًا:

- كلهم عفنين ووسخانين وريحتهم ترمي الصقُر من السما. الرجال في أسمرا يشبهوا الملايكة.. إنت مفروض تعيش في أسمرا.. تشتغل بارستا في أي بار أو فندق هناك، تكسب دهب عديل.

ثـم أخبرتـه عـن المكانـة الكبـيرة التـي كانـت تشـغلها في أسـمرا، وكيـف أنهـا كانـت نجمـة عاليـة في سـماء المدينـة، سـمعتها تطبـق الآفـاق، لـولا التجنيـد الإجبـاري، آه.. آه، أنـا مـا بحـب الحـرب ولا المـوت ولا بحـب أشـوف الـدم. أخبرهـا عـن رجـال مختلفـين ومثقفـين جـاؤوا مـن الخرطـوم، مـدني، القضـارف، كسـلا وبورتسـودان، الأبيـض.. يعملـون في البنـك وشركـة الاتصـالات، طُلمبـة البـترول، الأمـن، الشرطـة، سُـوق المحاصيـل وفي المحليـة أيضًـا، هنالـك ضبـاط جيـش وبعـض الجلابـة أصحـاب المشـاريع الكبـيرة وأولادهـم أيضًـا، شرح لهـا أنّ الحِلـة بالنهـار ليسـت الحِلـة بالليـل، وأنّ معظـم مـن ذُكِـرَ، يأتـون للعشـاء الفاخـر في منـزل أدّي ليـلًا، وبعضهـم يـأتي لتنـاول وجبـة الإفطـار، حتـى معلمـو الثانويـة العُليـا، وأكـد لهـا أنـه وأدّي سـوف يُخَصِـانِهَا للرجـال مـن الطبقـات العُليـا وليـس الجنقـو. أشـارت له بأنهـا تحـس أن بينـه وأدّي شـيئا غريبـا، فحلـف لهـا بربـه أنّ ذلـك لم يكن.. وأنّ أدّي لا تمثـل لـه سـوى صاحبـة المنـزل.. فالمهنـة تقتـضي ألاّ تخـترق حـدود الأم. ولمـا اطمأنـت: راودتـه عـن نفسـه. حَسـنًا، سـوف يقـضي آخـر طلبـات أدّي ويعـود إليهـا؛ ولكنهـا فقـط عندمـا طلعـت شـمس اليـوم التـالي، تأكـد لهـا بمـا لا يـدع مجـالًا للشـك أنـه لـن يعـود، نامـت!

قَسَمُ الشَيخِ العَربِيْ

الأراضي التـي زرعهـا البنـك وموظفـوه قُـدِرَتْ بثلاثـة آلاف فـدان أو أكـثر بقليـل. في الواقـع كانـت هـذه الأرض بـورًا؛ تنمـو فيهـا أشـجار الكِـترْ، الطلـح والسَـيّال وبعـض الأعشـاب المُوسـمية التـي تخـضر مـع موسـم المطـر؛ مثـل البُـوص والنَـال والعَـدَارْ. وقـد حُجـزت هـذه المسـاحة مُنـذ عـصر الاسـتعمار الإنجليـزي مراعـي للماشـية، حَيـثُ يُحيـط بتلـك المنطقـة، وبأعـداد كبـيرة، بـدو الحمـران واللحويـين، الذيـن يعتمـدون في حياتهـم عـلى الرعـي. ومـا كانـت فداديـن البنـك لتثـير إشـكالية مـا، لـولا أنهـا كانـت كل مـا تبقـى مـن أراضٍ غنيـة بالأعشـاب للرعـاة، حيـث إنّ كِبـار التجـار ظلـوا يسـتولون عـلى أراضي الرعـي بشراهـة في السـنوات العشريـن الأخـيرة، مـا دفـع الرُعـاة إلى الهِجـرة إلى مـا حـول المُـدن والتجمعـات السـكنية، وقـد تخلـص كثـير منهـم مـن حيواناتـه واشـترى عربـة بوكـس وبيتـا وفتـح دكانًـا أو مطعـمًا وعمـد عـلى حيـاة المدينـة، ولكـن الكثيريـن منهـم اسـتعصموا بماشـيتهم، وهـؤلاء هـم مَـنْ أثـار المشـاكل. دفـع الرعـاة بوثيقـة قديمـة، مُنْـذُ عهـد الإنجليـز، تخصـص المـكان للرعـي، ترسـمه، تخططـه، تحـدد معالمـه بختـم وتوقيـع الحكومـة. كان يحتفـظ بهـا أحـد شُـيوخ اللحويـين في جُـراب مـن جلـد الماعـز، محشـورٍ في شـنطة حديديـة كانـت تُسـتخدم لتخزيـن الذخـيرة مـن بقايـا حـرب الطِليـان والإنجليـز. كانـت تفـوح منهـا رائحـة وبـر الشـياة وعبـق عـشرات المواسـم المطـيرة، ووهـن الأزمنـة التـي تنسـحب متباطئـة كسـولة، وعفونـة طازجـة لخياناتِ مختلـف الحكومـات الوطنيـة، وشـتى الحـكام الوطنيـين، كانـت تنتظـر في صـبرٍ حـذرٍ، كفتيلـة لُغْـمٍ قديـم صـدئ. طـرح الشـيخ العـربي الوثيقـة عـلى الأرض مبـاشرة، عـلى الرغـم مـن المحـاولات المميتـة مـن قبـل أعضـاء اللجنـة لإقنـاع الشـيخ العـربي بوضعهـا فـوق طاولـة كبـيرةٍ مـن الصـاج،

كانت تتوسط جمهرة الخصوم والمصلحين. قُرِنَتْ على عَجَلٍ، وكأنها محفوظة مدرسية. ثم حلف شَيخُ العرب بالطلاق أنه إذا لم يتنازل موظفو البنك عن الأرض بما زرعوه عليها؛ إنه سيفعل ما لا تُحمد عُقْبَاهُ، مؤكدًا أنه لا يخشى الحكومة إطلاقًا، ما دامت عصابة من البلطجية والسُفهاء تقلع حقوق الناس نهارًا جهارًا، وختم حديثه قائلًا: (السَوّاي مُوْ حَدّاثْ)!

ودون أن يستمع لما قيل بعد ذلك.. طَوَى وثيقته في رفق وأناة، وخرج تبعه في صمت سَبَعة من أولاده، وكبار عشيرته، ووصل إلى مسامعهم بعد يومين؛ أنّ مدير البنك علّق قائلًا:

- وَرَقته دِيْ خَلِيهُ يَبلّها ويَشّرَبْ مُويتها.. هو قايل الإنجليز لَسّعْ قَاعِدِينْ؟! ظاهر عليه من ناس أهل الكهف.

أعضاء لجنة المصالحة زعموا، بحكم ما لهم من معرفة وثيقة بأمزجة العرب، نابعة من معايشة لصيقة، أنّ بعض المال والاعتذار سوف يبطل ثورة شيخ العرب، ويحولها، في الغالب إلى تكبيرة فرح، وبالفعل، حُدِدَ مبلغٌ من المال كبير، أُضِيف إليه وعد بهبة إلى شيخ العرب مقدارها مئة جوال من الذرة بعد الحصاد، وتَمّ إرسال المبلغ والوعد مع وفد الصلح رفيع المستوى، حيث أكرمهم شيخ العرب، مُبديًا رَفضًا ضَعيفًا للمَالِ والوعد، ولكنه سرعان ما عَادَ واستلمه جبرًا لخاطرهم! فيما بعد فسّر أحد أعضاء الوفد أنّ قبول الشيخ المال بهذه السهولة، يعني أنّه أخذه كحق، لا كرشوة، وهذا يعني أنه لا يزال على موقفه الأول. لم يصدقه أحد، فالبعض مشائيم تسيطر عليهم روح التشكك. وشيخ العرب بنفسه أكّدَ أن إكرام الزائرين لا يتم بأقل من قبول وساطتهم، وذاك إرث قديم يحرصون على صونه. وإذْ قال شيخُ العربِ فإنه يعني ما يقول. قال العضو المتشكك:

- ولكنه حلف بالطلاق!

قالوا ساخرين:

- العربي لو ما حلف بالطلاق في اليوم ثلاث مرات يكون مريضا!

كانت في نفس المتشكك خيوط منطق واهنة أخرى، لكنه فَضّل الاحتفاظ بها حتى لا يصنف طابورًا خامسًا، كما أن به رغبة صميمة في أن تستمر علاقته بالبنك مزدهرة وسالمة من عوارض الزمان والمكان، مالك وموضوع شيخ العرب. قالوا :إنّ البنك عندما صَنّفَ أعداء التقدم والمدنية بالحلة، الموسومين بتهمة خلق المشاكل، وإثارة النعرات القبلية وادعاء المعرفة، أخذت أنا وصديقي مواقع في رأس القائمة، فليس غريبًا إذن، أن يستجوبني مكتب الأمن في بناياته المرعبة خلف السوق. وكانوا يطالبونني بالإجابة عن سؤال واحدٍ، داروا حوله كثيرًا، وقد كانوا بدءوا به أيضًا، وخرجت منهم دون أن أُشبع شهية السؤال فيهم لأنهم انتهوا به كذلك! -لماذا جئت إلى الحلة؟

أنا ذاتي لم أسأل نفسي هذا السؤال، وكان حَريا بي أن أفعل، لقد زرنا أنا وصديقي أماكن كثيرة؛ قرىً، مُدنًا، ومفازات. ومنذ أن طُرِدنا للصالح العام، قبل خمس سنوات، ما استقر بنا الحال في مكان، أكثر مما استقر بنا بالحِلةِ، حيث تزوجت أول امرأة أحبُها وأعرفها في حياتي، وهي ألم قشي وللمرة الأولى فلحتُ الأرض، وصار لي بيت وأرضٌ خاصتي.

وأظنُ ذلك من بعض حكمة خلقنا؛ إعمارُ الأرضْ. لا أذكر كيف كنت أجاوبهم، ولكنني ذكرت اسم ألم قِشي أكثر من عشرين مرةٍ، على الرغم من أنهم لم يطرحوا علي ولو سؤالًا عرضيًا عنها، قالوا إنهم يعرفون عني وعنها كل شيء، ولكنهم لا حاجة لهم بهذا الذي يعرفون، إنهم يريدون معرفة شيء واحد فقط: لماذا جئت إلى الحِلة؟! بيني وبين نفسي أعرف أن هذا السؤال هو المفتاح السحري لدائرة إبليس عند طَواسين الحلاج، إذا قبلت به، دخلت

الدائـرة اللّعينـة التـي تحتـوي في بطنهـا عـلى أخـرى، كلـما انغلقـت واحـدةٌ انفتحـت واحـدة، فيسـتحيل الخـروج إلاّ للدائـرة السـابقة فقـط، لـذا كنـتُ بغريـزة ميتافيزيقيـة أنزلـق عـلى سـطح الدائـرة، ولا أحفـر فيهـا، حـذر الولـوج، وهـو مـا يَعرِفَـهُ الأمنيـون بالزوغـان مـن الإجابـة، وغالبًـا مـا يُعالـجُ هـذا المـرض الخطـير بالـضرب في الـرأس مبـاشرة، لكنهـم لم يفعلـوا، ظنًـا منهـم أنّ الوقـت تجـاوز هـذا الأسـلوب، فـضرره أكـثر مـن نفعـه.

جَهَنّم.. جَهَنّم عديل!

انتصف شهر أكتوبر تمامًا، وذلك يعني ضمن ما يعني، أنّ المزارعين فرغوا من حصاد السمسم، وأنّ العيش استوى تمامًا، جَفّتْ أقصابه وقناديله واستدعى حاصدوه، وراجت دعاية بأن البنك استورد عددًا كبيرًا جدًا من الحاصدات الآلية الحديثة، كي تقوم بحصاد العيش والسمسم، والحاصدة التي تحصد مئة فدان في اليوم لا تحتاج غير ثلاثة من العاملين الفنيين القادمين مع الآلات من المدينة وعاملًا واحدًا غير ماهر، يقوم بالعتالة. لقد أحضرت هذه الحاصدات في وقتٍ ينتظره الجنقو طويلًا، وهو الشهر الأخير من موسم الحصاد، حيث يرتفع سعر العمل إلى أعلى مستوياته، وها هم الجنقو الآن فرادى وجماعات يتفرسون في الآلات الشيطانية وهي تقوم بالعمل نيابة عنهم، وترميهم في جُبْ العطالة دون رحمة، وتضحك عليهم بتعتعة معدنية حامضة ممقوتة تهتز لها الأرض. كان ملاكها موظفي البنك أيضًا، وقد قللت سعر العمالة للربع تقريبًا. وكي تطلق طلقة الرحمة على هؤلاء الجنقو المحبطين الآن، نُوقش في ندوة غاب عنها المغني العجوز في منزل أداليا دانيال، موضوع المبيد الكيماوي الذي لا يترك قَشة أو نبتةً طُفَيّلية واحدة تنمو، وينوي البنك استيراد هذا الشيء في الموسم الزراعي القادم، بل سيأتون بماكينة تتولى استئصال الأشجار الكبيرة والصغيرة على السواء، في ما لا يزيد على ربع الساعة، بدلًا من عملية أُم بحتي اليدوية، التي تأخذ فيها الشجرة الصغيرة وحدها ما يُقارب اليوم بكامله، دون أن يأمن المزارع ألاّ يظل منها باقٍ في جوف الأرض. ماكينات وآليات لم تطف يومًا بكوابيس الجنقو، ولكن ها هم الآن يسمعون بها كما الأحجيات، وقد رأوا منها آلة حصد السمسم العملاقة، ذات الأذرع المرعبة التي تتلوى على الأرض

مثـل ثعبـان جريـح، ويُسـمع صريـر سُـيورها وخِـوار عادمهـا عـلى بعـد مئـات الأمتـار. وكان الجنقـو يتجمعـون بصـورة عفويـة مـن التّايـات القريبـة والكنّـابي والحـلال المجـاورة ليتفرسـوا في هـذا المخلـوق الـذي يبتلـع السمسـم ابتلاعًـا، ثـم يلفظـه في لحظـات معبـأً في جـوالات الخيـش، ويرمـي بأقصابـه دائخـة عـلى الأرض السـوداء الجافـة. لقـد رأوا حاصـدات عَيـش الـذرة مـن قبـل، ولكنهـا لم تنجـح كثـيرًا في هـذه الأنحـاء، نسـبة للخـيران الكثـيرة والغابـات وتكلفـة صيانتهـا العاليـة، ولكنهـم يقولـون إن هـذا المخلـوق صنعـه الصينيـون خصيصًـا لمواكبـة طبيعـة الأرض في الـشرق، ومواجهـة نـدرة الوقـود وغـلاء العمالـة اليدويـة. وكلـما سَـمع الجنقـو بميـزات هـذه الحاصـدات الجديـدة، ازدادوا إحباطًـا، وقـد عَلّـقَ أحدهـم قائـلًا:

- النـاس ديـل مـا لقـوا آلـة تَحَمِّـل النُسـوان كـمان، عشـان نَشُـوف لينـا شَـغَلة تانيـة في الدنيـا دي؟!

لقـد كان أثـر هـذه الآلات، والدعايـة المصاحبـة لهـا، عميقًـا في كل نواحـي الحيـاة، ليـس في الحِلـةِ وحَدُهـا، ولكـن في الجِـيرة والحَفـيرة، خُـور مَغاريـف، الفَشـقة، الهَشـابة، زَهانـة، هَمْدَائِيـتْ، جَبـل عسـير، في الحُمَـرة نفسـها، في تِسِـنَي وضواحـي القضـارف، عـلى تخـوم سَمْسَـمْ، الجَنّـة بَـره، اللّيـة، حجـر العسـل، الحُـوري، أم سَـقطة، العرديبـات، المقـرن، المفـازة، الحَواتـة، دُوكـة، وريفهـا إلى أعـالي نهـر الدنـدر و اولاد شـيقوق، مـشروع غنـم، عرديبـة كُـرسي و عرديبـة تجـاني. أُصِيـبَ الجنقـو بخـدر في الـروح بـارد ومُـرْ، الحِلـةُ تمثـل مركـزًا لهـم دون منـازع، لـذا كانـت الفجيعـة هنـا أكـبر، والتغيـير واضحًـا، مثـال لذلـك العطـب الـذي أصـاب بيـت الأم، قـلّ زواره مـن الجنقـو وصغـار المزارعـين، وشردت داعراتـه وعاملاتـه، كثـير منهـن هاجـرن للمـدن المجـاورة خاصـة خشـم القربـة، كسـلا، القضـارف بـل ذهـبن حتـى إلى الخرطـوم، وعمـل بعضهـن عـلى جانبـي الطريـق القومـي بائعـات للقهـوة، الشـاي، الشيشـة والأطعمـة لسـائقي الشـاحنات

السفرية، حتى ود أمونة، يُقال إنه يتدبر أموره للانتقال إلى الخرطوم نهائيًا، ويثرثر الناس بأنه قد اُستلطف من قِبل شخصية مرموقة وأن الحظ قد يبتسم له ابتسامة كبيرة جدًا. حدث هذا في أقل من شهر واحدٍ، ولكنه شهر تقوم عليه شهورُ السنة الاثنا عشر كلها، وفيه تكتمل زينة الجنقوجوراي، وربما استطاع أن يَضع أَمَنيِّةً كبيرةً من المال عند صديقاته من صانعات الخمور البلدية أو أدّي، اللائي يمثلن بنوكًا شعبية صغيرة، أَمَينِّة رحيمة: طيبة، وغير ربوية. في ذات هذا الشهر تخزن النساء حاجاتهن من العيش الذي يشترينه من صغار المزارعين رخيصًا، وقد يحتفظن بجوال من السِمْسِمْ، للاستفادة من فرق السعر لاحقًا عندما تُفْتَحُ زريبة المحاصيل لاستقبال إنتاج الموسم الجديد، أو عندما تدخل شركة السمسم كمشترٍ، أو تحدث كارثة ترفع سعر السمسم. ولكن الأيام تمضي سريعًا، البعض يحصد المال الوفير سهلًا، ويقف الجنقو وصغار المزارعين والنساء يتفرجون، وقد هرب الكثيرون، وعلى رأسهم الفكي علي الزغراد، ومدير البنك بعد أن حاول اغتياله رجال مجهولون، وسافر خلق كثير من الجنقو إلى أقاليم أخرى على مشارف الحواتة وضواحي القضارف، مؤكدين للجنقو هنالك أن البنكَ: قادمٌ إليهم قادمٌ إليهم. ومن الأحسن أن يبحثوا عن سُبل للعيش أخرى.. وأن الدعاية التي يسمعون هي الحقيقة عينها. امتلأت الحلة بالعسكر: بوليس وجيش، احتياطي مركزي ودفاع شعبي، شرطة شعبية وأمن عام، أمن إيجابي وأمن اقتصادي. وظهرت حملات تجنيد مذعورة للشباب والشابات أيضًا وحتى العجزة أدخلوا الدفاع الشعبي. وبدا واضحًا للجميع أن هنالك علة ما، قد لا يدرون كنهها على وجه الدقة.. ولكنهم يفهمون مَنْ وراءها، على الأقل يستطيعون ترشيحه بكل سهولة: المال. كانت الحِلة تمر بلحظة ميلادٍ جديدٍ قاسٍ، ميلاد يقتل ويحيي، هي نفسها لحظة اكتشاف الذهب في الأرض الجديدة، والماس في بريتوريا والكيب

تـاون، والقطـن في السـودان.. إنهـا لحظـة اكتشـاف المـال السـهل، نـوع مـن الحمـى غريـب، حمـى المـال. الصافيـة تحمـل عـلى ظهرهـا القوقـو مشـدودًا عصـاه مـن حطـب العنـدراب، يتبعهـا خمسـة مـن الجنقـو الذيـن دائمًـا مـا يشـكلون معهًـا فريقًـا واحـدًا، نزلـوا عندنـا في التّايـة، في الصبـاح عملـوا معنـا في الحصـاد وسـكب القصـب في آنٍ واحـد، كانـوا سُـعداء وهـم ينشـدون أغـاني الحصـاد الجميلـة التـي كادت تيبـس عـلى أفواههـم. مُنـذ أسـابيع كثـيرة توقفـوا عـن العمـل نتيجـة لمنافسـة الآلات الرخيصـة السريعـة والأكـثر دقـة. كانـوا يعملـون بشـهية كبـيرة ومتعـة لا تحدهـا حـدود، ثـم جـاء إلينـا فريـقٌ آخـر بقيـادة تـور مُـراح مرسـال وفي رفقتـه ثلاثـة مـن الجنقـو، ثـم انضـم إلينـا فريـق وورل أجانـق ثـم محمـد ود النوايمـة، ثـم الصـادق آدم عبـاس، ثـم... ثـم... ثـم... كأنمـا دُعـي الجنقـو عـن طريـق الإذاعـة التـي يسـمعونها طـوال الوقـت، ومـلأت الأغنيـات سـماء المـكان الصافيـة الزرقـاء، وأقمنـا أجمـل الليـالي هُنـا، لأن قطعـة الأرض التـي اشـتريتها بقصـد الزراعـة، وعملـت عـلى نظافتهـا مـع الشـايقي ومختـار عـلي، لا تتعـدى مسـاحتها العـشرة أفدنـة، ففـي خمسـة أيـام فقـط تـم حصادهـا، وقطـع قصبهـا، وجمعـه في كـوم واحـد كبـير، وزربـه بالشـوك حتـى لا تصيبـه الحيوانـات أو تعبـث بـه القـرود. وافـق مُختـار عـلي أن نـترك للشـايقي نصيبـه لأنـه غـير موجـود الآن، وأن نقسـم الباقـي مـع الجنقـو بالتسـاوي. وهـو مـا رفضـه الجنقـو تمامًـا، ولكنهـم وافقـوا عـلى أن تخصـص خمسـة جـوالات عيـش مـن الفيتريتـة للمريسـة، وأن تُسـلم لبيـت الأم. نقلنـا العَيـش بلـوري الخـط إلى الحِلـة، وكان أول عيـش يتـم جَلبـهُ، وشـاء القـدر كذلـك أن يكـون آخـر عيـش يصـل الحِلـة في هـذا الموسـم الحافـل.

بعيـدًا عـن رأيـي أنـا الخـاص في مـا حـدث، أخـيرٌ هـو أم شر، أريـد أنْ أؤكـد شـيئا أساسـيا، أننـي كنـت بعيـدًا عـن مجريـات الأحـداث، أولًا لانشـغالي بحصـاد الأرض التـي زرعتهـا مـع الشـايقي ومختـار عـلي، ثانيًـا

لانشـغالي بأخبـار ألم قِـشي. في الحقيقـة أخـذ هـذا الـشيء الأخـير الجـزء الأكـبر مـن تفكـيري، ولم يـترك لي وقتًـا لأعـرف تفاصيـل الجنقـو المسـلحين، ولا مـن انضـم إليهـم مـن رُعـاةٍ حانقـين، منـذ أن زارني الشـايقي قبـل شـهرٍ مـضى، وردّ لي المبلـغ الـذي أخـذه منـي في حـادث بـاص همدائييـت؛ أقصـد أننـي مـا كنـت متفرغًـا، بصـورة أو بأخـرى، لِـمَا يُشْـبِهْ النـدوات الكثـيرة التـي أقامهـا الجنقـو في التّايـات والكنّـابي المجـاورة، وربمـا حتـى تلـك التـي عُقـدت مؤخـرًا في الحِلـة. وكان لبعـد ود أمونـة عنـي، وانشـغاله بالبنكيـين وقـد كـثُرت زياراتـه إلى الخرطـوم، وزاد انشـغالي بالمفـازات، أثـر في افتقـاري لمـا يمـلأ فراغـاتي المعلوماتيـة، وينبـه غفلتـي. ولكننـي لم أسـتطع أن أسـامح نفـسي عـلى أن أفاجـأ مثـلي مثـل الهـوام والبهائـم، بالحـدث العظيـم. ففيـما يشـبه النـدوة الفجائيـة أو في الحقيقـة النـدوات التـي تفـوق المئـة، الطارئـة، التـي انعقـدت في شـوارع الحلـة، وفي بيوتهـا؛ فجـأة، كالنبـت الشـيطاني في لحظـة واحـدة، كان الـكلام يـدور عـن النـار! حسـنًا دعنـا نلتقـط بعـض الأوصـاف التـي يطلقهـا النـاس، يصفونهـا لأنفسـهم، لأنـه ليـس هنالـك شـخص ينتظـر أن يسـمع شـيئًا مـن آخـر، وصفًـا أو تفسـيرًا:

-جَهنّم... جَهنّم عديل.

قالت امرأة عجوز، تحاول جهدها أن تسمعني صوتها:

- يا ولدي دي شيء ما حدثت إلاّ لقوم سمود.

قالـت الأم مريـم كـودي للأطفـال المرعوبـين الذيـن اسـتجاروا بالكنيسـة يصلون:

- الرب يَسُوع يكون في عونهم.

ورسـموا خلفهـا شـارة الثالـوث المقـدس، دعـوا لأصحـاب المشـاريع الصغـيرة بالعـوض الجزيـل:

-أمين.

وقـع الحـدث العظيـم، عنـد السـاعة الواحـدة بعـد منتصـف اللّيـل. حينهـا اسـتيقظ النـاس عـلى ضـوء حريـق هائـل في عمـق المشـاريع. وكان اللهـبُ الجبـارُ يتشـابى إلى عنـان السـماء الصافيـة الزرقـاء، كتنـين أسـطوري يحـاول أن يلعـق الأنجـم بلسـانه النـاري. اندلعـت في البدايـة، بضعـة حرائـق هنـا وهنـاك، ثُـمّ الأرض كُلهـا اشـتعلت نـارًا، قُـل أذرعًـا مجنونـة تلعـب في الفضـاء لعبًـا. كان عُرسًـا مـن الجحيـم لا يمكـن وصفـه، وتبـع ذلـك مُوسـيقى تصويريـة بائسـة مـن صراخ الأطفـال الذيـن صحـوا مذعوريـن وولولـة النسـاء المرعوبـات، وهترشـة السُـكارى. ثـم عـلا عزيـف زخـات الرصـاص مـن أعـماق غابـةِ زهانـة، وتحركـت كتيبـة مـن الاحتياطي المركـزي والشرطـة تتخبـط دون هـدى حـول الحِلـةِ، حيـث لا يمكـن الخروج لمـكان آخـر. فالنـار هنـاك دائمًـا والحِلـة هـي المـكان الوحيـد الآمـن. كانـوا يصنعـون تشـكيلات عسـكرية عبثيـة لا معنـى لهـا في الغالـب، ومـع شروق الشـمس؛ فَضّـتْ النـارُ احتفالهـا، مخلفـة أرضًـا سـوداء كحنـاء عـلى أطـراف عـروس هائلـة، دافئـة، وأسـطورية، تَهِـبُ جَسـدًا بـآلاف الأفدنـة، قُربانًـا للريـح.

نَشِيدُ الجَسَدْ

لا يعرف الناس شيئًا حقيقيًا عن الأم أدي، لافتراضهم الخاطئ بأنهم يعرفون عنها كل شيء، بالتالي لم تُحك عنها حوادث أو أشياء مُدهشة، ولم أسمع أحدًا يتحدث من قبل عن حياة أدّي: ماضيها، أسرتها، بلدها ولا حتى اسمها الحقيقي، فلقد كانت مثلها مثل كل الأشياء المعتادة كالماء والسماء والليل والنهار. قال لي ود أمونة؛ وكنا في ذلك الحين نحكي عن ذكريات سجن القضارف؛ أنا كابن سجان، وهو كسجين صغير في صحبة أمه؛ حينما انحرف بنا الحديث إلى سيرة أدّي:

- لو ماتت أدّي فجأة، لا قدر الله؛ منو الحَيَرِثَاَ؟

وما كان ود أمونة يرجو إجابة مني، بل كان يكمل رأيًا أدلى به في بداية حديثنا عن أدّي، كانت مقاتلة في الحركة الشعبية لتحرير إريتريا، منذ أن كان عمرها لا يتجاوز السبعة عشر عامًا، ود أمونة وغيره من الناس يعتبرون ذلك من المسلمات والبدهيات، ويؤمنون بأنها كانت محاربة شرسة وشجاعة وجميلة، وأنها قائدة ميدانية بارعة، وأنها هُزِمت كثيرًا وانتصرت كثيرًا؛ شأنها شأن كل الأبطال؛ ورأت موت الرفاق والأصدقاء، وجُرِحَتْ وأُسِرت وهربت من الأسر. وأنها كانت قبل الثورة صديقة لمنقستو هيلا مريام، عندما كان فالولًا في تخوم الحدود السودانية الإريترية الحبشية، ويُظَنُ أن أحد والديها إريتري والآخر إثيوبي، أو كليهما إثيوبي أو إريتري. كل هذه المعلومات الواضحة التناقض، هي المعرفة الجيدة والوحيدة المسموح الإيمان بها وتصديقها هنا في الحِلة. لم تسمح لي فترات جلوسي معها ومقابلاتي القصيرة لها، بالتأكد من صِحة هذه المعلومات، حيث كانت الأم دائمًا مشغولة بشأن يخص البيت، أو أحد الزبائن، أو البُنَيات وود أمونة. الوقت دائمًا للعمل. قال لي وهو يمسح وجهه الوسيم بكفه:

- إنتَ مَا بِتَعرفنِي كُويس، مُشْ؟

اندهشت في بادئ الأمر. كنا في بيت أدّي صبيحة هروب حبيبتي ألم قشي مني إلى زوجها وطفلتيها، ولقد فَرّغ ود أمونة نفسه لتسليتي. شربنا مَعًا بعض كؤوس العسلية المنعشة، قلت له بعد تردد قصير:

- والله.. لحد ما.

قال ضاحكًا محاصرًا إيّاي:

- من القُولات والنَدوات في بيت المَرايس وبس، مُشْ كِدا؟

قلت له معترفًا بتقصيري في خجل:

- تقدر تقُول كِدا، لأننا ما لقينا وقت نقعد فيهو مع بعض زي القعدة دي، حتى الأم ذاتها أنا معرفتي بيها طشاش طشاش. وفي حاجات قلتها لينا أنا وألم قشي، عن السجن والطباخ وأمك والعازة، وشوية حاجات تانية ما أظني متذكرها.

قال بتأثر:

- أنا ما لاقي زول أتكلم معاهو عن نفسي، عني أنا بالذات، أنا عندي حاجات كثيرة زامّاني في صدري، عايز زول صاحب أحكيها ليهُو، عشان يورِيني الصح شنو والخطأ شنو. قلت له، وقد أحسست إنني في ورطة، لأنني في الحق لا أعرف الصحيح من الخطأ في السلوك الإنساني، وهو يريدني الآن حكمًا:

- أنا بحب أسمعك، ولكن أنا ما بقدر أقول ليك دا صح ودا خطأ، ولا في زول في الدنيا بيعرف الصح من الخطأ، لكن على كل حال، أنا عايزك تحكي لي كصديق وكأخ ما أكتر.

حرك الهواء على جمر الشيشة بهبابة صغيرة من السَعَفْ، فبدا الجمر محمرًا بعد أن تطاير الرماد في كل الاتجاهات، وكأن ذلك يعني

الكثير لود أمونة، لأنه قال لي مباشرة بعد ذلك:

-حياتي زي الجمرة دِيّ، أنا ما ارتحت لحظة.

ثمّ هتف فجأة وهو يحملق في وجهي:

- أنا بِتْ والّا ولَدْ؟

ولأنه ما كان يريد مني إجابة بعينها، واصل حديثه بهدوء شديد، شرح لي كيف أنه اكتشف نفسه وهو في نحو الثامنة عشرة. كانوا مجموعة من الشبان يسبحون في نهر باسلام، وهو أحد ميادين اللعب التي يواظبون عليها، ويؤدون بعض الألعاب المعروفة، مثل التمساح والغطاس ولعبة العود وغيرها. وكانوا يتلامسون في كل هذه الألعاب بأجسادهم، وهو شيء عادي ولا غرابة فيه، ولكنه ذات يوم أحسّ برعشة قوية كادت تغرقه، عندما التصق جسده بجسد ولد آخر بينما هما يلعبان لعبة التمساح والغطاس. كان دائمًا ما يعجب برشاقته ومهاراته في الصيد، ولكن ما حدث في ذلك اليوم كان شيئًا غريبًا جدًا. قال لي:

- قلت في نفسي، ربما أكون لمست البَرَدَةْ.

وهي نادرًا ما توجد في تلك المياه، كان هذا هو التفسير الوحيد المتاح لود أمونة في ذلك الوقت، ولكن ما حدث له مع الرجلِ الغريب الذي جاء لبيت الأم ذات دَرَتْ(صيف)، يعتبر نقطة التحول الفعلية في حياته. كان رجلًا ناعمًا رقيقًا، يبدو في أواخِر خمسيناته، رشيقًا، وسيمًا ويتحدث بلطف وهدوء كبيرين. كانت النساء يتكلمن معه في كل شيء دون حرج، بل وكأنه واحدة منهن، عندما رآه ذلك الرجل، ناداه، أمسك بيديه، وجذبه قريبًا من وجهه، كان له عطر أصبح عطر ود أمونة الأساسي منذ ذلك اليوم، قربه أكثر، إلى أن أحسّ بأنفاسه في وجهه، قبّله قُبلتين في خديه، ثُمّ همس في أذنه برقة، وهو يمسح بيده الأخرى على شعره:

- اهتم بنفسك، إنتَ أميرْ.

وسمعها ود أمونة: إنتِ أميرة.

كان يرتجف في نشوة مسحورة وهو يستنشق كلمات الرجل وقبلاته بكل ذرة من جسده. وسافر الرجل في اليوم التالي، ولم يره منذ ذلك الحين، إلاّ أنه أصبح يهتم بجسده، ومظهره الخارجي، بِمِشيته، حركة يديه وردفيه بصورة مُدهشة، وكان يرى في النساء النموذج الأسمى للاهتمام بالجسد، بل قال لي بصورة واضحة، إنه يتمنى أن يكون امرأة، وأنه يكره تلك المذاكير التي تتدلى بين ساقيه، ويتشهى نهدين بارزين، وخصرا رهيفا، ووجها أنثويا جميلا. وقال- فيما معناه - إنه يرغب بشدة في أن يرى دم الحيض يسيل من تحته. وقد لاحظت أمه أمونة فيه تلك الميول الأنثوية منذ فترة مُبكرة، ولكنها دائمًا ما تقول له:

- خليك راجل يا ود أمونة، خلي حركات البنات للبنات.

وكان يغتاظ من تعليقها، لأنه في ذلك الحين ما كان يحس بأنه يتشبه بالبنات، إنما يتصرف بسجيته، وقد يتشاجر معها كثيرًا في هذا الشأن. قال لي فجأة وهو يدفع بكلتا يديه في الهواء:

- أنا جُوَايَ بِتْ!

عندما نطق تلك الجملة أحسستُ به وكأنه قد تَخلّص من حِملٍ ثقيلٍ كان يقبع على ظهره، ثم تحدث كيف أنه يحس الآن بتأنيب الضمير لما فعله بطباخ السجن، وأنه لو يعود الزمن القهقرى، لِما تردد لحظة واحدة، في أن يمّكنْ الرجل من نفسه، قال في حَزَنٍ:

- المسألة ما كانت تستاهل العنف دا كُلهُ.

قلت له عندما هدأ قليلًا، كلامًا لا أدري مدى صحته:

- كل راجل جُوَاهُ بِتْ، وكل بِتْ جُوَاهَا وَلَدْ.

قال وفي فمهِ ابتسامةٌ قلقةٌ:

- لا، أنا جُوايَ بِتْ حقيقية، بِتْ مجنونة، وعايزة تطلع، بأي شكلٍ كان.

كنت أحس بصدق كل كلمة ينطق بها ود أمونة، وهو يكبر في نظري بصورة أسطورية، أجد نفسي صغيرًا جدًا أمامه، لأنني لا أستطيع أن أقدم له أي مساعدة ولو نصيحة هزيلة، وبالرغم من أن ود أمونة بدا قويًا ومتماسكًا، فإنه كان يريدني أن أجاوب عن سؤاله المركزي: ما هو الخطأ فيه؟ ثُمّ سألني، ما إذا كان صحيحًا ما يُقال إنّ في أمريكا بإمكانه أن يتخلص من مذاكيره دون آلام، وقد يتزوج ويعيش ويعمل. أجبته أن ذلك صحيح. سألني:

- المَشي لأمريكا ساهل؟

أجبته، لقد كان هذا أكثر الأسئلة سُهولة لَديّ:

- عن طريق اللوتري.

قال لي ببراءة:

-اللوتري دا شُنو؟

فشرحت له فكرة اللوتري، ثم سألني أكثر من عشرين سؤالًا آخر، وعندما أحس بأنه قد أرهقني بالأسئلة، قال لي معتذرًا:

- أنا حشرتك في مشاكلي الخاصة، وجننتك بالأسئلة البايخة، وإنت بَرَاك عِندك مَشاكِل قَدر الجبال.

بالتأكيد كان يقصد مشكلة ألم قشي، فأكدت له سعادتي التي لا توصف بقلبه الذي فتحه لي على مصراعيه، وطلبت منه أن يحكي لي المزيد، كنت أريد أن أعرف هل حدث له أن التقى رجلا، لقاءً حميميًا، ولكنني لا أمتلك شجاعة صديقي في طرح الأسئلة وتحمل

نتائج الإجابات. ولم يحدثني بذلك من تلقاء نفسه، ولكنني كنت متأكدًا من أنه فعل. وكأنما قد قرأ ما يدور بذهني، قام بتغيير مجرى الحديث، وقال:

- إنت عارف إنو الأم دي أكثر إنسانة سعيدة في الدُنيا، بالرغم من أنو ما عندها عِيال ولا عِندها أسرة، حياتها ما اتزوجت ولا ولدت.

قلت له:

- السعادة الحقيقية هي لمّان يكون الزُول عندو هدف في الحياة. في ناس هدفهم الأسرة والعيال، في ناس هدفهم المتعة اليلقوها من الناس من حولهم، من احترام وحب وصداقة، وفي ناس هدفهم البحث عن كل شيء، كل شخص يعرف كيف يكون سعيدا.

قال ود أمونة متحدثًا عن نفسه:

- أنا بَحس بالسعادة لمّان أخدم الناس وأخليهم مبسوطين.

تحدثنا كثيرًا وجميلًا، حدثته عن أسرتي وأسرة صديقي، عن القضارف والسجن، بعين ابن سجان. حدثته عن تجاربي في الحياة القليلة الفقيرة مقارنة بحياته العميقة الصاخبة. وأسرّ لي بنيته في السفر إلى الخرطوم والعمل هناك. وأن رجلًا بالبنك وعده بأن يعرفه بشخصية مهمة جدًا، كبيرة جدًا، غنية جدًا، واصلة جدًا وشبقة جدًا. وإنه إذا توافق معها ستنفتح أمامه بوابات العالم كلها، وأكد لود أمونة قائلًا:

- إنتَ تساوِي وزنك دَهَبْ، لكن في البلد دي لا تسوى بَعَرة.

لم أعلق تعليقًا مفيدًا على ذلك، ولكن كنت أحس بأن هنالك شيئًا من المبالغة، ولو أنني لم أستبعد ذلك تمامًا، وبعد أعوام كثيرة، عندما أرسل لي صديقي رسالةً إلكترونية، ملحقًا بها كتابه التوثيقي، الموسوم بثورة الجنقوجواريات، لم أستغرب أن يصل ود أمونة إلى ما

وصـل إليـه مـن معرفـة ودرجـة وظيفيـة رفيعـة. عندمـا أراد ود أمونـة أن يغـادرني إلى بعـض مشـغولياته، قـال لي جملـة لم أفهمهـا جيـدًا إلى الآن:

- صديقك مُدهِشْ!

قلت له بسرعة:

- تقصد شنو؟

قـال وهـو يقـف عنـد البـاب وينظـر إليّ في وجهـي مبـاشرة، وعـلى فمـه ابتسـامة غنجة:

- أقصد مُدهش وبس.

قلت له:

- إنـت في البـاص يـوم ماشـيين همدائييـت، تذكـر يـوم أخـدوا قُروشـنا نـاس الشـايقي، قلـتَ لي حاجـة عنـهُ. ولكـن مـا تميتهـا.

قال ضاحكًا:

- وإنت ما سألتني تاني، ما فيش بَبْبَح!

وخـرج يتبعـه عطـره الجميـل، في مِشـية تنـم عـن كبريـاء وثقـة في النفـس لا تحدهـما حـدود.

خَاتمُ النَبَي سُليمَانْ

بالتأكيد ما كان لرجل عاقل مثلي أن يبقى بالحِلةِ دقيقة واحدة أخرى. فبينما ينعس الناسُ الساهرون بالأمس مع مهرجان النار الذي أتى على كل مزارع الذرة، هربنا أنا وصديقي مختار والصافية، وكثير من الجنقو الآخرين، إلى الحُمرة بإثيوبيا. كنا قافلة صغيرة مرعوبة وخائفة، تقودنا الأم التي كانت لا تحمل شيئًا سوى صُرةٍ صغيرةٍ ثقيلة، بها كل ثروتها في شكل ذهب، ولكنها كانت تبدو مرهقة، نسبة لسمنتها وبعد عهدها بالجري والهرولة. مضى أكثر من ثلاثين عامًا، منذ أن ودعت ميدان المعركة واعتادت على نمط عمل مريح. ورغم الخوف الذي يتملكنا جميعًا، لم نتركها خلفنا. بل نحيط بها ونساعدها على حمل ثروتها. فلها عَليّ وعَلَى كل واحد منا فضائل كثيرة. عبرنا النهر سباحة؛ فالجميع يجيد السباحة بمن فيهم الأم، حيث إنها تسبح في خفة ومهارة قد يفتقدها كثير مِنا. هرولنا على أرض صَخرية قاسية، ولكنها رحيمة وطيبة. تنكمش في عطف تحت أرجلنا لتقرب لنا المسافة إلى الحدود الإثيوبية التي هي مقصدنا وخَطْ الأمان الأول. كثير من الجنقو يحملون هواتف نقالة، وقد اتصلوا بأصدقائهم وأقاربهم، وعرفوا أنّ الجيش يتعقبنا ولكن على أرجلهم، فآلاتهم القتالية وعرباتهم لا يمكن أن تعبر النهر.

وقالوا لنا :هنالك احتمال أن يستعينوا بطائرات مقاتلة من القضارف أو كسلا. لذا تحتم علينا أن نسابق الريح فعليًا نحو الحدود الإثيوبية، وفعلنا، وفي اللحظة التي دخلنا فيها خُور الحُمرة، سمعنا ضجيج الطائرة الهليكوبتر خلفنا. كُنا نظن أن الطائرة لا يمكنها أن تطلق علينا قنابلها ونحن في الأراضي الإثيوبية، إلاّ أنّ الأم وجهتنا للاحتماء بالأشجار والكهوف التي تكثر بالخور، كانت تحلق الطائرة

فـوق هامـات الأشـجار، ويثـير هواؤهـا عاصفـةً غباريـةً كثيفـةً تحجـب عنـا الرؤيـة وتشـتت أفكارنـا، ترمـي كثـيرًا مـن الرجـال الجوعـى صرعـى، ترعبنـا وتحاصرنـا حصـارًا محكـمًا، وكـما لـو كانـت تريـد الاحتفـاظ بنـا في الخـور لحـين وصـول الجنـود. وحـين تتركنـا للحظـات، ربمـا للمنـاورة، كانـت الأم تعيـد ترتيبنـا. وقـد نبهتنـا مـرة بـأن نهـرب نحـو عُمـق الحـدود في ذات الخـور ولكـن متفرقـين، لـذا عندمـا عـادت الطائـرة مـرة أخـرى، لم تجدنـا هنالـك، ولكنهـا لم تتوغـل معنـا في داخـل الحـدود الإثيوبيـة، فتركتنـا وعـادت. وبعدمـا تأكـد لنـا أن الطائـرة لـن تعـود، تجمعنـا مـرة أخـرى عـن طريـق المنـاداة والصيـاح بصـوت عـالٍ، كنـا خمسـة وعشريـن جنقاويًـا، حيـث إننـي قمـت بعدِّهـم بعدمـا عبرنـا النهـر مبـاشرة، الآن أربعـة وعـشرون، ولم يكـن صعبًـا أن يتبـين النـاس أن الشـخص المفقـود هـو أدّي، وتفرقنـا في الغابـة والخـور بحثًـا عنهـا، ناديناهـا بأقـوى مـا تسـتطيع حناجرُنـا أن تصـدر مـن أصـوات، تتبعنـا المسـالك التـي مررنـا بهـا، عُدنـا للموقـع الـذي حاصرتنـا فيـه الطائـرة، ثـمّ إلى المـكان الـذي شُـوهدت فيـه آخـر مـرة، لم نجـد لهـا أثـرًا، وظَـنّ بعـض الجنقـو أنهـا تتبعـت طُرقًـا تعرفها إلى عمـق إثيوبيـا، فالمـكان ليـس غريبًـا عليهـا، حيـث إنهـا كانـت فالـولًا قبـل ثلاثـين سـنة، تتصيـد السـابلة عـلى مشـارف الحُمَـرة وتِسِـنَيْ. وقـال البعـض إنهـا ربمـا خشـيت أن يسـتولى الجنـود الإثيوبيـون على مالهـا، وأدلى كل بدلـوه. ولكـن ظلـت الحقيقـة غائبـة إلى أكـثر مـن أسـبوعين، إلى أن أخبرنـا ضُبـاط الرعايـة في مُعسـكر اللاجئـين، بأنهـم وجـدوا جثتهـا متعفنـة عـلى بعـد خمسـة أميـال شرق خُـور الحُمـرة، تحـت شـجرة سَـيّال، ويُرجّـح أنهـا قُتلـتْ، ولم يجـدوا معهـا أي شيء مـن المـال أو العتـاد.

قابلنـا الإثيوبيـون رسـميين وشـعبيين، بعـد نصـف سـاعة عـلى مشـارف الحُمـرة، عسـكرا وفريقـا طبيـا، موظفـين أمميـين ومنظمـة الهجـرة الدولية، قامـوا بالتحقيـق معنـا والتأكـد مـن أنـه ليـس معنـا أي أسـلحة غـير بعـض الفـؤوس والأسـلحة البيضـاء الشـخصية، ثُـمّ فُحِصُنـا طبيًـا وقمنـا بطلـب

اللجوء السياسي، وهو المُصطلح الذي لم يَسمع به كثير من الجنقو من قبل. تمّ حَصُرنا، وقام المسؤولون بتحديد موقع لإقامتنا، وأُعطينا أرقامًا بدلًا من أسمائنا وقَدّمَتْ لنا منظمة وطنية مجهولة بعض الطعام والماء. بتنا ليلتنا تلك في خيام ضيقة، ثم أخذت الأمم المتحدة في صنع مبانٍ أكثر راحة ملحقة بمراحيض وحمامات وعيادة صغيرة. كُنا مرهقين وجائعين ومتعبين ومتسخين، ومفلسين. أنا بالذات لا أمتلك ولا قرشًا واحدًا، فقد كان أملي في العيش الذي حصدته، وتركته في بيت أدّي، التي تركته بدورها في الحلة واختفت الآن في مجاهل إثيوبيا، وكل الجنقو مفلسون مثلي، لأنهم ما عملوا في هذا الموسم عملًا حصلوا منه على مال، ولولا الطعام والشراب والسكن الذي يقدمه لنا المُحِسنُونْ الأمميون لمِتْنَا. ثمّ ما لبث أن انضمت إلينا أُسَرٌ أخرى وجنقو آخرون وفدوا من همدائييت والقرقف وزهانة. بعد ثلاثة أشهر بالتمام، أي في بداية شهر يناير، أرسلتْ ليّ ألم قِشي ما يُفيد بأنها قد تنجب طفلًا في الأسبوع القادم، وعليّ أن أحضر السماية في همدائيت إذا كنت أضمن سلامتي. كنت في الخيمة وحدي، عندما جاءني مَنْ عرفت فيما بعد، أن اسمه إسحق المسلاتي. غالبًا ما أكون وحدي في الآونة الأخيرة، فصديقي مُختار علي، بعد أسبوع واحدٍ فقط قضاه معنا في المعسكر، ضَجِر، رغب في الخروج من المُعسكر، الذي لم يعد يطيقه، ويود الذهاب إلى فريق قرش؛ لديه أصحاب هنالك. طلب مني أن أصطحبه. وقال لي إنه يمكننا العمل في الحصاد مع المزارعين الأحباش كعمال يومية، أي كجنقو، وهو يعرف الطريق إلى مواقع العمل تلك؛ ولكن البقاء في المُعسكر مثل الشحاذين تحت رحمة الخواجات، هذا لا يروق له ولا يقبله. وحينما رفضت فكرته، وحاولت ثناءه عن الذهاب إلى أن نتبين مُجريات الأمور ونتفهم الواقع، هربَ إلى فريق قرش مع الصافية وجنقوجورايين آخرين. قال لي الجنقوجوراي الغريب. الذي عَرّفَ نفسه بسرعة، إن ألم قِشي بصحة

طيبة، وأنها سعيدة جدًا في بيت والد زوجها، وأنهم يحبونها جدًا، ويحبون أطفالها. بقدر سعادتي بأنها ستنجب قريبًا طفلًا يخصني، كان حزني كبيرًا وإحباطي أعظم، بمعرفة أنها سعيدة، وأنّ أسرة زوجها تحبها.. ألاّ يعني ذلك أنّ فرصة طلاقها، أصبحت هزيلة، بل تكاد تكون معدومة؟! قال لي الجنقوجوراي عندما قرأ حزني في وجهي:

- في فريق قرش نُسوان كُتار.. جميلات وحلوات زي السُكر وصغار.. امشي شوف ليك واحدة اتزوجها.. بلالاويات وفلاتيات وظبرناويات بازاوايات وجعليات ودينكا وتكرونيات، وطبعًا الحبشيات دي بلدهم.. البلد كُلها نساوين دي أجمل من دي.. ودي تقول لدي إنتِ شُنو. قلت له بصوت يخرج من بطني مباشرة:

- ما زي ألم قِشي..

قال بتحدٍ:

- في أجمل منها كتير.

قلت محاولًا تنبيهه إلى جوهر القضية:

- ما مسألة جمال.

قال بسرعة:

- مسألة شُنو؟ في نُسوان في الدُنيا عِرْفَنْ الموضوع دَا أكتر من نُسوان تانيات؟ في نسوان مخلوقات من طين ووحدات من نار؟ أنا عايز أفهم؟

قلت له محاولًا أن أجعله يفهم:

- المسألة ما مسألة موضوع.

قال ساخرًا:

يعني حُبْ؟ ما في مرة تانية تحبها؟ معليش عايز أفهم.

قلت له محاولًا أن أجعله يفهم:

في.. في كتير.. ولكن.

قال لي محاصرًا ومقاطعًا، بطريقة غريبة، مدهشة وغير مفهومة:

- آها.. شُنُو الفي ألم قِشي، وما في مرا تانية غيرها؟!

قلت له محاولًا باحساس العاجز عن الشرح:

- ما عارف.. حقيقة ما عارف.

قال لي بيقين راسخ وأعصاب باردة:

- أنا عارف.

قلت له بسرعة:

-قول لي ليه.. أنا ما عارف.

قال لي وهو ينظر للبعيد وكأنه يتحدث مع الفراغ الشاسع حولنا:

- ألم قشي دِي جِنيّة.. امرأة من الجِّن.

قلت مستعجبًا ومستغربًا ومندهشًا:

- جِنيّة؟

قال وهو يضع يده على كتفي في حركة غريبة:

- أيوا.. جنية راسو عديل جات من البحر دا.. البلد كُلها جنون ساكنين مع الناس وما في زول عارفهم..

كان طويلًا، أسمر، له بشرة لامعة، ووجه حليق نظيف.

- وإنت كيف عرفتها؟

قال بنفس قصير وهو يبتلع ريقًا جافًا:

- عرفتها.

ولأنني لم أرَ هذا الجنقوجوراي من قبل، أتاني إحساس غريب، بأنه فرد من الجِّن، وجدتني أنظر إلى هيئته، رجليه وأصابعه، متحريًا العلامات التي يُقال إنها تفرق ما بين الجن والبشر، وهي الأقدام.. الجِّن دائمًا ما تكون أقدامهم أقدام حَمير والقِلة كِلاب، للرجل قدما بشر، وهيئة إنسان سَوي ولا غَرابة فيه إطلاقًا، غير أنه نظيف بعض الشيء وفصيح وله ثقة متزايدة عن نفسه.

قال لي:

- أول شَخصٍ عَرِفَ ألم قشي في البلد دِي كُلها أنا؛ إسحق المُسلاتي القِدامك دا. وجاتني في تاية الجلابي عثمان عيسى هرون في الهَشابة جنب الكوبري، وقالت لي إنها شردت من سجن الحُمرا.. وقعدت معاي أسبوع كامل.. وكنت ح أصدقها، لو ما شُفت بعيني دي خِتِمْ الجان في ضهرها في آخر الضهر وجنب الصُلب، في شكل ختم النبي سُليمان ورسمه لي في الأرض. شفت الختم دا ولا ما شفته؟

قلت له باستسلام:

- في شيء، لكن هو ختم ولا وشم ولا شامة خِلقة، والله ما فكرت فيهُ ولكنه قريب من الشيء الرسمتهُ إنت على الأرض.

كان في الواقع هو نفس الشكل الذي رسمه الجنقوجوراي، كان واضحًا، بل بارزًا بينًا لا يُخْفَى. ولكنني كنت أضع مساحة لنفسي من أجل المراوغة. أضاف:

- يا أخوي.. دا خِتم الجن.. واليوم السألتها منه، اختفت تاني ما شُفتها.. إلاّ في الحِلة معاك، وتاني قابلتها في همدائييت الأيام الفاتت دي وقالت لي: استرني يا إسحق.. استرني.. لكن أنا حبيت أوريك، عملًا لله!

قلت له:

- ومن وين عرفت إنتَ خِتم الجِنْ؟

قال لي:

- أنـا عُمـري كُلـه قضيتـهُ في البَحـر هنـا، بـين هشـابة، الجـيرة، الحفـيرة، همدائيـيت، الحمـرة، زهانـة، حتـى خشـم القربـة والمنطقـة دي فيهـا أكـبر مملكـة جـن في العـالم، ديـل جماعـة سـيدنا سـليمان.

ختـم كلامـه قائـلًا، فيـما يشـبه نظريـة أو قـولًا منـزلًا: عـن أن الشـخص الـذي ضاجـع امـرأة مـن الجِّـن لا يـذوق بعدهـا طعـمًا لأي امـرأة أخـرى. وأكـد لي بصـورة قاطعـة أنـه مُنْـذ أن عـاشر ألم قـشي قبـل خمسـة عـشر عامًـا، وإلى الآن لم يلمـس أي امـرأة كانـت.. وسـألني بصـورة مباغتـة:

- هل هبشت إنت مرا بعد ألم قشي؟

وقبـل أن أجيبـه، أضـاف بصـورة دراميـة، في الحقيقـة أقـرب للكوميديـا السوداء:

- أنـا مُـشْ ح أخليهـا.. ح ترجـع لي.. ح ترجـع لي.. وأنـا.. مـا ح أمـوت قبـل اليـوم داك أبـدًا.

قلت له ساخرًا:

- يعني إنت في الصف معاي؟!

قال بجدية، ما جعلني أشك في سلامة قواه العقلية:

- مُـشْ أنـا وإنـت فقـط.. يفوتـوا الألـف ألـف ألـف مـن الرجـال.. في الدنيـا كلهـا منتظريـن.

ولم أقـل لـه كلمـة أخـرى، بـل تمنيـت لـو ذهـب الآن، وغـرب عـن وجهـي للأبـد، مـا كنـت أرغـب في أن أراه مـرة أخـرى .تمنيـت لـو كنـت في حلـم، ولكـن للأسـف كنـت أعايـش واقعًـا فعليًـا، يمكـن لمسـه، سـماعه،

رؤيتـه، والتحـدث إليـه. بقـي معـي إلى مـا بعـد مُنتصـف اليـوم، يتحـدث عـن ممالـك الجـان وأوطانهـم وأسـمائهم وحـلاوة نسـائهم، وأنهـم يوجدون في كل مـكان في كل أشـكال الأشـياء، ويمكـن أن تكـون نصـف الأشـجار التـي حولنـا الآن مـن الجّـان، ويمكنهـم التحـور في شـكل حـشرات، طيـور، حيوانـات أو بـشر، وفيهـم المسـلم والمسـيحي واليهـودي والكافـر، وفيهـم الـذكي والبليـد، المسـتقيم والشـقي. وأكـد لي مـرة أخـرى، أن الجِّـن الـذي يسـكن الـشرق كلـه، مـن خـدم النبـي سُـليمان الذيـن تفرقـت بهـم السُـبل بعـد مـوت الملكـة بلقيـس حبيبـة النبـي سـليمان. ذهـب مخلفًـا وراءه غابـة مـن الأسـئلة والأحـزان. عندمـا خـرج، جـاءني جنقوجـوراي شـاب اسـمه أبـو النجـا سـعيد، وهـو مـن خشـم القربـة، بـادرني قائـلًا:

- الزول دا كلمك عن الشياطين.. مُشْ كِدا؟!

قلت له مستغربًا:

-كيف عرفت!

قال لي:

- الـزول دا مُصَاحِـبْ جِنيّـة.. والنـاس كلهـا عارفـاه.. سـاكن جنـب البحـر في الحفـيرة.. مُـشْ قاليـك اسـمو إسـحق المسـلاتي؟

قلت دون إحساس بما أقول:

- أيوا.

قال لي وهو ينظر إلى أم عيني مندهشًا:

-أنـت مالـك؟ خايـف ولا شـنو؟ قـال ليـك شُـنو الـزول دا أصلـو؟! الـزول دا أكـتر زُول كضـاب في البلـد دي، اوعـك تكـون صدقتُـهُ؟ قـال ليـك شُـنُو؟

قلت محاولًا أن أكون طبيعيًا:

- لا شيء.. لا شيء..

في الصباح الباكر نُويتُ أن أذهب إلى همدائييت مهما كلفني ذلك، فهي لا تبعد كثيرًا عن الحُمرة، مسافة عشر دقائق بالمواصلات المحلية، وما يُقارب نِصف الساعة بالأقدام. ولكن المشكلة الكبرى هي كيف يمكنني التسلل من المعسكر والعودة إليه مرة أخرى دون أن يعرف ذلك ضباط الرعاية الاجتماعية، وأنا الآن شيخ المعسكر وزعيمه والناطق باسم اللاجئين، وغيابي ساعة واحدة سيبدو ظاهرًا للجميع. والمشكلة الأكبر هي المخاطرة بحياتي إذا تم القبض عليّ في همدائييت، سوف يتم إعدامي في ثوانٍ، تمامًا كما أُعدم عشرات الجنقو الذين تأتينا أخبارهم يوميًا. كانت المعارك بين الجنقو والحكومة ما زالت مُستَعِرة، والناس يتحدثون عن انضمام شباب اللحويين والحُمران إلى مُسَلحي الجنقو، قدروا عددهم بالمئات وأنهم الآن يتدربون على السلاح في تخوم تسني بإريتريا، وكي يبدو الموضوع في غاية الخطورة أضيفت إسرائيل إلى الحكاية ويُقسم البعض أنهم رأوا الصهاينة رأي العين، وهم يقومون بالتدريب، بينما نفى البعض الآخر أن اللحويين أو غيرهم من الأعراب، قد انضموا لجيش الجنقوجورا، ولكن الخبر المؤكد أن الحكومة بالخرطوم عن طريق وساطة إقليمية تتفاوض مع المسلحين، ويتحدث الناس عن اتفاقية سلام أخرى تخص الشرق.

أنا لست منشغلًا بالحروب، كنت منشغلًا بخزعبلات رجل اسمه إسحق المُسلاتي، عبارة عجيبة تفوه بها، أبت أن تغادر صحوي ولا منامي قال لي :

- إنت واقع في سِحْر جِنيّة.

تتملكني رغبة عارمة في أن أرى طفلي، ولو للحظات قلائل، رغبة لا يضاهيها سوى إلحاح مسألة ألم قشي بأكثر مما كانت عليه من قبل أن ألتقي هذا المُسلاتي المَخَبول، أنا لا أريد أن آخذ منها الطفل على الأقل في الوقت الراهن، إلى أن يكبر قليلًا ويتم فطامه، ولكنني أريد أن

أراه لا أكثر. صارحتُ تسفاي ضابط الرعاية الاجتماعية بموضوع طِفلي، فحذرني، وحكي لي حقيقة ما يدور الآن في المنطقة الحدودية ما بين قبائل العرب والجنقو الذين بدءوا يطالبون بحق الشرق في السُلطة والثروة ومن الجهة الأخرى الحكومة، وأنني إذا نجوت من طرف قد لا أنجو من الآخر. واقترح عليّ أنه من الأفضل أن تحضر لي ألم قشي الطفل لكي أراه في الحُمرة في منطقة الجمارك أي عند البار، وهي النقطة المتاخمة للنِهر الذي يفصل ما بين الدولتين، وهذه البُقعة لا تبعد عن المنزل الذي تقيم فيه ألم قشي مع بناتها وأبيهم أكثر عشر دقائق مشيًا بالأرجل. وقال لي أيضًا إنّ ذلك سيكون آمنًا وبرعاية الجمعية الدُولية للصليب الأحمر، وإنه سَوف يبلغهم عندما يحين الوقت، وهم الذين سيقومون بإحضار ألم قشي وطفلها إلى هنالك، لذا لا داعي للمخاطرة بحياتي، ما عليّ إلاّ أن أحكّم عقلي وأصبر، فقبلتُ بما اقترحهُ. بالفعل صبرت حتى جاءني ضابط الرعاية ذات صباح وطلب مني أن أكون مستعدًا لأنني في الغد سَوف أرى ابني الذي أكمل شهريه الأولين، وهو بصحة جيدة، ويمكنني رؤية أمُه أيضًا. كانوا يعلمون أنّ ألم قشي قد انفصلت عني بإرادتها، ويعرف تسفاي الحكاية كُلها، لقد قَصّهَا عليه كل الذين هربوا معي من الحِلة، كل بطريقته وأسلوبه الخاص. كنتُ وحيدًا، كعادتي في تِلك الأيام، أحس بحزن عميقٍ، بل بضياع تام، وربما أصبحت سريع الغضب لحد ما. وقد تشاجرتُ مع امرأة من الجنقو سرقت تُمباكًا من أحدهم، جاؤوا بها إليّ للفصل في الأمر. وكانت لئيمة وغاضبة، وحمّلتني كل ما حلّ بها من تشرد وضياع. كل ما قالته يُغْضِبُ، ورغم أن سرعة الغضب ليست من طبعي، كما أن موقعي كشيخ للمعسكر يتطلب مني الحكمة والروية، وليس الغضب والتسرع، إلا أنني بادلتها ذات الألفاظ البذيئة التي عبرت بها عن غضبها وكرهها لي، تألمت كثيراً بعد ذلك. أتت فجأة الصافية، التي ارتبط مصيرها نهائيًا بجيش الجنقوجورا،

وأصبحت لها أهداف أكبر من العمل والأكل والشُرب، أسرت لي بأنها تريد أن تقرأ في الجامعة وتتخرج محامية، وهذا ليس ببعيد عند الله، فود أمونة قد وجد أخيرًا من يرعاه ويهتم به في العاصمة، وقد يصدق ما قاله لهم صديقي عن النصر القريب، وأنهم سوف يحصلون على وضع متميز في الخرطوم بعد الاتفاقية. ثمّ حدثتني عن مختار علي الذي أصبح مريضًا جدًا، وصحته تتدهور يوميًا، وأنه ذهب إلى شَجَرةِ الموت بكامل اختياره. وقدر ما حاولوا هي وأصحابه، وحتى الشايقي الذي يأتي أحيانًا إلى فريق قرش، لم يستطيعوا إقناعه بالعدول عن رأيه، وقد تركته الآن هنالك وجاءت إلى هنا مستعينة بي لإنقاذه، قد حَمّلها وصيةً لي وهي: (أن أعود مباشرة إلى القضارف حيث أسرتي، وألاّ أبقى ثانية واحدة هنا في الشرق، لأن مصيري سيصبح كمصيره ومصير كل الجنقو: شجرة الموت، وهو لا يرجو لي هذا المصير التعيس). ولكن عندما أصبحنا وحدنا قالت لي: إن صديقي هو القائد الفعلي لجيش الجنقو والعرب وليس الشايقي، وهو الذي بعثها إليّ، وأنه يطلب مني أن آتي وأقابله في فريق قرش، لأمر تظن أنه ضروري، وهو أن أنضم إليهم، تمالكت نفسي لأطلب منها أن تعود إليه وتبلغه: بأنني ابن آدم مدني، وسأظل كذلك، أخاف من البُندقية، ويرعبني اسم الحرب ولا أستطيع قتل الإنسان مهما اختلفت معه أو أساء إليّ. أرسل لي معها بعض المال، الطعام المُعلّب والملابس. استلمت منها كل شيء، لأنني كنت بالفعل في حاجة بالغة لذلك، على الرغم من أن تسفاي ضابط الرعاية الاجتماعية، كان قد فاجأني بهدية ومعها بعض المال من أجل طفلي وزوجتي- سابقًا - ألم قشي، لعلمه بأنني أعدم القرش الواحد. وسأكون محرجا أمام طفلي وأنا أراه لأول مرة، وأتركه دون أن أقدّم إليه شيئًا، كان يعرف أن ذلك محزنٌ جدًا. صباح اليوم التالي، استيقظتُ مبكرًا، غسلتُ نفسي جيدًا، لبستُ الملابس الجديدة التي أرسلها ليّ صديقي، وأخذتُ المال والطعام المُعلب وهدية تسفاي

آمـلًا أن أقدمهـا لأم طفـلي، ومضينـا في لاندروفـر ون تـن نحـو الحـدود السـودانية. في الطريـق كانـت تطـوف بـرأسي أفـكار شـتى. لم أكـن أفكـر في ألم قـشي وولـدي وحدهـما، وهـو الأوجـب ومـا يَظُـنُ الأمميـون أنـهُ ينبغـي أن يحـدث، ولكنـي كنـت أفكـر في أمـور مختلفـة، وأنـاس شـتى، وعـلى رأسـهم ود أمونـة، وكنـت قـد عرفـت مـن بعـض الجنقـو الذيـن انضمـوا أخـيرًا لمعسـكر اللاجئـين بالحُمـرة، أن العـازة أُطْلِقَـتْ مـن السـجن، بعـد قضـاء زهـاء العـشرة أعـوام بـه، وذلـك عندمـا عـرف ود أمونـة السـبيل إلى مَسـؤول كبـير في الخرطـوم، قـدمّ لـه ود أمونـة خدمـةً خاصـة جـدًا، ولكـن أكـثر الأخبـار إدهاشًـا عـن ود أمونـة، وصلتنـي فيـما بعـد وأنـا في المِهْجَـرْ؛ هـي أنـه أصبـح وزيـرًا اتحاديًـا باسـم كـمال الديـن اليـماني، كيـف حـدث ذلـك؟ تلـك قصـة سـوف يحكيهـا لكـم أي فـرد مـن الحِلـة، فيـما يُشـبه النـدوات يـوم مريسـة أي سـيدة جميلـة كانـت، أو تجدونهـا في كتـاب صديقـي الـذي أشرت إليـه سـابقًا. طـاف بذهنـي أيضًـا: الفـكي عـلي، أبرهيـت، أدّي، بـوشي الجميلـة، عـالم لا أول لـه ولا آخـر، إلى أن توقفـت العربـة اللاندروفـر عنـد البـار الـذي يقـع عـلى الضفـة الشرقيـة مـن نهـر سـيتيت، مواجهًـا الضفـة الغربيـة التـي تقـع في السـودان، كنـت أعـرف هـذا البـار، فقـد قدمـت إليـه مـرات كثـيرة، ولي فيـه ذكريـات حلـوة ومُـرة أيضًـا، حيتنـي البارسـتات الـلائي قـد تعرفـن عـليّ، حيتنـي القنيـش صاحبـة البـار، فيـا طالمـا سَـكرنا معًـا، وتشـاجرنا، كـم سـبحنا معًـا في النهـر، سُـكارى وعـراة كـما ولدتنـا أمهاتنـا. كانـت ابتسـامتها التـي اسـتقبلتني بهـا تحـكي كل ذلـك. وكنـت أبحـث عـن ابنـي وألم قِـشي في كل مـن ألتقيـه، إلى أن قـادني تسـفاي وموظـف اللّجنـة الدوليـة للصليـب الأحمـر إلى غرفـة خلفية صغـيرة، وجدتهـا مليئـةً تمامًـا بـألم قِـشي وطفـلي الـذي سـميته مبـاشرة محمـد وهـو اسـم أبي. كانـت ألم قـشي في أبهـى حالاتهـا، أرق، أحـلى، أشـهى، أنـضر وأروع مـا تكـون المـرأة، يفـوح منهـا عَبـقُ عِطِـر جَسْـتِسْ الـذي كنـا نفضلـه دائمًـا، ومقلتاهـا النجـلاوان مكحولتـان بدقـة تعـرف بهـا.

طَلبتُ منها طلبًا لا أرجو له إجابة، ولكن لمجرد أن أشعرها بأنني ما أزال أحبها، لأنني حقيقة أحبها حبًا لم يُنقصه صدها، هجرها وجنونها مثقال ذرة. أن تأتي لتعيش معي في المُعَسكر بالحُمرة، نربي طفلنا معًا إلى أن نجد لنا مخرجًا. قالت لي بالتجرنة وهي تبتسم، وتعبث برأس الطفل، في خجلٍ:

- أنِيْ نَقَموْ مَفِي.

إلى الآن لا أصدق ما سَمعتُ، أبدًا لم أكن أتوقع أنها جاءت لتبقى معي، كم هو مُدْهش حقًا عالم النساء، بل كم هو مُحير ومُجنونّ! ولا أستطيع أن أعبر عن إحساسي بتلك اللحظة حتى بعد خمسة عشر عامًا، حينما بدأت في كتابة روايتي الأولى الموسومة بعنوان: الجنقو: مسامير الأرض. وكنتُ وألم قشي وأبناؤنا الثلاثة بالمهجر في ولاية فلوريدا الأميركية.

في طريق عودتنا للمعسكر، بعربة اللاندروفر، كنتُ أحملُ طِفلي الجميل محمد وبجانبي تجلس ألم قشي، تنظر إليّ بين الفينة والأخرى وتبتسم. كنت أسعد رجل في العالم. وبينما أنا أتفحص طفلي، وأبحث في ملامِحِهِ عن تفاصيل أسرتنا، إذا بي أرى أسفل ظهره، شَامةً صغيرةً زرقاءَ. تَبُدو في ضَوءِ الصَبَاحِ السَاطعِ، كما ذلك الرسم الذي خَطّهُ لي على الأرضِ المُسْلاتِي المُريبْ: **خَاتَم النبي سُليمانْ**.

ديسمبر 2004 إلى 12 يناير 2009

عبد العزيز بركة ساكن

خشم القربة

الفهرس

إهداء..... 5
بَيتُ الأم..... 9
السَجِينُ، السِجِنُ والسَجّانُ..... 15
امْرَأَةٌ اسْمُهَا أَلَمْ قِشِيْ 35
عَزُومَةْ الصَافِيَةُ 49
ودْ أَمُونَةْ مُتَبَلًا 57
مُخْتَار عَلي، كُلّيقَةْ، الجلابي سُماعين..... 65
سوقْ القَنْزِيْ..... 77
سَبَعَةْ يُومْ عَوَضِّيهْ بَيي..... 89
شَبَقُ المَرْفَعِينْ..... 99
أُغنية الفِرِّو، تَيرابُ البِنَيِّة، بُوشَاي، وأَشْيَاء أُخْرى..... 105
حوارٌ مَوضُوعيٌ وَكَرَميلا..... 117
قَطْعَ الرَحَطْ و الدُخْلَةَ 127
فَوائدُ مَا بَعد الحفل 135
الجَنَقُوجُورَايْ 141
وَصَتْنِي وَصِيَتَا 147
في مديح الحبشيات 153
هدايا ونصائح لود امونة..... 159
الجنقو يدخلون البنك..... 165
أَحوَالُ: ثَوَرَةُ الخُرَاءْ 177
أَحْوَالُ وثَوَرَةُ ألمْ قِشِي 193
حَول مِحْنة أدَالِيا دَانيال..... 209
السَارِقُونْ الرحماءَ..... 217
وَدْ أَمُونَةْ وَحدُه الذِي يَلّمُ بأطْرَافِ القُوَالاَتِ 221
صَيْدُ الحَلُوف 227

بُوشَايْ 231
صديقي الثائرُ 241
فَتَاةٌ مِنْ أَسْمَرا 245
قَسَمُ الشَيَخِ العَرَبِيْ 249
جَهَنّم.. جَهَنّم عديل! 253
نَشِيدُ الجَسَدْ 259
خَاتمُ النَبَي سُليمَانْ 267

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس